تطور المآذن في الجزائر

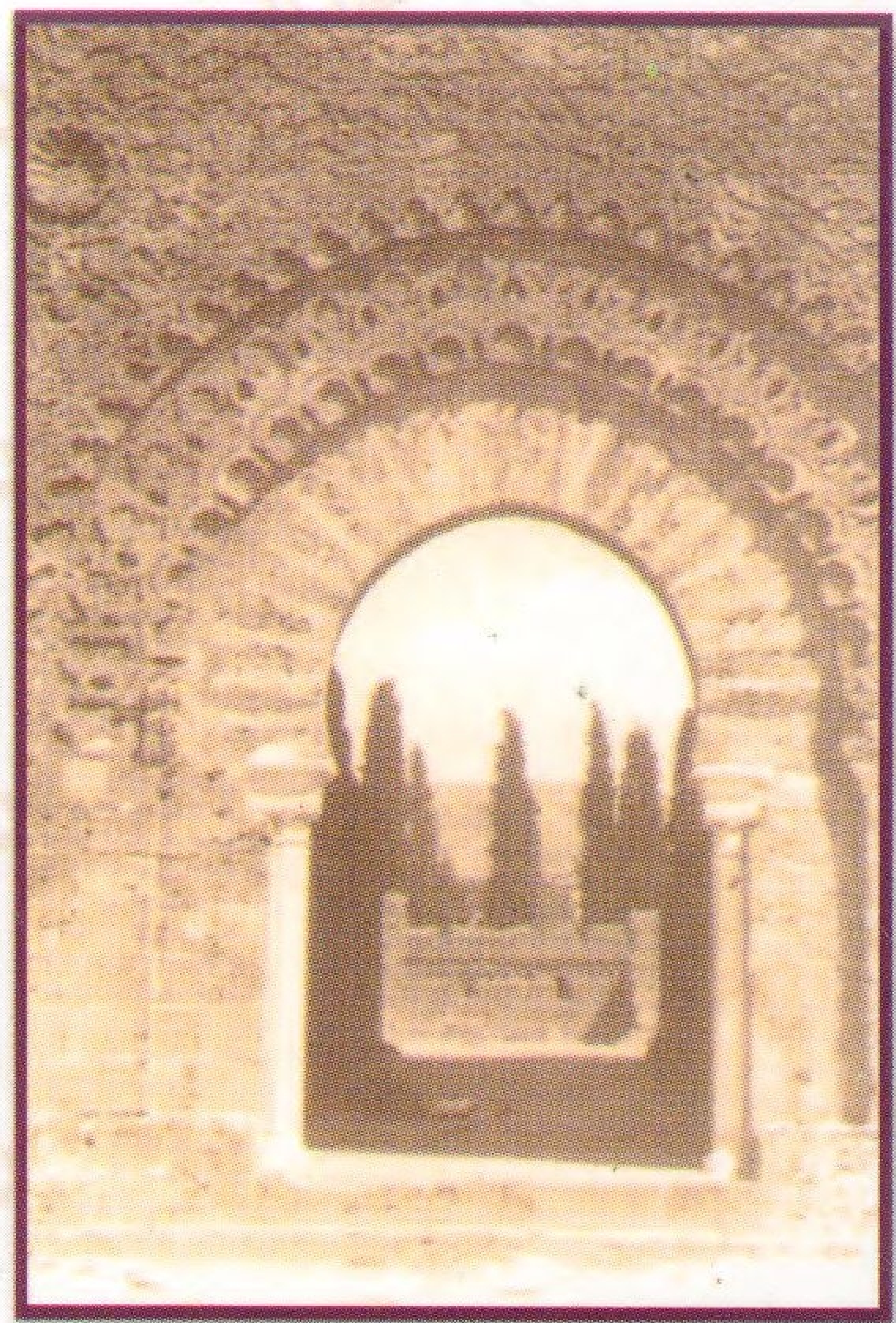

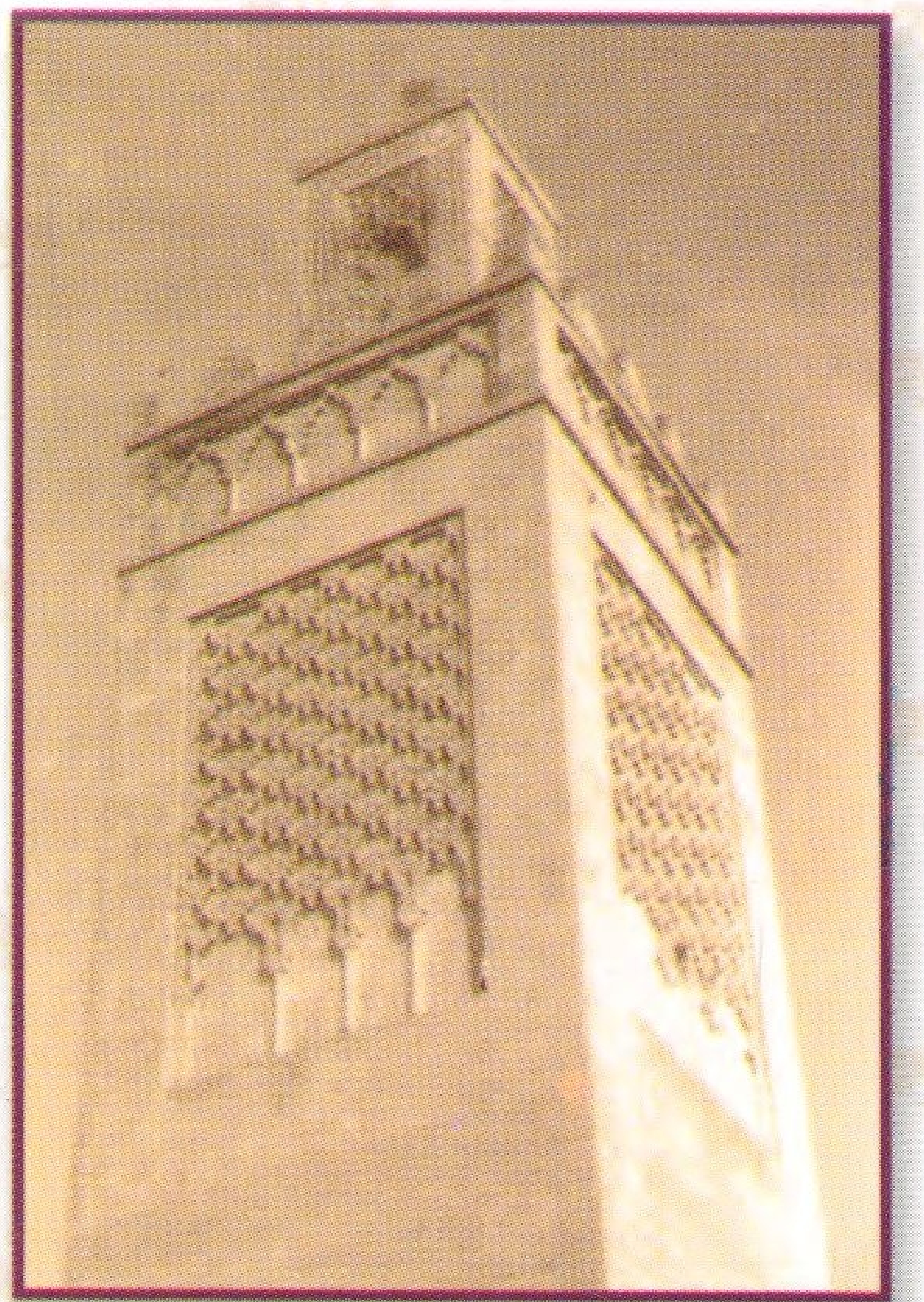

تأليف

الأستاذ / **عبد الكريم عزوق**

أستاذ الآثار الإسلامية

جامعة الجزائر

الناشر

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ شارع محمد فريد

ت: ٣٩٢٩١٩٢ موبايل: ٠١٢٣١٧٧٥١٠

تطــور المــآذن فــي الجزائر

تأليف

الأستاذ/ عبد الكريم عزوق
أستاذ الآثار الإسلامية
جامعة الجزائر

زهراء القاهرة
١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
ت: ٣٩٢٩١٩٢ - ف: ٣٩٣٣٩٠٩

حقوق الطبع محفوظه للناشر

اسم الكتاب	:	تطور المأذن فى الجزائر
اسم المؤلف	:	الاستاذ عبد الكريم عزوق
رقم الطبعة	:	الأولى
السنة	:	٢٠٠٦
رقم الإيداع	:	٧٢٥١
الترقيم الدولي	:	ISBN 977- 314 – 272 - 8
اسم الناشر	:	مكتبة زهراء الشرق
العنوان	:	١١٦ شارع محمد فريد
البلد	:	جمهورية مصر العربية
المحافظة	:	القاهرة
التليفون	:	٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢
فاكس	:	٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢
المحمول	:	٠١٢٣١٧٧٥١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى روح الوالدين الكريمين..

رحمهما الله وأسكنهما فسيح الجنان..

إلى زوجتي سميرة..

وابنتي العزيزة ياسمين

أهدي هذا العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر موضوع هذا الكتاب من الموضوعات الهامة الجديرة بعناية الباحثين في تاريخ العمارة الإسلامية في المغرب والأندلس، وتستلزم لجدتها وأصالتها جهودا مضنية، وقدرات متميزة، وبحوثا ميدانية متواصلة، ودراسات تحليلية ومقارنة لإبراز مراحل التطور في النظام التخطيطي لعمارة المآذن الجزائرية خلال الفترة موضوع البحث، و لاستنباط أهم الخصائص التي تميزت بها عناصرها المعمارية والزخرفية في كل مراحل تطورها. وموضوع البحث في حد ذاته لجدته وطرافته، وقلة ما كتب عنه، شائك يتطلب جهدا شاقا مضنيا، وفهما دقيقا وواعيا لكل نموذج من هذه المآذن، وتصنيفها تاريخيا بغية التعرف على أوجه الشبه والخلاف، وتقصي مراحل التطور، وأن كان ذلك لا يمكن تحقيقه بالنسبة لمآذن العصر الإسلامي لتنوع أشكالها، وتعقد نظامها التخطيطي.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قسم الطالب بحثه إلي خمسة فصول، قدم لكل منها بدراسة تمهيدية تاريخية موجزة أما الفصل الأول فقد خصصه لدراسة نظام المئذنة في عصر دولة بني حماد، وأختار من مآذن هذا العصر نموذجين: الأول يتمثل في مئذنة قلعة بني حماد التي تعتبر من أقدم مآذن المغرب الأوسط، و واحدة من أبرز المآذن المغربية التي تتميز بأصالة البنيان في كل أنحاء المغرب الإسلامي والأندلس، فكثير من العناصر المعمارية لمآذن الموحدين إنما اشتقت من هذه المئذنة. والنموذج الثاني يتمثل في مئذنة جامع قسنطينة التي تنفرد بين غيرها من مآذن المغرب الأوسط بنظامها التخطيطي الفريد، إذ أن قاعدتها أسطوانية الشكل. وقد أجري الباحث على هاتين المئذنتين دراسة معمارية دقيقة من حيث التكوين الداخلي والشكل الخارجي لكل منهما، وكذلك من حيث مواد البناء المستخدمة. وأفرد الفصل الثاني لدراسة المآذن الزيانية، و تتمثل في أربعة نماذج في تلمسان هي: مئذنة المسجد الجامع بتلمسان، ومئذنة جامع ندرومة، ومئذنة جامع سيدي أبي الحسن، ومئذنة جامع المشور. وابتدأ الفصل بعرض تاريخي موجز لبني زيان اتبعه بوصف عام

للمئذنة الزيانية، كما تعرض بإيجاز شديد لمآذن زيانية أخرى لم تبلغ في قيمتها الفنية ما بلغته الأمثلة السابقة. وخصص الفصل الثالث لدراسة مآذن بني مرين في المغرب الأوسط، وانتهج في هذا الفصل نهجه السابق في معالجة الموضوع فقدم لدراسته الأثرية بعرض تاريخي مقتضب عن بني مرين تلاه عرض سريع للطابع العام للمئذنة المرينية. واختار للدراسة الأثرية مئذنتين: الأولي هي مئذنة جامع المنصورة بتلمسان، وهي مئذنة فريدة من نوعها بين مآذن المغرب الأوسط، إذ أن دعامتها المركزية مجوفة تتألف من غرف متراكبة، ثم إنها أيضا تعد أروع أمثلة المآذن الجزائرية من حيث النظام المعماري والزخرفي الذي يعبر عن قدرات المرينيين الفنية العالية. ويتمثل النموذج الثاني في مئذنة جامع سيدي أبى مدين بتلمسان، وهي مئذنة مربعة الشكل أقيمت على غرار المآذن الزيانية. وأضاف الباحث إلي هذين النموذجين لمآذن بني مرين، مئذنة جامع سيدي الحلوي التي تعرض لها بإيجاز شديد لارتباطها الوثيق معماريا وزخرفيا بمئذنة سيدي أبي مدين من نفس العصر.

وبحث في الفصل الرابع في مآذن العصر العثماني، وبدأ كعادته بعرض تاريخي مبتسر لفترة الحكم العثماني للجزائر، واتبعه بدراسة الطابع العام للمئذنة العثمانية، واختار بعد ذلك خمسة نماذج لمآذن عثمانية متنوعة الأشكال تمثل نظام المآذن العثمانية منها المثمنة التي تظهر لأول مرة في عمارة المآذن الجزائرية، ومنها المئذنة مربعة القاعدة ومثمنة البدن، ومنها المئذنة ذات البدن المربع وفق النظام المعماري الشائع في المغرب في العهود السابقة، هذه النماذج هي مآذن جامع سيدي لخضر بقسنطينة وجامع الجيش، والجامع الجديد وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبى بمدينة الجزائر وجامع الباشا بوهران.

وأفرد الباحث الفصل الخامس والأخير لدراسة المكونات الزخرفية للمآذن الجزائرية وهي مقومات تختلف من مئذنة إلي أخرى، ومن عصر إلي آخر وقسم هذا الفصل إلي أربعة موضوعات رئيسية، تناول فيها العناصر الزخرفية النباتية ثم الهندسية فالنقوش الكتابية والمقرنصات. وحاول في دراسته لها تتبعها زمنيا خلال

الفترة موضوع الدارسة هذا، وإذا كان الباحث قدم بحثه بمقدمة قصيرة تضمنت أسباب اختياره لموضوع البحث والطابع العام لمآذن الجزائر وما تزدان به إجمالا من زخارف لوزنجية وحليات، واختتمها بعرض موجز لأهم المصادر و المراجع التي اعتمد عليها ومدى إفادته منها، واتبع هذه المقدمة بدراسة تمهيدية اشتملت على دراسة عامة للمآذن الأولي والآراء المختلفة حول مصدر اشتقاقها، ثم اختتمها بعرض موجز عن المآذن الأولي في المغرب والأندلس، توطئة لربطها بمئذنة قلعة بني حماد، إذا كان الباحث قد عرض كل ذلك في مقدمته ودراسته التمهيدية، فإنه اختتم البحث بخاتمة سجل فيها مظاهر التطور المعماري والزخرفي التي طرأت على نظام المئذنة الجزائرية في الفترة موضوع الدراسة، وأكد فيها أن المئذنة الزيانية والمرينية تمثل المرحلة التي بلغت بها المئذنة الجزائرية ذروة تطورها.

ومما لا شك فيه بعد استعراض موضوع الكتاب أن السيد/ عبد الكريم محمد صالح عزوق عالج موضوعات الكتاب باستفاضة وموضوعية تشهد له بالجدة والقدرة على إعداد البحث العلمي السليم، فقد اتخذ لنفسه منهجا في معالجة الموضوع يعتمد على الوصف العام لكل مئذنة على حدود وفقا لترتيبها الزمني، وعلى التحليل الدقيق لنظامها التخطيطي من الداخل والخارج، وما تزدان به أوجهها من حليات زخرفية: نباتية وهندسية وخطية، مستندا في كل ذلك على جهوده الذاتية ودراساته الميدانية بالإضافة إلي البحوث التي سبقه إليها الباحثون الفرنسيون أمثال: جورج مارسيه و هنري تيراس ولوسيان جولفان والفرد بل، ومرسيبه وكذلك على جهود الباحثين العرب و في مقدمتهم أحمد فكرى وكمال سامح وفريد شافعي وعبد العزيز سالم ورشيد بوروييبة، مركِّزا على مئذنة جامع قلعة بني حماد التي أثبت بما لا يدع مجالا للشك أنها مصدر جميع القيم المعمارية والزخرفية التي ظهرت في عصر دولة بني حماد على استحياء ثم تطورت في عمائر الموحدين، وقد وفق كل التوفيق في معالجة موضوعات البحث على نحو يشهد له بقدرات عالية في استفاء عناصر هذه الموضوعات وفى تسليط الضوء على أهمية جامع قلعة بني حماد وتأثيرها العميق على مآذن المغرب والأندلس.

ومن الواضح أن الدراسة التي قدمها الباحث عبد الكريم عزوق تعتبــر إضـــافة علمية قيمة في مجال البحوث الأثرية في المغرب الإسلامي وتبشر له بمستقبل زاهر في مجال البحث العلمي الأصيل، وفقه الله، وسدد خطاه ووهبه القدرة على المواصلة والجد أملا في مزيد من الدراسات القيمة بإذن الله وتوفيقه.

أ.د/ السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة والآثار الإسلامية

ومدير معهد دراسات البحر الأبيض المتوسط بكلية

الآداب جامعة الإسكندرية

مُقَدِّمَة

لم تحظ الآثار الإسلامية في الجزائر بالاهتمام العلمي ما حظيت به غيرها من الآثار الرومانية والبيزنطية، فالتراث الضخم الذي خلفه المسلمون في الجزائر يندثر يوما بعد يوم، وما من أثر نفقده إلا ونفقد معه لبنة من لبنات الحضارة الإسلامية في الجزائر، وكان لذلك أعظم الأثر في اختيارنا لهذا الموضوع، لأن المئذنة وهي جزء لا يتجزأ من العمارة الإسلامية لم تلق من الدراسة التاريخية والبحث الأثرى المدقق حتى الآن ما يكشف عن مصدر اشتقاقها والأصول التي استمدت صورتها منها.

ومعظم مآذن الجزائر يتألف من طابقين فقط، كما تتميز عن غيرها من مآذن العالم الإسلامي خاصة في المشرق بأبدانها المزينة بشبكة من المعينات التي تتناوب صفوفها فيما بينها وتعرف بين المشتغلين بالفن الإسلامي في المغرب باسم "الزخرفة اللوزنجية".

والحق أن موضوع المئذنة في العمارة الإسلامية اجتذب اهتمامي وبخاصة في عمارة المساجد، فلا يوجد مسجد يخلو من مئذنة، ولما كانت المئذنة أحد العناصر المعمارية المهمة في المسجد لأنها البناء الذي ينطلق من أعلاه الدعاء للصلاة، ولأنها في بعض الأحيان تتخذ برجًا للمراقبة على السواحل للإنذار باقتراب العدو في البحر ويتمثل ذلك في منارات الربط والحصون في المناطق الثغرية في العالم الإسلامي، وقد كان ذلك من العوامل التي دفعتني إلي اختيار المآذن في المغرب الأوسط موضوعا لرسالتي، وكان الأمر يقتضي دراستها معماريا و زخرفيا وتتبع ما طرأ على نظامها من تطور عبر الفترات التاريخية المدروسة ابتداء من عصر دولة بني حماد إلي نهاية العصر العثماني في المغرب الأوسط.

وترجع أهمية الموضوع إلي أن المئذنة تعتبر أكثر عناصر المسجد وضوحا في العمارة. كما أنها ساهمت بقسط وافر في إثراء الفنون الإسلامية معماريا وزخرفيا وكانت موضوعا يتنافس فيه الأفراد والسلاطين، فاهتموا بإنشائها وإسباغ روح

الجمال عليها حتى بلغت الغاية في رشاقتها وروعة مظهرها ودقة ما يكسوها من تنميقات وزخارف على مختلف أنواعها.

ومما لا شك فيه أن تعدد المآذن في المدينة الإسلامية قد يسبغ عليها روح إسلامية خالصة فهي بشموخها وارتفاع هاماتها ترمز لعلو كلمة الحق وشموخ رسالة الإسلام(١) .

وبالإضافة إلي ما سبق ذكره فإن دراسة المآذن في المغرب الأوسط يسلط الضوء على كثير من الخصائص المعمارية والفنية التي ميزت هذه الفترة ويساعد على التوصل إلي تمييز أوجه الخلاف لنظامها ونظام نظائرها في أقطار العالم الإسلامي الأخرى.

وقد استعنت في هذه الدراسة بمصادر ومراجع عربية وأجنبية متخصصة في موضوع البحث. فبالنسبة للمصادر التاريخية أفدت كثيرا في معرفة تاريخ الأثر، وفي بعض الأحيان وصف بعض المآذن وتاريخ بنائها وأسماء مؤسسيها، ولقد أعانني هذا الوصف الذي زودتنا به المصادر التاريخية على إعادة تصور ما كانت عليها بعض المآذن كالشأن بالنسبة لمئذنة جامع المنصورة التي وصفها ابن مرزوق، وقد اعتمدنا أيضا علي كتاب "العبر" لعبد الرحمن ابن خلدون في تتبع تاريخ المغرب الأوسط في الفترة موضوع الدراسة، وعلى كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" ليحيي ابن خلدون وفى بعض التراجم، وكتاب "تاريخ بني زيان ملوك تلمسان "لمحمد بن عبد الله التنسي وهي من أهم المصادر التاريخية لدراسة عصر بني زيان. بينما اعتمدنا فيما يخص الفترة المرينية على كتاب "المسند الصحيح الحسن في مآثر المولي ابن الحسن "لابن مرزوق التلمساني.

---

(١) وربما يفسر ذلك كيف أن "الخيرالدا" وهو ما تبقي من مئذنة جامع إشبيلية مازالت ترمز لمدينة أشبيلية وما يثبت ذلك أن أهل إشبيلية لما حاولوا هدم منار جامعهم عندما اضطروا إلي مفاوضة القشتاليين للتسليم في سنة ٦٣٦هـ، ولكن الأمير الفونسو فرناندو الثالث هددهم بقوله: "لو أنكم نزعتم منها حجرًا واحدًا لذبحتكم جميعا بحد السيف" واعتبر الفونسو هذه المئذنة رمزا لغلبة القشتاليين على المسلمين.

أما المراجع العربية الحديثة التي اعتمدت عليها فعديدة وأبرزها بحوث في الآثار الإسلامية في المغرب الأوسط أصدرها الأستاذ رشيد بورويبة الذي يعتبر الجزائري الوحيد الذي كتب حول آثار الجزائر الإسلامية ومنها كتابه القيم:

"L'ART RELIGIEUX MUSULMAN EN ALGERIE"

وكتابه "الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها" وغيرها. ومن أبرز المصنفات العربية الحديثة التي اعتمدت عليها البحوث الرائدة التي قدمها أستاذي الكبير الدكتور عبد العزيز سالم ومن أمثلتها بحثه القيم الذي هو تحت الطبع ويتناول فيه التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامي في مجال فنون العمارة والزخرفة. ومصنفه الذي خصصه للمآذن المصرية أصلها وتطورها حتى العصر العثماني. هذا بالإضافة إلي العديد من الدراسات والبحوث التي نشرها إما ضمن المصنفات الكثيرة التي أصدرها أو في المجلات العلمية الأسبانية والعربية.

أما المراجع الأجنبية فمعظمها مكتوب باللغة الفرنسية لأن الفرنسيين وحدهم من الأوروبيين هم الذين اهتموا بدراسة آثار الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي لها، ولقد اعتمدت إلي درجة كبيرة على كتاب جورج مارسيه "L'ARCHITECTURE MUSULMANE D'OCCIDENT TUNISIE, ALGERIE- MAROC, ESPAGNE ET SICILE الذي يعتبر مرجعا أساسيا لكل باحث في الآثار الإسلامية بالمغرب والأندلس، وكذلك كتابه القيم: "Les Mouments ARABES DE TLEMCEN" الذي جمع فيه آثار تلمسان في العصر الإسلامي، بالإضافة إلي بعض المقالات التي نشرها في مختلف المجالات.

كما اعتمدت أيضا على كتاب: "LE MAGHRIB CENTRAL AL'EPOOUE DES ZIRIDES لمؤلفه الأستاذ لوسيان جلفان وهو عبارة عن كتاب شامل لتاريخ وآثار الحماديين، كما نشر أيضا أبحاثه الأثرية في قلعة بني حماد في كتاب مستقل. هذا فضلا عن اعتمادي على بعض الكتب العامة في العمارة والفن الإسلامي.

أما الدراسة الميدانية التي قمت بها على الطبيعة فتتمثل في معاينة المآذن

المدروسة، ودراسة أهم عناصرها المعمارية والزخرفية دراسة تفصيلية دقيقة وتسجيل هذه العناصر بالصور الفوتوغرافية التوضيحية ورسم قطاعات ومساقط ورسوم تخطيطية لواجهات بعض المآذن لمعرفة النظام الداخلي لها.

وقد انتهجت في دراستي لموضوع الرسالة منهجا تحليليا كما حاولت أن أميز بين مراحل المئذنة في مختلف الفترات التاريخية التي خصصتها للدراسة، ولاحظت تطورا واضحا من عصر لآخر وإن كان بطيئا في بعض الأحيان. أما المآذن التي ترجع إلي العصر العثماني فقد تبين لي بعد دراستها أنها لا تتخذ نظاما موحدا كما هو الحال في المشرق الإسلامي، و إنما تتخذ صورا متعددة ومتنوعة من حيث الطابع العام.

وقد قسمت البحث إلي خمسة فصول، وقد راعيت في هذا التقسيم التسلسل التاريخي للعصور المدروسة، وقدمت لكل فصل منها بدراسة تمهيدية تدور حول ظهور فكرة الآذان ثم التعريف بالمئذنة، وأهم عناصرها المعمارية مع ذكر أشكالها المتنوعة في العالم الإسلامي، وانتشار نظام المآذن في المغرب الإسلامي منذ أن ظهرت في المسجد الجامع بالقيروان في إمارة بشر بن صفوان حتى وصلت المغرب الأوسط ممثلة في مئذنة جامع قلعة بني حماد. وأنهيت الدراسة التمهيدية بحديث مختصر عن المآذن المبكرة في المغرب والأندلس لمحاولة الربط بينها وبين مئذنة جامع قلعة بني حماد مع التعرض لبعض مظاهر التأثر والتأثير.

أما الفصل الأول فيدور محتواه حول المئذنة في عهد بني حماد ممثلة في نموذجين فقط الأول يتمثل في مئذنة جامع قلعة بني حماد باعتبارها أول مئذنة أقيمت في الجزائر وكان لها تأثير واضح على نظام مآذن المغرب الأوسط كلها، ولم يقف هذا التأثير عند هذا الحد، إنما امتد حتى المغرب الأقصى والأندلس خاصة في عصر الموحدين حيث يبدو أنها اتخذت مصدرًا للمآذن الموحدية ولذلك اهتممت اهتماما خاصا بدراسة هذه المئذنة معماريا وزخرفيا. أما النموذج الثاني فيتمثل في مئذنة جامع قسنطينة التي امتازت بطراز غريب لا نظير له في المغرب الأوسط من حيث النظام المعماري والتخطيط.

أما الفصل الثاني فقد أفردته لدراسة المآذن الزيانية وتتمثل في أربع مآذن، وبدأت هذا الفصل بعرض تاريخي مختصر عن بني زيان اتبعته بوصف الطابع العام للمئذنة في عهده، وجاء اختياري لهذه المآذن الأربعة لأهميتها الأثرية، وهي مئذنة جامع تلمسان، ومئذنة جامع ندرومة، ومئذنة جامع سيدي أبي الحسن، ومئذنة جامع المشور. أما المآذن الزيانية الأخرى ومنها مئذنة جامع أولاد الإمام، وجامع سيدي إبراهيم، وجامع أغادير بتلمسان وجامع الجزائر العاصمة فقد قمت بدراستها بإيجاز لتشابهها مع المآذن السابقة، ولأنها لا تبلغ من حيث قيمتها الفنية ما بلغته المآذن الأربعة سالفة الذكر.

وخصصت الفصل الثالث لدراسة المآذن المرينية، وقدمت هذا الفصل بنبذة تاريخية عن المرينيين، اتبعتها بعرض للطابع العام للمئذنة في عهدهم، ثم تناولت بالتفصيل نماذج مختلفة لمآذن بني مرين في المغرب الأوسط منها مئذنة جامع المنصورة الفريدة من نوعها بين مآذن المغرب الأوسط وتتميز بدعامتها المركزية المجوفة، منها أيضا مئذنة جامع سيدي ابن مدين مربعة الشكل، والتي أقيمت على غرار مآذن بني زيان مع اختلاف بسيط في الاتفاق الفني من حيث الزخارف. أما مئذنة جامع سيدي الحلوي فتعرضت لها بإيجاز شديد لتطابقها الكامل مع مئذنة جامع سيدي أبي مدين.

وتناولت في الفصل الرابع مآذن العصر العثماني وبدأته كالعادة بعرض تاريخي سريع لفترة الحكم العثماني للجزائر، ثم انتقلت إلي دراسة الطابع العام للمئذنة في عهدهم واتخذت خمسة نماذج لمآذن عثمانية مختلفة في الأشكال الهندسية تمثل نظام المآذن العثمانية منها المثمنة التي تظهر لأول مرة في هذا العصر ومنها مآذن ذات قاعدة مربعة بدن مثمن وتمثلها مئذنة جامع الجيش بقصر الداي بالجزائر العاصمة، ومنها المربعة على غرار النمط المألوف في المغرب الأوسط في الفترة التي سبقت الحكم العثماني ويمثل هذا النمط الأخير جامع الحواتين وجامع سيدي عبدالرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة.

وأخيرا، خصصت الفصل الخامس لدراسة المقومات الزخرفية لمآذن المغرب

الأوسط وهي مقومات تختلف من مئذنة إلي أخري ومن عصر إلي آخر، ولذلك قمت بتقسيم الفصل إلي أربع نقاط رئيسية الأولي الزخرفة النباتية، وقد حاولت تتبعها من مئذنة قلعة بني حماد إلي مآذن العثمانيين. ومن الجدير بالذكر أن الزخرفة النباتية التي كانت تكسو هذه المآذن لا تصل في التنوع والدقة إلي ما وصلت إليه الزخرفة الهندسية التي انتشرت على نطاق واسع، والثالثة النقوش الكتابية التي تكاد تكون نادرة، أما النقطة الرابعة فقد خصصتها لدراسة المقرنصات التي انفردت بها مئذنة جامع المنصورة.

وأوضحت في خاتمة البحث مظاهر التطور التي طرأت على نظام المئذنة خلال تلك الفترات التاريخية وأهم النتائج التي توصلت إليها.

ولقد اعترضتني بعض الصعوبات في إنجاز هذا البحث منها قلة المراجع عن مآذن الفترة العثمانية بالجزائر مما جعلني أعتمد اعتمادًا خاصًا على الدراسة الميدانية، ومنها كذلك تهدم الجزء العلوي لمئذنة جامع قلعة بني حماد الذي جعل تصورنا له قائما على الافتراضات والمقارنات.

وفى ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان إلي أستاذ الكبير الدكتور السيد عبد العزيز سالم الذي مد لي يد العون والمساعدة ولم يبخل على بنصائحه القيمة ومتابعته للبحث بروح علمية نزيهة ومنهجية دقيقة، كما أفادني بفيض علمه وغزارة جهده منذ أن كان الموضوع فكرة إلي أن أصبح على هذه الصورة المشرفة.

الدراسة التمهيدية

١- التعريف بالمئذنة:

المئذنة بناء رأسي مرتفع يعلو في قمته صوت المؤذن للإعلان والإعلام بحلول وقت الصلاة عن طريق النداء ودعوة المسلمين إليها في أوقاتها الخمس ويوم الجمعة، والآذان أصل المئذنة وهي مكانه وهو مرتبط أساسا بحاسة السمع. ولقد تعددت الآراء حول ظهور فكرة الآذان، ولكن جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر كان يقول "كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة، وليس ينادي لها، فتكلموا يوما في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فنادي بالصلاة. [١] .

ولذلك جاءت المئذنة كتجسيد لفكرة الآذان حيث أصبحت منذ ظهورها في جامع عمرو بن العاص[٢] عنصرا هاما من عناصر العمارة الإسلامية، ولكنه ليس أساسيا كأبراج الكنائس، واقترنت المئذنة اقترانا واضحا بعمارة المساجد بحيث لا نجد مسجدًا يخلو من عنصر المئذنة. فالمئذنة بمفهومها العام هي البرج المربع الذي ينطلق منه صوت المؤذن خمس مرات في اليوم داعيا المسلمين إلي الصلاة[٣] وليس من شأننا أن نبحث في أصل المئذنة ومصدر اشتقاقها فهو موضوع كان مطروحا للمناقشة منذ سنوات عديدة، ولكن ما يعنينا في هذه الدراسة أنها عنصر معماري وإسلامي بحت له وظيفة يؤديها ولا شأن له بأبراج الكنائس وبنواقيسها.

فالمئذنة التي أعطت للمساجد طابعها الخاص المميز تختلف صورتها من عصر إلي عصر ومن منطقة لأخرى، فهناك المئذنة المربعة والمئذنة المثمنة الأضلاع

---

(١) صحيح البخاري بشرح ابن حجر، ج٢، ص٧٧، طبعة بيروت١٩٧٦، كتاب الآذان. باب بدء الآذان.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني بالقاهرة ١٩٥٩، ص١٠.

(٣) VICTOR (WAILLE) ; AUTOUR DES MOSQUÈES D'ALGER IN. REVUE AFRICAINE 1899,P.10.

والمئذنة أسطوانية الشكل، والمئذنة المخروطية الشكل، والمئذنة اللولبيـــة، وهنـــاك المئذنة التي تتألف من طابق واحد، والتي تتألف من طابقين أو التي تتألف من ثلاثة طوابق في حين أن أبراج الكنائس تلتزم عادة بشكل مميز هو الشكل المربع.

وموقع المئذنة في الجامع يختلف من مسجد إلي آخر، فقد تكون فـــي مـــؤخرة الجامع أو في مقدمته، وقد تكون على جانب منه أو ركن من أركانه، وقد تنتـــصب مستقلة عن صحن المسجد وبيت الصلاة وقد تكون ملتصقة بالجدار الخارجي(1) .

وكانت المساجد الجامعة الأولي تقتصر على مئذنة واحدة ، ثم بدأت تظهر أكثر من مئذنة للمسجد الواحد، كما في جامع عمرو بن العاص الذي كان مزودا بأربعـــة مآذن(2).

وتعتبر المئذنة العنصر المعماري الوحيد الذي يستطيع أن يقاوم عوادي الزمن، لأن طريقة بنائها طريقة جد متقنة، فحتى لو تهدم المسجد فإن المئذنة تبقي قائمـــة كما هو الحال من قلعة بني حماد ومئذنة جامع أغـــادير بتلمـــسان ومئذنـــة جـــامع المنصورة من العصر المريني(3) .

ولقد استعمل للمئذنة مسميات مختلفة في ذلك (المنارة) وهـــي لفظـــة مـــشتقة أساسا من فعل (أنار) أي المقصود بها أشعل وأضاء، وهذا يجعلنا نسلم بأن المئذنة استعملت كمحارس وأبراج ترسل الإشارات بواسطة إشعال النار، وكذا هداية النـــاس إلي الطريق الصحيح كما هو الحال في منار كل من ربـــاط سوســـة والمنـــستير(4) . ومنها أيضا لفظة (صومعة) التي استعملت في المغرب والأندلس للدلالة على المئذنة واستخدمها ابن جبير في وصفه للجامع الأموي بدمشق في قوله: "وللجـــامع ثـــلاث

---

(1) LAMBERT (ELIE); L'ART MUSULMAN D'OCCIDENT,DES ORIGINES A LA FIN DU XV****SIECLE, PARIS 1966.P.33.

(2) فكري (أحمد): مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، دار المعارف بمصر ١٩٦١، ص٣١٥.

(3) MARCAIS(G), L"ART EN ALGERIE. IMPRIMERIE ALGERIENNE. ALGER, 1906,P.99.

(4) السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصلها وتطورها، ص٤.

صوامع واحدة في الجانب الغربي وهي كالبرج المشيد[1].

كما أطلق عليها أيضا اسم (عساس) [2]. وهذا اللفظ يعني عند أهل المغرب الحراسة. ولهذا يمكن إضافة المراقبة والحراسة وظيفة ثانية إلي جانب وظيفتها الأساسية وهي الإعلان بالصلاة في أوقاتها.

ويدور داخل المئذنة عادة درج يرقي عليه الراقون إلى المئذنة[3] ويتوسط هذا الدرج الفراغ الواقع ما بين الجدار الخارجي للمئذنة والدعامة المركزية المربعة أو الأسطوانية وهي دعامة صماء كما هو الحال في مآذن المغرب الأوسط، وتشغلها غرف كمآذن الموحدين في المغرب والأندلس، وقد يكون السلم خارج المئذنة مثل ما هو موجود في ملوية سامراء في القرن ٣هـ/٩م، وقد يكون للمئذنة درج مزدوج وهو ما انفردت به مئذنة جامع قرطبة، وقد يحل مكان الدرج طريق صاعد يدور حول المئذنة حتى قمتها كما هو الحال في مئذنة جامع المنصورة بتلمسان ومآذن جامع الكتبية وجامع الرباط، وجامع اشبيلية، ويسقف الدرج أو الطريق الصاعد قبوات في أغلب الأحيان نصف أسطوانية، أو متقاطعة وقد تجمع بين النوعين، وينتهي الطابق الأول في المئذنة بشرفة ينطلق منها صوت المؤذن. ويتوسط الشرفة جوسق تعلوه قبة، وبين جدران الجوسق والشرفة فراغ يدور حول الجوسق يتحرك فيه المؤذن لأداء الآذان.

وتقع الشرفة عادة بأعلى الطابق الأول للمئذنة حول الجوسق وقد تدور حول بدن المئذنة، وقد يكون للمئذنة الواحدة أكثر من شرفة موزعة على بدنها كما هو الحال في مئذنة جامع الباشا بوهران في العصر العثماني، وكذلك في المآذن العثمانية مثمنة الشكل، ويتوج جوسق المئذنة قبة يعلوها سفود بارز يحمل كرات معدنية على

---

[1] ابن جبيير: الرحلة، الطبعة الثانية، طبع مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل ١٩٠٧، ص٥٤.

[2] زكي (محمد حسن): تطور المآذن، مجلة الكاتب. عدد سبتمبر ١٩٤٦، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، المجلد الأول ص ٧١٧.

[3] زكي (محمد حسن): تطور المآذن، مجلة الكتاب. عدد سبتمبر١٩٤٦ ، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، المجلد الأول، ص٧١٧.

شكل تفافيح، يعلو السفود أحيانا هلال وأحيانا أخرى نجمة وهلال[1]، يعلو الشرفات التي تتوج المئذنة مظلات من الخشب على شكل رف بارز مائل وذلك في المنـاطق التي تكثر فيها الأمطار على غرار بعض مآذن الشام، وقد تكون الشرفة مكشوفة في المناطق الجافة[٢].

٢- أشكال المآذن:

أقام المسلمون مآذن في العالم الإسلامي وفقا لأحكام الدين وضرورة الدعوة إلي الصلاة، ويختلف شكل المئذنة باختلاف المناطق التي تقام فيها، ففي بلاد فارس كانت المئذنة عادة مخروطية الشكل وشاعت المآذن مربعة الشكل فـي الشـام والمغـرب والأندلس، في حين انتشرت المآذن أسطوانية الشكل المزودة بـرؤوس مخروطيـة مدببة (قلمية الشكل) عند الأتراك، وفي مصر اتخذت المآذن أساليب متعددة توحـدت في العصر المملوكي، واتخذت طابعا مصريا، بينما شاع في مصر العثمانيـة طـابع المئذنة القلمية الشكل، ويتمثل ذلك في مئذنة جامع سنان باشا بالقاهرة.[٣].

ومن حيث مواد البناء فقد تنوعت وتباينت وفقا للمناطق التـي أقيمـت فيهـا المآذن، فقد استعمل الحجر في الأندلس ومصر والشام وآسـيا الصـغرى، وبعـض المناطق في العراق، أما الآجر والقرميد فكان المادة الشائعة الاستعمال فـي مـآذن المغرب والعراق وفارس وأفغانستان، أما في الهند فقد اسـتخدم كـل مـن الحجـر والآجر.[٤].

---

[١] RICARD (P); POUR COMPRENDRE …P.197.

[٢] فريد (شافعي) : العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول عصر الولاة، الهيئـة المصـرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ ،ص٨٦٤.

[٣] السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية، ص٣٣.

[٤] KAMAL EDDINE (SAMAH); "THE BIRTH AND EVOLUTION OF MINARETS IN ISLAM" ,IN THE BULLETIN OF THE FACULTY OF ENGINEERING, CAIRO UNIVERSITY PRESS 1955,P.162.

٣- المآذن الأولى في الإسلام ومصادرها:

كيف ظهرت المئذنة؟ ومتي كان ذلك؟ وما هي خصائص المآذن الأولي في العالم الإسلامي؟ هذه الأسئلة ما تزال تحتاج إلي من يجيب عنها ويسلط عليها الضوء، ذلك أن الباحث في الآثار الإسلامية لا يجد في المصادر العربية وصفا دقيقا للمآذن الأولي، وكل ما زودتنا به هذه المصادر لا يعدو ذكر للمساجد أو إشارات مختصرة إلي مآذنها، كمآذن جامع عمر بن العاص وصومعة جامع القيروان. ولهذا يتعذر عليه تحديد مصدر اشتقاق شكل المآذن من الناحية المعمارية على نحو علمي دقيق، وعلى هذا ذهب معظم الباحثين والدارسين للعمارة الإسلامية إلي القول بأن المئذنة مشتقة من الصوامع المربعة بالكنائس التي كانت منتشرة في الشام لا سيما في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق التي كانت في الأصل معبد الإله جوبيتر[١] .و إذا أخذنا برأي الأستاذ كريسويل فإن المئذنة الإسلامية الأولي بنيت على نمط الأبراج المربعة في الكنائس السورية، ويتفق رأي الدكتور عبد العزيز سالم معه في أن هذا الطراز السوري للمآذن انتقل من سوريا إلي مصر وبلاد المغرب والأندلس وأتيح له البقاء في غربي العالم الإسلامي[٢] ، ومع ذلك فقد تأثرت بعض مآذن المغرب بمنار الإسكندرية وهو رأى تضمنه بحث صدر أخيرا لسيادته ويتمثل ذلك في مئذنة المسجد الجامع بالقيروان وصفاقص ومآذن جامع الكتبية بمراكش وحسان بالرباط والخيرالدا بأشبيلية. [٣] .

والجدير بالملاحظة أن أول المآذن في المساجد الجامعة هي المآذن الأربعة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط التي أقامها مسلمة بن مخلد الانصاري سنة٥٣هـ

---

(١) GOLVIN(L) ;LA MOSQUEE SES ORIGINESSA MORPHOLOGIE, SES DIVERSES FONCTIONS, INSTITUT D'ETUDES SUPERIEURES ISLAMIQUES, LAGER 1960, P.32.

(٢) السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية ......، ص٥.

(٣) السيد عبد العزيز (سالم): تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد٢٣، ومدريد، ١٩٨٥-١٩٨٦، ص١٨٧.

في حين يعتبر كل من الدكتور زكي محمد حسن[1] والأستاذ جلفان[2] الأبراج المربعة في المعبد الوثني القديم بدمشق أول نواة لبداية فكرة المآذن.

وأخذت المآذن اللاحقة لهذه الأبراج سواء في المشرق أو في المغرب نفس النظام، ولكن المآذن الأولي التي أقيمت في القرن الأول الهجري دثرت بينما أصبحت مئذنة جامع القيروان التي أقامها بشر بن صفوان عامل بني أمية على المغرب سنة١٠٥ هـ أقدم المآذن التي وصلت إلينا في العالم الإسلامي.[3] .

وإذا تبعنا المآذن الأولي في الاسم ورتبنا ظهورها ترتيبا زمنيا يتبين لنا أن أول مئذنة في الإسلام هي مئذنة جامع البصرة باعتبار أن جامع البصرة أول مسجد شيد بعد الفتح الإسلامي للعراق وإن كنا لا نملك أي نص يثبت وجودها، وثاني المآذن جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وهي الصوامع الأربعة التي يناها مسلمة بن مخلد ٥٣هـ /٦٧٢م والتي لم يصل إلينا منها أي أثر، وثالث المآذن مئذنة المسجد الجامع بدمشق التي أقامها الوليد بن عبد الملك بجامعه ٨٦هـ /٧٠٥م، ورابعها مآذن مسجد الرسول (صلي الله عليه وسلم) بالمدينة التي بناها عمر بن عبدالعزيز ٨٨هـ /٨٠٦م، وخامسها مئذنة جامع القصبة بالرملة التي بناها هشام بن عبد الملك ١٠٥هـ /٧٢٣م. ثم تأتي سادس مئذنة وهي مئذنة جامع القيروان في عهد هشام بن عبد الملك أيضا. [4] .

وسنقول في هذا التسلسل التاريخي أن المئذنة ظهرت بادئ ذى بدء في المشرق الإسلامي وانتقلت منه إلي المغرب، وتعد مئذنة جامع القيروان المئذنة الوحيدة المحتفظة بخصائصها المعمارية وهي بدورها مقتبسة من الأبراج السورية المربعة وإن كانت تشبه في طوابقها الثلاثة وتراجع جدرانها إلي الداخل كلما ارتفعت منار

---

[1] زكي (محمد حسن): تطور المآذن ص ٧١٧.

[2] GOLVIN (L); LA MOSQUEE SES ORIGINESSA MORPHOLOGIE, ET SES DIVERSES FONCTIONS, INSTITUT D'ETUDES SUPERIEURES ET ISLAMIQUES, ALGER 1960, P,32.

[3] فكرى (أحمد): المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٣٦، ص١٠٩.

[4] إبراهيم كاظم (الجنابي): المآذن نشأتها وتطورها في آثار العرق إلي نهاية العصر السلجوقي، ص٣٢.

الإسكندرية وتعد هذه المئذنة أول المآذن في المغرب الإسلامي ثم أصبحت نموذجا احتذته المآذن اللاحقة في المغرب والأندلس فعلي نمطها أقيمت الصومعة الأولي لجامع قرطبة التي أسسها الأمير هشام وكانت مربعة القاعدة وفقا لأساسها الذي ما يزال واضحا في الوقت الحاضر بصحن الجامع، ثم تلا ذلك مئذنة جامع صفاقس التي أخذت صورتها أصلا من مئذنة جامع القيروان، وامتد تأثير هذه المئذنة إلي كافة أنحاء المغرب والأندلس بما في ذلك مآذن المغرب الأوسط عبر الفترات التاريخية.

أما فيما يتعلق بمآذن المغرب الأوسط فإن الأستاذ جورج مارسيه يري أنها كلها مربعة الشكل وأنها تأثرت بأشكال الأبراج السورية وعلي الأخص مئذنة العروس بالجامع الأموي بدمشق[١].

أما الدكتور عبد العزيز سالم فيرى أن منار الإسكندرية أثر كثيرا في نظام بعض المآذن في المغرب والأندلس سواء من حيث الطابع العام أو من حيث النظام الداخلي، ويعتمد في ذلك على الدعامة المركزية المربعة التي يلتف حولها الطريق الصاعد بغير درج والغرف الموزعة، ثم يضرب مثلا بمئذنة جامع القيراوان التي تتكون من ثلاثة طوابق كمنار الإسكندرية، بالإضافة إلي بعض الأدلة المعمارية كالميل الخفيف للجدران إلي الداخل كلما ارتفعت وكذا القبة العلوية التي تتوج الجوسق العلوي، ويتمثل تأثيره في مآذن الموحدين في الممر الصاعد بدون درجات وفي الغرف المتراكبة بالدعامة الوسطي، ويعتقد أن هذا التأثير تم عن طريق الإسكندرية باب المغرب والتي كان يمر بها طلاب العلم والحجاج والتجار القادمين من المغرب والأندلس، وكان منار الإسكندرية أهم المعالم الرئيسية حتى القرن ٨هـ، ولهذا لا نعجب إذ نرى صورة هذا المنار قد تسللت إلي بعض مآذن المغرب الإسلامي[٢].

---

[١] MARCAIS (G) ;L'ARCHITECTURE MUSULAMANE D'OCCIDENT (TUNISIE- ALGERIE –MAROC- ESPAGNE ET SICILE) ARTS ET METIERS GRAPHIQUES, PARIS 1954, P.209.

[٢] السيد عبد العزيز (سالم): التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامي في مجال العمارة والزخرفة. بحث ألقي في ندوة العلاقات المصرية المغربية، القاهرة، ١٩٨٩، تحت الطبع.

أما إيد موند دوتي فيرى أن أول ذكر لمئذنة في المصادر العربية حدث في عهد الوليد بن عبد الملك(١).

ولكن فريد شافعي يعتمد في رأيه على دراسته لمئذنة جامع القيروان حيث يرى بأنها تتميز بخصائص عربية إسلامية ناضجة من حيث التكوين المعماري ودقته، والتناسب الهندسي، ويرى أنه لا توجد أية صلة بينها وبين الأبراج السورية القديمة في المعبد الروماني بدمشق، وما دامت مئذنة جامع القيروان أقدم المآذن في العمارة الإسلامية فقد اتخذتها المآذن اللاحقة كلها نموذجا لها احتذته. ولا تعتبر المآذن عنصرا معماريا أساسيا في المسجد، فقد يستغني عنه بنيان المسجد بينما يعتبر برج الكنيسة عنصرا ضروريا يدخل ضمن الكتلة المعمارية، ثم أن النداء للصلاة يتطلب في المئذنة أن تنتهي بنهاية خاصة تختلف عن نهاية وضع النواقيس في الأبراج، ولذلك فالمئذنة عنصر معماري إسلامي أصيل ليس لغير المسلمين فضل فيه(٢).

أما عفيف بهنسي في آخر تأليف له حول الجامع الأموي بدمشق فيري أن الصوامع الأربعة الأولي للجامع كانت مربعة الشكل ذات شرفات وجامور(٣)، وقد هدمت المئذنتان الواقعتان في الجهة الشمالية وأعيد استخدام أحجارها في ترميم الجدار القبلي في سنة ٧٢٨هـ في (عهد تنكز)، أما المئذنتان الجنوبيتان فقد تهدم جزء منهما عام ٦٤٦هـ، ثم أضيف إليهما منارات مختلفة فوق ما تبقي من الصومعتين المربعتين القديمتين، ويتساءل الأستاذ بهنسي لماذا أنشئت مئذنة العروس إذن؟ ويرجع بأن هدم المئذنتين أو عدم إكمالها حدث لسبب ما في وقت مبكر وأن مئذنة العروس أقيمت بعد هدم المئذنتين القديمتين وأنها أنشئت في عهد الوليد وقبل بناء الأبراج الأربعة، وهذا ما استخلصه من خلال دراسته الأثرية للجدران الأربعة الداخلية ومقارنتها بالأبنية الأخرى، وأن الأبراج الأربعة إنما أقيمت

---

(١) EDMOD (DOUTTE); LESMINARETS ET L'APPEL A LA PRIERE". IN REV- AFR 1899,P. 339.

(٢) فريد (شافعي): العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، ص ٦٤١.

(٣) جامور: قضيب حديدي، سفود.

بأمر الوليد، وكذا مئذنة العروس كبديل للبرجين الشماليين وقبلهما، وقد استعمل الوليد في أبنيته الحجر المنحوت الذي كان قائما في سور المعبد الخارجي ويؤكد ذلك العلامات الإغريقية على بعض الأحجار المتراكمة في البرجين إلي يومنا هذا، والكتابة الإغريقية ليست حجة في حد ذاتها لأنها استمرت منتشرة حتى عهد الوليد[1].

هذه بعض النظريات والآراء التي وردت في شأن اشتقاق المئذنة من الناحية المعمارية ثم انتشارها في العالم الإسلامي وفي حالة صدق نظرية عفيف بهنسي فهي تؤكد كثيراً نظرية فريد شافعي بأن المئذنة ابتكار إسلامي أصيل وليس لغير المسلمين أي فضل في ابتكارها. وإذا افترضنا جدلا إلي أن الفضل في إنشائها يرجع إلي الأبراج المسيحية فليس في ذلك ما يعيب في العمارة الإسلامية سواء في الشام، أو في المغرب والأندلس ثم أن المعمار المسلم لم يقف عند حد الاقتباس بل أخذ في تطوير ما اقتبسه والإضافة إليه وفقا لمتطلبات وظيفتها وهي الآذان، وذلك بإضافة شكل خاص لنهايات المآذن يختلف عن نهايات الأبراج مما أدي بطبيعة الحال إلي تطور شكل المئذنة وتعدد أشكالها وتنوع زخارفها حتى أصبحت سمة من سمات العمارة الإسلامية وأثرت تأثيرا واضحا يصعب تمييزها من المآذن الإسلامية.

٤ - المآذن المبكرة في المغرب والأندلس:

أ- مئذنة جامع القيروان:

تعد أقدم مئذنة في الغرب الإسلامي أقيمت في ٩-١٠٥هـ/ ٧-٧٢٤م ويذكر البكري أنها بنيت في خلافة هشام بن عبد الملك ويبلغ طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون، ولها بابان شرقي وغربي وعضايد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما[2].

---

(١) عفيف بهنسي: الجامع الأموي بدمشق، دار طلاس دمشق١٩٨٨، ص٥٣.

(٢) البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مطبعة الحكومة، الجزائر ١٨٥٧، ص٣٣..

والمئذنة من الناحية المعمارية مربعة القاعدة وتمتاز بتناسب هندسي لا نظير له، لقد أقيمت قاعدتها من الحجارة متساوية القطع ثم ركبت بعضها فوق بعض حتى بلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار ونصف فوق مستوى سطح الأرض(١).

وتتميز المئذنة من الخارج بتراجع جدران الطابقين تراجعا طفيفا كلما مددنا النظر من القاعدة إلي القمة، وتقع المئذنة في منتصف الجدار الشمالي من المسجد قبالة المحراب وتتكون من ثلاثة طوابق مربعة ويتوج الطابق قبة، ويتميز الطابق الأول بضخامته، ينفتح مدخل المئذنة في الجدار المطل على صحن الجامع ويؤدي الباب مباشرة إلي دعامة مركزية يلتف حولها سلم دائري سقفه على شكل قبوة نصف أسطوانية مبنية في الحجر، ويضئ هذا السلم ثلاث نوافذ تري في واجهة المئذنة، وخمس فتحات أخري انسيابية الشكل، ثلاثة منها في الواجهة الشمالية واثنتان في الواجهة الغربية وتبدو هذه الفتحات ضيقة من الخارج ولكنها تتسع في الداخل.

ويقدر جورج مارسيه طول قاعدة المئذنة كما أورده البكري ١٠,٥٠م وارتفاعها ٢٥,٢٠م(٢) . أما جولفان فيقدر طول ضلع قاعدتها بـ ١٠,٦٧مترا، وارتفاعها بـ٣١,٥٠ مترا ويعتقد بأن الطابق العلوي في المئذنة أعيد بناؤه في العصر الحفصي(٣).

هذا باختصار بعض الخصائص المعمارية لمئذنة القيروان التي هي استمرار للنمط السوري المربع(٤) .

---

(١) فكري (أحمد): المسجد الجامع بالقيروان، ص١٠٩.

(٢) MARCAIS (G); ARCHIT. MUSUL .D'OCCI, P.17.

(٣) GoLVIN (L); ESSAI SUR L'ARCHITECTURE RELIGIEUSE MUSULMANE T.1 (GENERALITES) EDITIONS KINCKSIECK PARIS 1970, 49.

(٤) KAMAL ELDIN (SAMEH); "MINARETS IN NORTH AFRICA AND SPAIN" IN. BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS, VOL XV, PART II CAIRO, 1954, P.181.

ولقد استمر تأثير هذه المئذنة على جميع المآذن في المغرب حتى بداية العصر العثماني حيث بدأ ظهور أنماط جديدة.

ب- مئذنة جامع صفاقس:

بنيت المئذنة في القرن ٣هـ/٩م مباشرة بعد بناء مئذنة جامع القيروان وهي صورة مقاربة لها ولا يتمثل الاختلاف بينهما إلا في النسب المعمارية (المقاسات) وموقع هذه المئذنة بالنسبة للجامع يماثل موقع مئذنة جامع القيروان، فهي تنتصب في منتصف الجدار الشمالي المواجه للمحراب، والمدخل إليها ينفتح كذلك في جدارها المقابل لصحن الجامع، ويؤدي المدخل إلي دعامة مركزية مربعة مصمتة يلتف حولها سلم دائري.

أما في الخارج فتتكون المئذنة من ثلاثة طوابق الأولي منها يميل جدرانها إلي الداخل ميلا طفيفا كلما ارتفعت المئذنة، ويبلغ طول القاعدة المربعة لها ٥,٤٠م، وارتفاع الطابق الأول ٤,٥٥م، أما الطابق الثاني فيبلغ طول قاعدته المربعة ٣,٢٥م، وارتفاعه ٤م، ويعلو ذلك جوسق طول ضلع قاعدته ١,٣٠م وارتفاعه حوالي ٥م ويتوج الجوسق قبة مفصصة كما هو الحال في جامع القيروان.

واستخدم في بناء المئذنة كتل حجرية صغيرة إلا أن الأركان دعمت بكتل ضخمة، وتزدان أوجه المئذنة بزخارف نباتية(١) .

ج- مئذنة جامع قرطبة:

بعد أن تصدعت مئذنة هشام وآلت إلي السقوط، أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٤٠هـ/٩٥٠م ببناء صومعة جديدة للمسجد بعد أن وسع صحنه مسافة تبلغ ٢٣,٩٠مترا، ولقد جمع العرفاء والمهندسين لإقامة هذه الصومعة واستغرق

---

(١) GOLVIN (L) ET MARCAIS (G); LA GRANDE MOSQUEE DE SFAX. PUBLICATION NATIONALE DE L'INSTITUT D'ARCHOLOGIE ET D'ART DE TUNISIE. 1960,P.39.

بناؤها ثلاثة عشر شهرا[1] .

والجدير بالذكر أن مئذنة هشام الأولي كانت ذات مطلع واحد (مرقي أو سلم) في حين نجد مئذنة عبد الرحمن الناصر مزودة بدرجين يفصل بينهما فاصل بنائي فلا يلتقي فيه الراقون إلا بأعلاها ولقد وصفها الإدريسي بقوله "... ويصعد إلي أعلي هذه المنارة بدرجين أحدهما في الجانب الغربي والثاني في الجانب الشرقي إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى منها"[2] فهي لهذا السبب ازدواج لمئذنة هشام. ويعد هذا ابتكار جديد في العمارة الإسلامية حيث تنقسم المئذنة إلي قسمين يفصل بينهما جدار مشترك ويوحدهما سطح علوي، ويدور كل درج حول دعامة مركزية، ولكل مدخل باب يفتح في الجدار المطل على الصحن والآخر ينفتح على الطريق الخارجي، ويعلو درجات السلم قبوات صغيرة مربعة متعارضة متصلة فيما بينها ومتدرجة في الارتفاع وهي مجصصة ومدهونة بزخارف هندسية باللونين الأبيض والأحمر[3] وكانت تتوج المئذنة ثلاثة تفافيح مركبة في سفود بارز السفلي والعليا من الذهب والوسطي من الفضة وفوق كل تفاحة سوسانة مسدسة من الذهب يصفها الادريسي" وفي أعلي الصومعة على القبة ثلاث تفاحات ذهب واثنتان من فضة وأوراق سوسنية تتسع الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلا من الزيت"[4].

وتنتصب المئذنة في منتصف الجدار الشمالي للمسجد واستخدم في بنائها كتل ضخمة من الحجارة المصقولة.

---

[1] السيد عبد العزيز (سالم): المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٨٦، ص٢٠. وانظر: قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس، ج١، ص٢٧٣.

[2] الإدريسى (الشريف): وصف المسجد الجامع بقرطبة، ترجمة ديسولا مار، مؤسسة كاربونال، الجزائر ١٩٤٩، ص١٢ .

[3] السيد عبد العزيز (سالم): المساجد والقصور، ص٢١.

وانظر: قرطبة حاضرة الخلافة، ج١،ص٣٧٦.

[4] الادريسي (الشريف): وصف المسجد الجامع بقرطبة ص١٢.

الفصل الأول

المئذنة في عهد بني حماد

تمهيد

1) الطابع العام لمآذن بنى حماد.
2) مئذنة جامع قلعة بني حماد.
3) مئذنة المسجد الجامع بقسنطينة.

تمهيد:

الدولة الحمادية هي إحدي الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأوسط، وظل بنو حماد يحكمون المغرب الأوسط ما يقرب من قرن وربع قرن من الزمن، وتركوا بصماتهم واضحة في تاريخه وحضارته. اتخذ بنو حماد "القلعة" والمعروفة في المصادر التاريخية بقلعة أبي الطويل حاضرة لهم. يصفها البكري بقوله: "وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة تمصرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهل أفريقية وهي اليوم مقصد التجار وهي مستقر مملكة صنهاجة"[١].

أنشئت قلعة بني حماد في ٣٩٨هـ/٨-١٠٠٧م على يد حماد ابن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وتتميز القلعة بحكم موقعها بغلبة طابعها العسكري مما يؤكد دورها الدفاعي، وقد أدت هذه القلعة خدمات جليلة للحماديين فحمت المغرب الأوسط من الأخطار التي تعرض لها من قبل الزيريين شرقاً والزناتيين غرباً[٢] إلى أن ظهر العرب الهلالية في المغرب الأدنى وأوغلوا في عمق المغرب الأوسط وعاثوا فيه فسادًا.

نشأت القلعة في وقت قويت فيه شوكة حماد لا سيما بعد ان أعلن انفصاله عن الدولة الزيرية التي كان مواليا لحكامها بادئ ذي بدء، ولقد أحدث انفصاله انشقاقا كبيرا في قبيلة صنهاجة، فأصبح يحكم المغرب الأدنى بنو زيري، والمغرب الأوسط بنو حماد، ولم يكتف حماد بذلك بل أعلن خروجه عن طاعة الفاطميين وتحكم بالمذهب السني وخطب للعباسيين[٣] ، وهذا يدل على تحول عميق حدث في هذه الدولة.

ولقد بلغت القلعة أوج عظمتها بعد غزو قبائل بني هلال لإفريقية وفرار الكثير

---

(١) البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١٢٩.

(٢) عبد الحليم (عويس): دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار الشروق ١٩٨٠، ص٩١.

(٣) إسماعيل (العربي): دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٠، ص١٣٧.

من أصحاب الثراء في المغرب الأدنى من التجار والعلماء والحرفيين إلي القلعة ليضيفوا إليها قوة اقتصادية وازدهارا ثقافيا لم يشهده المغرب الأوسط في تاريخه، ولكن سرعان ما تعرضت هي الأخرى إلي مثل ما تعرضت له القيروان من عبث الهلاليين وتخريبهم لعمرانها، وفي ذلك يقول ابن خلدون ".... ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها فخربوها وأزعجوا ساكنيها وأعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا"[١] واضطر بنو حماد إلي نقل حضارتهم من القلعة إلي بجاية فيما يقرب من سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، ولم يلبث نفوذ بني حماد مع مرور السنين أن أخذ في التقلص تدريجيا بعد أن أفل نجمها وهاجر سكانها إلي بجاية.

لقد ترك الحماديون في مجال العمارة والفنون أثارا متنوعة من مساجد وقصور وحصون منها ما اكتشف ومنها ما لايزال دفين الأطلال ومنها ما دثرت آثاره، والذي لا شك فيه أن الفنون الحمادية كان لها حظ كبير في التأثير على فنون الأندلس، كما أنها تلقت من الأندلس تأثيرات أندلسية وكذلك تبادلت مع المشرق الإسلامي التقاليد الفنية المختلفة، وإن ظلت تحتفظ إلي حد كبير بشخصيتها الواضحة.

وأول ما يلفت النظر داخل قلعة بني حماد، مئذنة المسجد الجامع وهي مئذنة رائعة الجمال فريدة من نوعها، وما تزال قائمة في وقتنا الحاضر تقاوم عوادي الزمن، وتعد أول مئذنة أنشئت في المغرب الأوسط.

١ - الطابع العام لمآذن بني حماد:

وصلت إلينا من هذا العهد ثلاث مآذن هي: مئذنة جامع قلعة بني حماد بالمسيلة، ومئذنة جامع قسنطينة، ومئذنة جامع أبي مروان بعنابة، ولقد تعرضت هذه المآذن لأضرار عبر حقب التاريخ الإسلامي ووصلت إلينا في حالة سيئة، وفيما يلي عرض موجز للطابع العام لهذه المآذن.

---

[١] ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ١٩٥٩، ص٤٣.

تتميز مئذنة جامع قلعة بني حماد بتناسق هندسي واضح المعالم، وعلى الرغم من تهدم جوسقها العلوي، وسقوط بعض الزخارف التي كانت تزدان بها أوجهها فإن ما تبقي من أجزائها الأصلية لا يزال يحتفظ بأصوله المعمارية الأولي، والمئذنة مربعة القاعدة تتوسط الواجهة الشمالية من الجامع (شكل ١) وتتكون من طابق واحد من القاعدة إلي القمة ولا تميل جدرانها كلما ارتفعنا كما هو الحال في مئذنتي جامع القيروان وجامع صفاقس المتأثرتين فيما يبدو بمنار الإسكندرية(١). وإنما تحتفظ الجدران باستقامتها واعتدالها كلما ارتفعنا.

ويصعد إلي أعلي هذه المئذنة من باب ينفتح في الصحن، وتتميز المئذنة بوثاقة البنيان ممثلة في سمك الجدران، كما تنفرد المئذنة بأن الزخارف تقتصر على واجهة واحدة فقط وقوامها عناصر نباتية وهندسية لا نظير لها فيما سبقها من زخارف، ويعلو الدرج أقبية برميلية ومتقاطعة وهو نفس نوع القبوات التي تعلو درجات مئذنة جامع أبي مروان، ويحتمل أن تكون مئذنة جامع قلعة بني حماد من طابقين فقط كما هو الحال في المآذن الموحدية، وتعتبر مئذنة جامع القلعة النموذج الذي اشتق منه الموحدون مآذنهم وتختلف عن مئذنة جامع القيروان وجامع صفاقس اللتان تتألفان من ثلاثة طوابق بحيث تبدو لمن يشاهدها أكثر شبها لمئذنة جامع الكتبية بمراكش من مئذنة جامع القيروان وجامع صفاقس، وهذا يدعونا إلي التساؤل عن مصدر اشتقاق شكل هذه المئذنة.

فالأستاذ بوربية يعتقد أنه مقتبس من مئذنة جامع قرطبة، ومن المحتمل أن تكون قد تأثرت بمئذنة جامع القرويين بفاس وهي أموية الإنشاء، وذلك بسبب الاحتكاك الحربي مع الزناتيين بالمغرب الأقصى حسبما ذهب إليه بوروبية(٢).

أما مئذنة جامع قسنطينة فيشكل تاريخ إنشائها مشكلة ولا ندرى إذا ما كانت بصورتها الحالية ما تزال تحتفظ بخصائصها الحمادية أم لا؟ فهناك اختلاف كبير بين

(١) السيد عبد العزيز (سالم): تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض المآذن في المغرب والأندلس.

(٢) BOUROUIBA ®; L'ART RELIGEUX MUSULMAN EN ALGERIE 2^{e} EDITION, SNED, ALGER 1983, P.45.

نظامها المعماري ونظام مئذنة جامع القلعة فهي مئذنة مستديرة المسقط وتتكون من طابقين، الطابق العلوي منها يتراجع تراجعا خفيفا عن الأدني، وينتهي هذا الطابق بشرفة مزودة بسياج مفرغ بالزخارف الهندسية، أما قمتها فأسطوانية الشكل تنتهي في أعلي بقبة مخروطية الشكل.

ويدور الدرج الداخلي حول عمود من الخشب، ويتغير تخطيط المئذنة كلما صعدنا إلي أعلي، ومن المتعذر تحديد الأصل الذي أخذت منه هذه المئذنة صورتها، إذ أنها تنفرد عن غيرها من مآذن المغرب الأوسط بهذا الشكل، وسنعود لمناقشة هذه المشكلة فيما بعد.

أما مئذنة جامع أبي مروان فقد ضاع أغلب معالمها الأصلية بحيث لم يتبق منها إلا القاعدة، أما باقي الأجزاء العليا فقد جددت حديثًا دون الاهتمام بمراعاة إعادتها إلي ما كانت عليه. وسنقصر حديثا في هذا الفصل على مئذنة جامع قلعة بني حماد التي تمتاز بأصالة لا نظير لها ومئذنة جامع قسنطينة التي تتميز بطرازها الغريب.

٢ - مئذنة جامع قلعة بني حماد:

قبل الشروع في دراستنا للمئذنة يجدر بنا تقديم عرض مختصر أو وصف لعمارة هذا الجامع، يتخذ الجامع شكل مستطيل طوله من الداخل ٦٤م وعرضه ٥٦م ويبلغ سمك جدران الجامع نحو ١,٥٠ م يتوسطه صحن مستطيل الشكل، ويتألف بيت الصلاة من ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة وثمانية أساكيب موازية لجدار القبلة، وللأسف ضاعت معظم العمد التي كانت تتكئ عليها عقود الجامع ولم يتبق منها سوى قواعدها، وكان يفصل بيت الصلاة عن باقي أجزاء الجامع جدار، ويدعم جدران الجامع من الخارج ركائز ساندة وينفتح فيها سبعة أبواب ويحيط بقبلة الجامع بناء يضم خمسة أساطين ربما كان مسجدا صغيرا بني بداخل بيت الصلاة بعد أن قل عدد سكان القلعة أثر هجرتهم إلي بجاية[١]. وقد يكون هذا البناء جدا لمقصورة الجامع.

---

[١] MARCAIS (G); ARCHIT. MUSUL. D'OCCI, P.75.

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالي للجامع على نفس المحور الرئيسي له وهو تقليد اتبع في المسجد الجامع بالقيروان (بداية القرن الثاني للهجرة) ومئذنة جامع صفاقس، ومئذنة جامع قرطبة، ونميل إلى الإعتقاد بأن بناة المئذنة تأثروا بوضع مئذنة جامع القيروان، كما تأثروا بالشكل المربع للقاعدة(١).

ولدخول المئذنة يصعد الراقي على درج من ثلاث درجات تليها بسطة ثم ثلاث درجات أخري تنتهي بمدخل المئذنة (صورة١) وتتكون المئذنة من قاعدة مربعة يعلوها بدن المئذنة الذي يتألف من طابق واحد مربع الشكل بدوره، ومن الجدير بالملاحظة أن زخارف هذه المئذنة تقتصر على الواجهة الجنوبية المقابلة للصحن، أما الواجهات الأخرى فعاطلة من الزخارف باستثناء بعض الفتحات والمزاغل التي استعلمت للإضاءة والتهوية، وربما للمراقبة أيضا (صورة ٢) ومدخل المئذنة في الخارج معقود بعقد نصف دائري تعلوه لوحة حجرية تزدان بزخارف نباتية، وهناك من يعتقد بأنه عقد منكسر، ولكن (ليزين) يؤكد عدم وجود أي عقد منكسر في واجهة المئذنة بأكملها (٢).

وتنقسم الواجهة إلي ثلاث قطاعات طبق في توزيعها الإيقاع والتماثل، وتشكل القطاع الأوسط منها أربعة حنايا يبدو أنها كانت في الأصل مصمتة ثم تهاوت بفعل الزمن وبتأثير العوامل الطبيعية وبقيت منها الحنية الرابعة التي ما تزال تحتفظ إلي حد كبير بشكلها الأصلي وهي مصمتة تزدان بتشكيل هندسي قوامه حرف (Y) اللاتيني يتوسط رأس العقد. أما الحنيتان الجانبيتان فلا تعدو كل منهما جوفة مستطيلة الشكل مطولة مصمتة تنعقد في أعلي بعقد نصف دائري ويتوج هذا الطابق في المئذنة جوفة خامسة أقل ارتفاعا من الجوفة الرابعة وتنتهي بدورها بعقد نصف

---

(١) BEYLIE (GL.DE); LA KALAA DES BENI -HAMMAD. UNE CAPITALE BERBERE DE L'AFRIOUE DU NORD AU XI^e, SIECLE, PARIS ERNEST LEROUX, 1909, P.80

(٢) LEZINE (A); "LE MINARET DE LA KALAA DES BENI- HAMMAD" IN. BUUERIN, D'ARCHEOLOGIE ALGERIENNE. TOME II 1966- 1967, BUUETIN PARIS 1967, P.264.

دائري كان يكسو وجهه تربيعات من الخزف تبقت منه بأعلى العقد لونهـا أخضـر. وتتميـز الجوفـة الثانيـة بعقـدها الـذي تخـتلط فيـه الخطـوط المسـتقيمة بالمنحنياتMIXTILGNES ويذكرنا هذا العقد بالعقود التـي تحـف بمقرنصـات الأركان بجامع تلمسان وكذلك بعقود مصلي قصر الجعفرية بسرقسطة . أمـا عقـد الجوفة الأولي التي تعلو مدخل المئذنة فيبدو أنه كان مماثلاً للعقد السابق، فما تزال تظهر الخطوط المختلطة بالمنحنيات، ومن المعتقد أن هذا الوجه في المئذنـة كـان مكسوا بكسوة من الخزف الأخضر الزليجي الذي شاع استخدامه في كثير من مـآذن المغرب في العصور التالية، كما أن تقسيم الزخارف إلي قطاعات ثلاثة تمتد رأسـيا بامتداد المئذنة فتقليد مبتكر سيطبق في عصر دولة الموحدين فـي مئذنـة جـامع القصبة بأشبيلية المعروفة بالخيرالدا(١).

وتكشف التقسيمات الزخارفية بواجهة هذه المئذنة عن بعض التأثيرات المغربية وتتمثل في الحنايا المسطحة التي نشهد نظائرها في مدخل المسجد الجامع بالمهدية، وكذلك في الفتحات المعقودة بعقود منكسرة التي تزدان بها مئذنة جامع صفاقس(٢).

ولم يتبق من الطابق العلوي للمئذنة أي أثر يـدل عليـه، كمـا أن المصـادر التاريخية والمراجع الحديثة لم تشر إلى وجود أثر له، وأغلب الظن أنه تهـدم فـي وقت قريب من تاريخ إنشاء القلعة، إلا أن الأستاذ (كمال الدين سامح) يعتقد أنه تهدم في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م على أيدي الموحدين(٣)، بل أن قمـة الطـابق الرئيسـي المتبقي في المئذنة في طريقها إلي الانهيار الأمر الذي اسـتلزم قيـام إدارة الآثـار بالقلعة بترميمها في سنة١٩٦٩- ١٩٧٠ تحت إشراف وزارة الإعلام والثقافة آنذاك

---

(١) BOUROUIBA ® ; CITES DISPARUES. TAHERT, SEDRATA ACHIR ET KALAA DES BENI HAMMAD IN. COLLECTION ART ET CULTURE, ALGER 1982, P.113.

(٢) GOLVIN (L), RECHERCHES ARCHEOLOGIQUES A LA KALAA DES BENI- HAMMAD, G.P, MAISONNEUVE ET LA ROSE, PARIS 1965, P.53.

(٣) KAMAL EL DIN (SAMEH); MINARETS IN NORTH AFRICA AND SPAIN, P.183.

وتم الفراغ من أعمال الترميم سنة ١٩٧٦م، وقد توصلت إلي الحصول على بعض التقارير المقدمة من البعثة الإيطالية التي تولت ترميم المئذنة في أغسطس ١٩٧٢م، ويستدل منها على أن كتل الحجارة التي تساقطت من المئذنة أعيدت إلى مكانها بطريقة عشوائية مما يدل على أن ترميم المئذنة تم على نحو غير علمي لم تطبق فيه المنهج العلمي السليم(١). ويمكننا ملاحظة بعض آثار الترميم على ارتفاع عدة أمتار من قاعدة المئذنة وذلك تجنبا لتعرضها للسقوط.

أما عن مقاسات المئذنة فيقدر طول كل جانب من قاعدتها بـ ٦,٥٠م ويبلغ ارتفاعها بدون الجوسق العلوي المفقود ٢٥ متراً وهي المقاسات الحالية للمئذنة، وعندما ندقق النظر من الخارج نلاحظ أنها تنقسم إلي ثلاثة طوابق وهو تقسيم هندسي روعي فيه التناسب الهندسي للمئذنة. والواقع أن المئذنة كتلة بنائية واحدة متماسكة تتناسب من قاعدتها إلي قمتها.

ومدخل المئذنة ينفتح في قاعدتها ويؤدي هذا المدخل إلي السلم الداخلي وعدد درجاته مائة وثلاث وثلاثون درجة تفضي إلي أعلي المئذنة، وهذه الدرجات منها ما استحدث بأعلي المئذنة بنفس نظام الدرجات السفلي، وباب المدخل مصراع من الخشب على جانبيه عمودان مدمجان بالجدار يعلوهما تاجان اندثرا حديثا ولم يبق إلا آثارهما، ويقال أن باب المئذنة استحدث في الفترة الاستعمارية الفرنسية لأن الباب الأصلي اختفي في فترة غير معروفة، وربما انتزع من المئذنة ونقل إلي بجاية بعد انتقال العاصمة إليها.

ويشغل وسط المئذنة دعامة مركزية مصمتة مربعة الشكل طول كل ضلع منها ١,٥٠م يلتف حولها الدرج الصاعد المؤدي إلي أعلي المئذنة (شكل٢) ويعلو الجهة الغربية للدعامة عقد نصف أسطواني، وأما السلم الداخلي فتختلف عدد درجاته حسب كل دورة، وسقفه قبوات تتناوب فيما بينها قبوة متقاطعة تليها قبوة نصف أسطوانية،

---

(١) FERRANTE (MARIO); "RAPPORT SUR LA RESTAURATION DU MINARET DE LA KALAA DES BENI –HAMMAD, IN. ARCHIVES DE MISSION ARCHEOLOGIQUE, AOUT 1972..

ويستمر نظام التقبيب على هذا النحو إلـي أعلـي المئذنـة، ونلاحـظ أن القبـوات المتقاطعة تأخذ موضعها في الزوايا، وهذه ميزة سبق أن طبقت في مئذنـة جـامع القيروان[1].

وجميع درجات السلم مستطيلة الشكل باستثناء الدرجات الواقعة عند نهاية كـل دورة حيث يتخذ الدرجان شكل مثلثين، طول كل درجة مترا واحـدا، أمـا العـرض التقريبي لها فيبلغ ٣٥سم. ولقد أخطأ (جولفان) في رسم المقطع الطولي للمئذنة في كتابه (أبحاث أثرية في قلعة بني حماد) حيث خلط بين سمك الجدار وطول الدرجـة الواحدة، فبينما قدر سمك الجدار بـ ١,٥٠م وطول الدرجة مترا واحدا مثل العكـس في مقطعه، كما أنه لم يمثل أيضا في مقطعـه الطـولي الفتحـات الموزعـة علـى الواجهات الأربعة للمئذنة وهي الملاحظات التي استخلصناها أثناء دراستنا الميدانية للمئذنة مما دعانا إلي أعادة رسم قطاع طولي للمئذنة (شـكل٣). ويتخلـل جـدران المئذنة من الداخل فتحات للإضاءة والتهوية والمراقبة في الوقت ذاته منهـا فتحـة ضيقة أشبه بالمزغل في الأسوار والقلاع، وتقع هذه الفتحة بالجانـب الأيسـر مـن المدخل ما بين عقد المدخل والعقد الذي يعلوه، ومن المعروف أن هذا المدخل يقـع على مقربة من سور المدينة، وربما استخدم لهذا السبب للمراقبـة. ومـن الجـدير بالذكر بهذه المناسبة أنه ينفتح في الواجهة القبلية المزينة بالزخـارف فـي أوجـه المئذنة فتحة ضيقة قبالة المحراب هي في الواقع مزغل (صورة٣)، ومن المـرجح أيضا انه استخدم للمراقبة وإطلاق السهام في وجه العدو، وينفتح على مقربة منهـا بالواجهة الشرقية من المئذنة فتحة مماثلة مقابلة لبرج المنار حيث تقابلهـا فتحـة مازالت آثارها موجودة، هذه المزاغل كانت مخصصة للمراقبة ولإطلاق السـهام أو لإشعال النيران إنذارًا باقتراب العدو، وبالإضافة إلي ذلك تنفتح في جدار الواجهة من الداخل فتحة أخرى مستديرة وعميقة تطل على الجهة الجنوبية نحو أعلي قمة مـن هضاب شط الحضنة التي تبعد عن سور المدينة بنحو ٣كلم، ومن المحتمـل وجـود

---

(1) GOLVIN (L); RECHERCHES ARCHEOLOGIQUES A LA KALAA.. P.53.

برج للمراقبة في هذه القمة لمراقبة العدو القادم من مدينة طبنة ربما كان حلقة وصل بين طبنة والقلعة. هذا وينفتح في الجدار الشمالي من المئذنة موضوع الدراسة فتحة على شكل مزغل تطل على أعلي قمم جبل تقربوست الواقع في الجهة الشمالية للمدينة، ومن المعتقد أنه كان يقوم بأعلى قمة هذا الجبل برج للمراقبة كانت توقد فيه النيران للإنذار بقدوم العدو من الجهة الشمالية.

ويعلو الدرج الداخلي عند نهاية الجوفة الأولي من الوجه الخارجي للمئذنة قبوة متقاطعة (صورة٤) وأستبعد أن تكون هذه الجوفة مصمتة كالشأن في الطاقتين الجانبيتين، وأعتقد أنها كانت مفتوحة من الأصل استنادا إلي الفتحتين اللتين تنتظمان أعلاها مما يرجح كثيرا أن هذه الفتحة كانت بابا يغلق بمصراعين مهمته الإضاءة والتهوية أو لرمي القذائف.

وابتداءًا من نهاية الدورة الأولي صعودا نحو الثانية تتغير طريقة التسقيف حيث تسقف الأدراج بأقبية نصف أسطوانية، وبوصولنا إلي الدورة الثانية من الدرج نجد طاقة على غرار الطاقة الموجودة في الدورة الأولي من الدرج، وأن كانت تقل عنها في الطول، ومن الواضح أنها كانت مفتوحة في الأصل لأنه لم يتبق أي دليل على أنها كانت مصمتة، بل مازالت جدرانها تحتفظ بآثار الملاط مما ينفي ذلك ويبقي أن نعرف إذا ما كانت مفتوحة دائما أو كانت مغلقة بباب أو بمزلاج حديدي أو كانت في الأصل نافذة وهو أمر لم نستطع أن نستدل عليه من الآثار الباقية. ويستمر أسلوب التقبيب في الدورة الثالثة من الدرج متخذا نفس أسلوب الدروة الثانية وقوامه القبوات نصف الأسطوانية، وفي هذه الدورة الثالثة تنفتح طاقة شبيهة بطاقة الدورة الثانية، ويستمر التسقيف ،تبعا نفس النظام السابق فيما بين الدورة الثالثة إلي شرفة المئذنة، وفي هذه الدورة تنفتح طاقة ضيقة على شكل مزغل في الجهة الغربية من المئذنة قبالة باب الجنان، وأخري في الوجهة الشمالية قبالة جبل تقربوست بنفس النظام.

وسطح البرج الرئيسي للمئذنة مربع الشكل أعيد ترميمه كما سبق أن أشرنا، ونتساءل هل كان لهذا البرج الرئيسي جوسق علوي أعني طابق ثان؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لا بد أن نحدد طبيعة هذه المئذنة، فإذا ربطناها بجميع الأبراج المحيطة بالسور فإننا نلاحظ أنها ترتبط بها ارتباطا وثيقا، ومن المعروف أن القلعة مدينة عسكرية من الدرجة الأولي لأن أسمها يدل على ذلك.

وقد خرجنا من دراستنا لهذه المئذنة بعدة ملاحظات منها الارتفاع الشاهق للمئذنة ويبلغ ٢٥م في حين يبلغ طول القاعدة المربعة ٦,٥٠م ثم السمك الهائل للجدار ويبلغ ١,٥٠م بالإضافة إلي وجود المزاغل في جدران المئذنة على الواجهات الأربعة لها قبالة قمم الجبال المحيطة بالقلعة، ومنها توسط موقع المسجد والمئذنة للمدينة، وهذا الموقع المركزي يتيح مراقبة سائر الجهات، زد على ذلك أن المظهر الخارجي العام للمسجد يؤكد الدور العسكري الذي يقوم به، فجدران المسجد الخارجية تدعمها ركائز ضخمة تشبه ركائز الجدران في جامع القيروان وجامع قرطبة وجامع اشبيلية. كل هذه الخصائص المعمارية تجعلنا نسلم بأن القلعة كانت بالفعل مدينة عسكرية وأن مسجدها الجامع اتخذ طابعا عسكريا بحتا كما تدل بقاياه، ومن خصائص المئذنة المعمارية جمعها بين وظيفتين الأولي دينية خالصة والثانية عسكرية حيث كانت تتخذ برجا للمراقبة والإشعار بخطر اقتراب العدو، كما يمكن القول أيضا من خلال ما أبديناه من ملاحظات أن الجمع بين هاتين الوظيفتين كان مقصودا من البداية.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نستنتج أن المئذنة كان يعلوها جوسق أو برج أقل في الارتفاع والضخامة من الطابق الرئيسي، ولقد أعاد تصوره (جورج مارسيه) (شكل ٤) إذ تصور أنه كان قائما على قاعدة مسطحة تحف بجدرانها الأربعة شرافات مدببة الرؤوس وينتهي هذا الطابق بقبة، ولكن لسنا ندري على أي أساس جعل مارسيه هذه الشرافات مدببة على الرغم من أنه لا أثر للشرافات المدببة في واجهة المئذنة.

وإذا سلمنا أيضا بأن المئذنة كانت برجا للمراقبة، فالمرجح أن تكون الشرافات مدورة الرؤوس تجنبا لوجود فراغات كبيرة بين كل شرفة وأخرى، وبذلك يمكن للحارس مراقبة المسجد والمدينة من أعلي الشرفة، ومثل هذه الشرافات استعمل في

رباط سوسة وكذلك في مئذنة جامع القيروان، لأن الشرافات المدببة تترك فراغا كبيرا بينها، وفي تصوري أن القبة كان يعلوها في مركزها سفود بارز كانت مركبة فيه تفافيح ثلاثة يتوجها هلال كما في (الشكل ٥) على غرار سفافيد المآذن الزيانية التي سنقوم بدراستها فيما بعد. ولا نستبعد أن تكون جدران الجوسق أو البرج العلوي مفتحة بفتحات معقودة أسوة بما ابتع في البرج الرئيسي وعلي نحو ما نشهده في المآذن الاندلسية المغربية.

أما عن مواد البناء التي استخدمت فيها يذكر (سلادان) بأنها بنيت بالدبش المسطح غير متساوي القطع ثم طلي بالجير[١]، في حين لاحظت أنه استخدم في البناء الحجر البني اللون الذي كان يجلب من جبل تقربوست وكانت الأحجار تقطع بانتظام وتركب الواحدة فوق الأخرى بواسطة الحجر المدكوك أو الطابية، وهذه الطريقة هي التي استعلمت في العمارة الإسلامية بالجزائر، بل في المغرب الإسلامي إجمالا، وكثيرا ما عمد البناه إلي دمج بعض الألواح الخشبية في البناء وهي طريقة مازالت تستخدم إلي يومنا هذا وذلك لتقوية البناء. أما جدار المئذنة من الداخل فمطلي بالجير.

ومن خلال دراستنا لهذه المئذنة يبدو أنها لا تمت بصلة إلي مئذنة جامع القيروان، والتشابه الوحيد الذي يمكن ملاحظته بينهما يتمثل في الجوفات المسطحة على واجهة كل من المئذنتين المطلتين على الصحن[٢]، وعلي هذا النحو يمكن أن تكون هذه المئذنة جمعت بين تأثير قيرواني وارد من المسجد الجامع بالقيروان، وتأثير أندلسي مغربي تشهده في مئذنتي جامع القرويين وجامع الأندلسيين[٣] بفاس

---

(١) SALADIN (H); NOTES SUR LES MONUMENTS DE LA KALAA DE BENI –HAMMAD' IN. BULLETIN ARCHEQLOGIQUE DU COMITE DES TRAVAUX HISTORIQUES ET SCIENTIFIQES, PARIS, 1904, P.244.

(٢) LEZINE (A); "LE MINARET DE LA KALAA DES BANU –HAMMAD' IN, B.A.A. T2, P. 267.

(٣) RICARD (P); POUR COMPRENDRE .... P.200.

ولقد تفاعلت جميع هذه التأثيرات في مئذنة جامع قلعة بني حماد لتظهر بمظهر أصيل يعبر عن قدرة المعمار الحمادي العالية في الإبداع المعماري.

ومما لا شك فيه أن تأثير هذه المئذنة على مآذن الموحدين وعلى الأخص مئذنة جامع أشبيلية كان عميقا من حيث نظام توزيع الزخارف على واجهتها، ويبدو أن هذه التأثيرات الحمادية بدأت تفيض على مآذن الموحدين منذ أن سقطت قلعة بني حماد في أيديهم ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م[١]ويتجلى التأثير المذكور معماريا في الطابع العام للمئذنة الموحدية، وزخرفيا في القطاعات المخصصة للزخارف في مئذنة أشبيلية، و كذلك في زخارف مئذنة الكتبية[٢] ومئذنة جامع حسان بالرباط[٣]، ثم مارست مئذنة اشبيلية تأثيرها بدورها على المآذن الزيانية والمرينية كما سنرى فيما بعد.

٣- مئذنة المسجد الجامع بقسنطينة:

يتكون بيت الصلاة في هذا الجامع من ست بلاطات موزعة على ثمانية أساكيب تتساوى في الاتساع، وللمسجد محراب رائع حنيته تعلوها قبيبة مفصصة على غرار محراب جامع القيروان وتزدان طرة المحراب أو تربيعته بشريط من الكتابة الكوفية سجل فيها تاريخ الإنشاء وهو عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م وهو تاريخ مقارب لتاريخ بناء جامع تلسمان في أواخر عصر دولة بني حماد ويعلو هذا النقش الكتابي بطرة عقد المحراب نقش بالخط الكوفي يتضمن تاريخ سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م يعلوه نقش آخر نقشه بخط لين يتضمن تاريخا يتألف من أربعة أرقام أحدها رقم المئات وهو مشوه، أما بقية الأرقام فهي (١) للألوف و(٨) للعشرات و (٠) للآحاد، وقد تكون

---

[١] GOLVIN (L); ESSAI SUR L'ARCHIT- RELIGMUSUL, T1, P.58.

[٢] BASSET (H) ET TERRASSE (H); SANCTUAIRES ET FORTERESSES AL- MOHADES, COLLECTION HESPERIS N$^{\underline{o}}$. V LA ROSE EDITEUR PARIS, 1932, P.110.

[٣] GOLVIN (L); LE MAGHRIB CENTRAL A L'EPOQUE DES ZIRIDES. ARTS ET METIERS GRAPHIQUES, PARIS 1957, P.185..

هذه التواريخ ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م، أو ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م أو ١٢٨٠هـ/١٨٥٣م[1].

ونستدل من النقشين الأولين بأن المسجد تم في عصر بني حماد وأنه أضيف إليه إضافات إحداهما في عصر المرابطين والآخر في العصر الحديث، ويشير (ميرسيه) إلي هذه الزيادات معتمدا على نقش كتابي فوق أحد الأضرحة عثر عليها (شاربونو) بالمسجد الجامع بقسنطينة مؤرخة بـ ٦١٨هـ/٢ - ١٢٢١م، وأن المكان الذي عثر فيه على هذا النقش قد هدم وبنيت في موضعه عمائر فرنسية، ويعتقد (ميرسيه) أن المسجد كان في الأصل أكثر اتساعا منه الآن، فإن واجهته أعيد بناؤها وفقا للطراز المعماري الفرنسي، أما بقية البناء فيرجع إلي تاريخ الإنشاء الأول[2]، وأما الأستاذ بورويبة فيري بأن النواة الأولي لبناء المسجد كانت في العهد الحمادي ١١٣٦م[3].

تنتصب المئذنة بالجدار الشمالي للجامع شأنها في ذلك شأن مئذنة جامع القلعة، وتتكون من قاعدة مستديرة يعلوها بدن المئذنة وهو مربع الشكل يتكون من طابقين، الطابق الأول مربع الشكل وأكثر طولا تنفتح في واجهاته نوافذ ضيقة الفتحات مستطيلة الشكل تتوزع نافذة في كل واجهة وذلك لإدخال الضوء والتهوية، ويتوج كل هذه النوافذ عقد على شكل حدوة الفرس، ويحد هذا الطابق من أولاه شريط داكن اللون. وتتراجع جدران الطابق الثاني إلي الداخل قليلا عن الطابق الأول وهو أقل طولا منه، وينفتح في كل وجه من أوجهه صفان من النوافذ بكل صف نافذتان، وتتألف كل نافذة من مستطيل ضيق يعلوه ما يشبه عقد متجاوز على شكل حدوة الفرس، ويعلو هذا الطابق شريط بارز يليه شريط آخر من الرخام يزيد عرضه عن الشريط الأول يشكل إفريزا أملس يتوسطه هلال في كل وجه من أوجه المئذنة.

---

[1] بورويبة (رشيد): الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٧٧، ص٢٢٢.

[2] MERCIER (GUSTAVE) : CORPUS DES INSCRIPTIONS ARABES ET TURQUES DE L'ALGERIE, PARIS, ERNEST LEROUX 1902. P.5.

[3] BOUROUIBA ®; L'ART –RELIG –MUSUL …….P.23

(صورة ٥) ويتوج ذلك كله شريط يتكون من ثلاثة صفوف من المثلثات والمعينات على شكل مقرنصات من ثلاث حطات ترتكز عليها شرفة المؤذن ويدور بها سياج من البناء المخروم بأشكال نجمية، يعلو ذلك طابق أسطواني الشكل قصير يتوجه جفت بارز ترتكز عليه القبة مخروطية الشكل التي يخرج منها سفود ركبت به تفافيح ثلاث على شكل كرات تبقي منها اثنتان (صورة ٦)، وكان يعلو هذه التفافيح كما هو الشائع في مآذن المغرب الأوسط هلال كان يزن نحو من ٢٠ كلغ ولكنه سقط في سنة ١٩٧٤م أو ١٩٧٥م، ويزدان بدن الجوسق كله بقطع من الزليج الأزرق والأصفر والأخضر على غرار زليج الفترة العثمانية في قصبة الجزائر العاصمة، والظاهر أن هذه التربيعات الزليجية اجتلبت من أحد مرافق المسجد وأعيد تركيبها في بدن الجوسق وهذا يدعونا إلي التأكد من أن المئذنة والجامع قد تعرضا لبعض الزيادات في العصر العثماني لكنها لم تمس جوهر البناء، فمن الممكن حصرها في مجال الزخارف فقط، وأما القبة المخروطية الشكل فهي مصفحة بقطع من القصدير.

أما القسم الداخلي من المئذنة فيمكن الدخول إليه عبر باب من الخشب من مجنبته الشمالية يبلغ ارتفاعه ٩٥سم، واتساعه ٧٥سم يؤدي إلي درج يدور حول دعامة أسطوانية من الخشب محيطها ٦٥سم، ويصل الراقي (شكل ٦أ) بعد خمس وثلاثين درجة إلي سطح يؤدي إلي مئذنة أخري مربعة الشكل تقع شرقي الأولي وتقوم على دعامة أسطوانية مماثلة للدعامة الأولي، ولكن تبعد عنها بنحو ٢,١٠م (شكل ٦ب) وبصعودنا أيضا ست عشرة درجة يقابلنا باب يؤدي إلي فضاء مسطح مستطيل الشكل يقع في الجهة الشمالية للمئذنة (شكل ٦جـ) وللوصول إلي هذا الفضاء العلوي للمئذنة لابد من صعود ثمانين درجة وقبل الوصول إليه بـ ٣٠سم[1] يتغير الشكل المربع إلي الشكل الدائري المسقط (شكل ٦د) وسقف الدرج مائل بميل الدرج نفسه (شكل ٧) ودرجاته كلها من الخشب ويبلغ طول الدرجة الواحدة ٧٣سم، وتتخلل جدران المئذنة نوافذ سبق وأن تحدثنا عنها عند وصفنا للمظهر الخارجي

[1] BOUROUIBA (R); CONSTANTINE, COLLECTION 'ART ET CULTURE' ALGER 1978, P.61.

للجامع بالإضافة إلي جوفات صماء لوضع بعض مستلزمات المسجد والمؤذن.

بنيت المئذنة من كتل حجرية صغيرة الحجم أشبه ما تكون بقوالب الآجر كسيت من الخارج بالجير، أما من الداخل فقد تداخلت معها بعض الروابط الخشبية لتدعيم المبني وجعله أكثر صلابة، وهذه تقنية استعملت من قبل في مئذنة جامع قلعة بني حماد.

ويتبين لنا من دراسة العناصر المعمارية لهذه المئذنة أنها تختلف تماما عن مئذنة جامع القلعة، وكذلك عن المآذن الأولي في المغرب والأندلس مثل مآذن جوامع القيروان وصفاقس وقرطبة وإن كانت تقترب من المآذن ذات الطابقين الموحدية والزيانية وما تلاها، ولو ثبت أن مئذنة جامع القلعة كانت تتكون من طابقين وهو الأرجح فأنها تكون قد أثرت على مئذنة جامع قسنطينة تأثيرا واضحا.

أما من حيث جوهر البناء فيختلف في قسنطينة اختلافا واضحا عنه في القلعة، ولهذا السبب لا يمكننا أن ندرج مئذنة قسنطينة في عداد المآذن الحمادية، وكنموذج فعلي للفترة الحمادية لأسباب كثيرة منها أن القسم الواقع فوق السطح الأول المستطيل لا يرجع إلي القرن ٦هـ/ ١٢م، وأما فيما يتعلق بالطابق السفلي فلابد أن نشير إلي أن المآذن دائرية المسقط والتي تحتوي على دعامة مركزية دائرية نادرة في القرن ٦هـ/١٢م ولا يوجد لها مثيل في المغرب. أما في المشرق فلا نعثر على مثل هذا الشكل إلا في جامع الحاكم بأمر الله في العصر الفاطمي(١).

وكل من درس هذا المسجد الجامع يقف حائرا أمام مئذنته ثم ينتهي بطرح هذا السؤال: هل استوحي المعماريون الحماديون شكل هذه المئذنة من العمارة الفاطمية بالقاهرة؟ ولا نستبعد بالفعل أن تكون قد تأثرت بعمارة مئذنتي الحاكم بأمر الله في القاهرة اللتين تنفردان بهذا التخطيط، فتأثير المساجد الفاطمية على العمارة المغربية واضح، لكن لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الرأي ولهذا فهو من قبيل الافتراض والتصور، ولكن السؤال المحير في هذا الشأن لماذا لم يقتبس المعماريون الحماديون

---

(١) BOUROUIBA ®; L'ART RELIG. MUSUL …..' P.43.

من مئذنة قلعة بني حماد القريبة منهم زمانا ومكانا؟

يبدو في نظرنا أن هذه المئذنة فقدت كثيرا من قيمتها بتعرضها لتغيـرات فـي العهد العثماني والفرنسي والعصور اللاحقة مما يتعذر معه تصور حالتهـا الأولـي. والحق أنه ليس في وسعنا أن نقول أكثر مما ذكرناه في موضوع هذا المئذنة الغريبة الطراز بين مآذن المغرب الأوسط.

الفصل الثاني

المئذنة في عهد بني زيان

تمهيد:

١) الطابع العام للمئذنة في عهد بني زيان.

٢) مئذنة المسجد الجامع بتلمسان .

٣) مئذنة جامع ندرومة.

٤) مئذنة جامع سيدي أبي الحسن.

٥) مئذنة جامع المشور.

٦) مآذن زيانية أخرى.

تمهيد:

يرجع أصل بني زيان إلي القبائل الرحل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط ثمُ ترحل عنها بحلول فصل الصيف لِتستقر في سهول وهران، ويضع أفرادها أنفسهم في خدمة عامل الموحدين بتلمسان كلما احتاج إليهم ومن أجل الخدمات التي قدموها للموحدين تدخلهم العسكري للدفاع عن تلمسان والمهددة بالسقوط في أيدي بني غانية الموالين لدولة المرابطين البائدة، وقد كافأهم الموحدون على هذه الخدمات فنصبوا "يغمراسن بن زيان" ٦٢٤هـ/١٢٢٧م عاملا على تلمسان وبلاد زناته[١].

وبعد سقوط دولة الموحدين استقل "يغمرا سن بن زيان" بمنطقة تلمسان وأسس دولته هناك، وتقع بين دولة بني حفص بالمغرب الأدنى وحاضرتها تونس وبين دولة بني مرين بالمغرب الأقصى وحاضرتها فاس اللتين استقلتا في نفس الوقت، واتخذ من تلمسان مقرا وحاضرة لدولته[٢].

وكان السلطان "يغمراسن" على قول يحيي ابن خلدون كريما فاضلا اتسم بالشجاعة والحلم والتواضع الجم وكان يهتم كثيرا بأمور الدين[٣] وكان يحرص على أداء الصلاة في المسجد الجامع بتلمسان وجامع أغادير إقتداء بأمراء المرابطين وحفاظا على المظهر الديني الذي كان يحرص على إبرازه، وهو الذي بني صومعتي الجامعين المذكورين، وعندما تقرر تسجيل اسمه عليهما أبي اباء شديدًا وقال بكل

---

(١) السيد عبد العزيز (سالم): تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الطبعة الثانية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٨٢، ص٧٨٨.

(٢) بورويبة (رشيد) وآخرون: الجزائر في التاريخ. العهد الإسلامي من الفتح إلي بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٤، ص٣٥٩.

(٣) أبن خلدون (يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج١، تقديم وتحقيق وتعليق د.عبد الحميد حاجيات، الجزائر ١٩٨٠، ص٢٠٤.

تواضع بالزناتية (يسنت ربي) أي (علم ذلك عند ربى) [1].

وكان "يغمراسن" راعيا لفنون العمارة والإنشاء، فاهتم بتعمير تلمسان بمختلف أنواع العمائر من مساجد وقصور وأسوار، ولكن أعظم الإنجازات الإنشائية التي تمت في عهده وعهد خلفائه تتمثل في عمارة المآذن التي تشق عنان السماء بسموها ورشاقتها، وجمال صورتها على نحو يثير الاعجاب.

وشهدت تلمسان أوج تقدمها وازدهارها في مجال العمارة والفنون والعلوم في عصر بني زيان، وتشهد آثارهم الباقية على تذوق هؤلاء السلاطين للفنون وتقديرهم لها، وهكذا أبهر الزيانيون تلمسان بروائع معمارية لم يسبق أن شهدتها من قبل وأصبحت تشكل تراثا عظيما استحقت بفضله تلمسان أن تلقب بمدينة الفن والتاريخ[2].

١ - الطابع العام للمئذنة في عهد بني زيان:

قبل الحديث عن الطابع العام لمآذن بني زيان ونظامها تجدر الإشارة إلي أن عصر المرابطين لم يسجل انشاء مآذن على الاطلاق فمساجد المرابطين في المغرب الأوسط المتمثلة في المسجد الجامع بتلمسان والمسجد الجامع بالجزائر العاصمة وجامع ندرومة كلها متوجة بمآذن ترجع إلي الفترة الزيانية.

والسؤال المطروح هو لماذا لم يبن المرابطون مآذن لمساجدهم؟ من المعروف أن المرابطين يمتازون بشدة تعصبهم ونزعتهم الدينية القوية، ولذلك اعتبروا المئذنة بدعة من البدع لأن مسجد الرسول (صلي الله عليه وسلم) كان يخلو من المئذنة ولهذا تمسك المرابطون بهذه السنة، وربما يرجع زهدهم في إقامة مآذن لمساجدهم الجامعة إلي رغبتهم في سرعة بناء المساجد، وقد يكون لأسباب أخري لا نعرفها.

---

(١) التنسي (محمد بن عبد الله): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، حققه وعلق عليه محمد بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر ١٩٨٥، ص١٢٥.

(٢) MARCAIS (G); TLEMCEN VILLE D'ART ET D'HISTOIRE EXTRAIT DU DEUXIEME CONGRES DE LA FEDERATION DES SOCIETES SAVANTES DE L'AFRIQUE DU NORD, P.21.

أما الموحدون فلم يؤثر عنهم أنهم أقاموا مساجد أو مآذن في مدن المغرب الأوسط، ولهذا السبب فإننا ننتقل مباشرة إلي عصر بني زيان الذين تركوا مآذن بلغت الغاية في الروعة والجمال، وهي مآذن مربعة الشكل تتكون غالبا من طابقين وتزدان واجهاتها بشبكات من المعينات تنبثق من عقود مختلفة الأنواع وتحاط هذه الشبكات الزخرفية عادة بأفاريز بارزة(١).

وتبدو المآذن الزيانية وثيقة الصلة بمآذن الموحدين فهي تنتصب في الفضاء كتلة واحدة جدرانها معتدلة لا تميل إلي الداخل كلما ارتفعت وبداخلها درج يدور حول دعامة مركزية مربعة صماء. وتتكون المآذن الزيانية عادة من طابقين، الطابق الأول وهو الأساسي في المئذنة ينتهي بشرافات يليه طابق أقل ارتفاعا وضخامة تعلوه قبيبة يبرز من أعلاها سفود بارز، ومعظم أوجه المآذن الزيانية يزدان بشبكة من المعينات، وقد ورثوا هذا التقليد عن الموحدين(٢).

وترجع إلي هذه الفترة الزيانية في المغرب الأوسط ثمان مآذن منها مئذنة جامع سيدي أبي الحسن، ومئذنة جامع سيدي إبراهيم، ومئذنة المسجد الجامع بتلمسان، ومئذنة جامع ندرومة، ومئذنة جامع أغادير ومئذنة جامع أولاد الإمام، ومئذنة المسجد الجامع بالجزائر العاصمة ومئذنة جامع المشور.

ومن الملاحظ أن الطابق الأول من المآذن الخمس الأولي يزدان بشبكة من المعينات محصورة بين أفاريز أربعة في حين اختفت هذه الشبكات في المآذن الثلاثة الأخيرة وربما لم تكن موجودة أصلا.

ويجدر القول أن مئذنة المسجد الجامع بالجزائر فقدت الكثير من أصلها بحيث لم تعد تحتفظ بصورتها القديمة، أما مئذنة جامع أولاد الإمام فالبرغم من صغر مساحة الجامع وضآلة أهميته في مدينة تلمسان إلا أن مئذنته تمثل طرازا زخرفيا مختلفا

---

(١) LES MOSQUEES EN ALGERIE. COLLECTION" ART ET CULTURE'. SNED. ALGER, JUIN 1970, P.26.

(٢) BOUROUIBA (R); L'ART MUSULAMAN EN ALGERIE, SNED ALGER 1972, P.47.

عن القاعدة الزخرفية لمآذن بني زيان فهي تزدان بعقدين مفصصين كل منهما يتألف من خمسة فصوص تحيط به طرة مستطيلة الشكل بداخلها حشوة تشتمل على ثلاثة عشر فصا. أما مئذنة جامع المشور فلها قيمة تاريخية وأثرية كبيرة إذ أن هذا الجامع أنشئ داخل قصر يغمراسن ولهذا عرف بالمشور، وتزدان مئذنته بالواجهات الأربع ببوائك متصلة العقود وبقطع من الفسيفساء الخزفية البراقة بالإضافة إلى شريط من الكتابة منقوش في الواجهة الجنوبية للمئذنة.

وتتميز المآذن الزيانية بأنها تقع عادة في زوايا جدار مؤخرة المسجد باستثناء جامع تلمسان وجامع الجزائر العاصمة فالمئذنة تقع في منتصف جدار المؤخرة وفي نفس المحور مع المحراب، وربما تأثر موقع المئذنة في زاوية جدار المؤخرة لا سيما الزاوية الشمالية الشرقية بوضع المآذن الموحدية(١).

وتمتاز المآذن الزيانية بارتفاعها المتوسط الذي يتناسب مع كبر مساحة المسجد أو صغرها، وقد أشرنا فيما سبق أنها تأثرت كثيرا بمآذن الموحدين بدليل أنها مآذن من طابقين وليست من ثلاثة طوابق كما هو الحال في مئذنة جامع القيروان وجامع صفاقس، ثم أن جدرانها تنتصب باعتدال دون أدني ميل إلي الداخل كلما ارتفعت بخلاف مئذنتي جامع القيروان وجامع صفاقس وبنفس طابع مآذن الموحدين التي تأثرت بدورها من حيث الشكل والتقاسيم الزخرفية بمئذنة جامع قلعة بني حماد.

أما من حيث النظام الداخلي لمآذن بني زيان، فإن الارتقاء إلي أعلي المئذنة يتم عن طريق سلم يدور حول دعامة مركزية مربعة الشكل صماء كما هو الحال في مئذنة جامع قلعة بني حماد، ويسقف درجات السلم قبوات نصف أسطوانية يطوقها في كل دورة قبوان متقاطعان وفي بعض الأحيان ثلاث قبوات متقاطعة.

وكل ما يمكن أن نقوله عن طابع مآذن بني زيان ونظامها الداخلي أنها متأثرة من حيث المظهر الخارجي العام، وكذلك من حيث الزخرفة، بمآذن الموحدين، أما من حيث النظام الداخلي للمئذنة فيشبه إلي حد كبير نظيره في مئذنة جامع قلعة بني حماد.

---

(1) BOUROUIBA ®; L'ART TELIG MUSUL ……. P.186.

ولقد وقع اختيارنا لدراسة مآذن بني زيان على أربع مآذن تعتبر نماذج صادقة لهذه المآذن بالإضافة إلي ما تحظي به من أهمية كما أنها مازالت تحتفظ بعناصرها الأصلية وأعني بها مآذن المسجد الجامع بتلمسان، وجامع سـيدي أبـي الحسـن، وجامع ندرومة وجامع المشور،أما المآذن الأخرى فنتعرض لها بإيجاز شديد.

٢ - مئذنة المسجد الجامع بتلمسان:

يعتبر جامع تلمسان أحد روائع الفن والعمارة المرابطية فـي الجزائـر حيـث تداخلت فيه الكثير من مظاهر التأثيرات المغربية والأندلسية كما أنه يعتبـر صـورة مصغرة لجامع قرطبة، إذ اقتبس هذا الجامع نظامه التخطيطي وواجهة القبلة والقبة التي تتقدم المحراب والقبة المشرفة على الصحن، واستخدام العقود بالإضـافة إلـي فكرة المحاريب الثلاثة التي ظهرت بادئ ذي بدء فـي قرطبـة فـي عهـد الحكـم المستنصر. وعلي عنق القبة من الداخل نقش كتابي يتضمن تاريخ الفراغ من أعمال البناء في ٥٣٠هـ/٦ -١١٣٥م أي في عهد علي بن يوسف بينمـا طمـس إسـم المؤسس في النقش وأغلب الظن أن الموحدين هم الذين طمسوه.

ويبلغ طول بيت الصلاة ٤٩,٣٠م وعرضه ٢٥م ويتألف من ١٣ بلاطة تتجـه عموديا على جدار القبلة ويحدها ١٢ صفا من الدعائم المربعة ويفصل بين أسـاكيب بيت الصلاة صف من العقود الموازية لجدار القبلة تقسم بيت الصلاة إلي مجموعتين تحتوى كل واحدة على ثلاثة أساكيب، أما البلاطة الوسطي فأكثر البلاطات اتساعا في المسجد ويسجل ذلك تأثيرا أندلسيا من جامع قرطبة[١].

ولقد تعرض الجامع لإصلاحات في العصر الموحدي، وأضيفت إليه في العصـر الزياني زيادة تضم بنيان المئذنة مما يبين أن الزيادة التي أجريت في الجامع شملت بيت الصلاة حتى الموقع الحالي للمئذنة[٢]. وتقع مئذنة الجامع في منتصف الجـدار

---

[١] MARCAIS (G); L'ARCHIT MUSUL. D'OCCI, P.192.

[٢] MARCAIS (G); "SUR LA GRANDE MOSQUEE DE TLEMCEN' IN. ANNALES DE L'INSTITUT D'ETUDES ORIENTALES. TOME VIII 1949 –1950, P.275.

الشمالي للجامع على محور المحراب نفسه (شكل٨) وهذا يوحي باستمرار توافد التأثيرات الأندلسية في عصر دولة بني زيان، والمئذنة مربعة الشكل تتألف من طابقين، الطابق الأول يزدان في أوجهه الأربعة بزخارف متماثلة، ولذلك فسأقتصر على وصف الواجهة المطلة على الصحن التي يتوسط نصفها العلوي حشوة مستطيلة الشكل تزدان بشبكة من نحور ناتئة منبثقة من أربعة عقود مقرنصة وتمتد النحور وتتقاطع فيما بينها مؤلفة ما يشبه المعينات، وترتكز العقود الأربعة على خمسة أعمدة من الرخام الأبيض، ويعلو الحشوة المذكورة بائكة من خمسة عقود مفصصة قائمة على ستة أعمدة من الرخام الأبيض ويطوق البائكة شريط مستطيل الشكل، ويحيط بالبائكة إفريزان بارزان يرتبطان مع نظائرهما في الواجهات الثلاثة الأخرى من المئذنة، ويكسو هذان الافريزان تربيعات من الزليج، ويتوج هذا الطابق صف من الشرافات المسننة (صورة٧)، أما الطابق الثاني فيتمثل في برج صغير الحجم تزدان كل من أوجهه الأربعة بجوفة معقودة بعقد متجاوز ومتعدد النصوص يشغل طرته المرتفعة شبكة من المعينات المتصلة بداخلها بتوريقات نباتية خضراء اللون براقة تشبه نظيرتها في مئذنة جامع قلعة بني حماد تبقت منها اليوم بقية. (شكل ٩) ويكسو بقية الوجه تربيعات من الزليج خضراء قائمة وبيضاء تزدان بتوريقات، وينتهي الجوسق من أعلي بقبيبة ينبثق من مركزها سفود بارز ركبت فيه تفاحة واحدة، ولكن الرسم الذي قام به الأستاذ بوروبية يخلو من التفاحة المذكورة ويجعل مكانها هلالا بداخله نجمة (شكل٩) غير أننا لم نشهد شيئا من ذلك عند دراستنا الميدانية للمئذنة.

ومن المعروف أن هذه المئذنة بنيت في ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م[١] وهي نفس السنة التي أقيمت فيها مئذنة جامع أغادير بتلمسان، ولذلك فهي وثيقة الصلة بها من حيث

---

[1] BERQUE (A) ;ART ANTIQUE ET ART MUSULMAN EN ELGERIE, CAHIERS CENTENAIRES DE L' ALGERIE, N$^{\underline{o}}$ 6, ALGER 1930, P.166.

طابعها العام وأسلوب بنائها[1].

ويشغل جوف المئذنة دعامة مركزية صماء مربعة الشكل طول كل جانب منها ٢,٨٠م في حين يصل طول كل جانب من جوانب قاعدة المئذنة ٦,٢٠م ويدور في الفراغ ما بين الجدار الخارجي للمئذنة والدعامة المركزية درج عدد درجاته ١٣٠ تصل إليه عن طريق باب من الخشب على يساره غرفة بابها من الخشب ربما كانت مخصصة لحفظ مستلزمات المسجد قد تكون مناما للمؤذن. (شكل ١٠).

ويسقف درجات المئذنة -وكلها متساوية في الطول والارتفاع - قبوات يبلغ عددها في كل طلعة ثلاثة كالشأن في مئذنة قلعة بني حماد (شكل١١) ويتخلل جدار الطلعة الأولي التي تشتمل على ست درجات فتحة على شكل مزغل واسعة من الداخل وضيقة من الخارج، الجدير بالذكر أن الطلعة الأخيرة التي نفضي بعدها إلي سطح الطابق الأول تشتمل على عشر درجات، كما يتخلل جدار المئذنة أيضا فتحات تحتوي على قنوات من الفخار لا نعرف ما إذا كانت مضافة أم أصلية وعند الدورة الرابعة بأعلى المئذنة يقابل الراقي بابا خشبيا يفضي إلي شرفة مستطيلة الشكل ربما كانت تستخدم للآذان أيضا، وعلى جانبيها درجتان وتؤديان إلي سطح مجنبة المسجد.

وتنفتح في جدران المئذنة فتحات مربعة للإضاءة والتهوية، أما المزاغل فمن المحتمل أنها كانت تؤدي دور المراقبة أثناء الحصار المرينى لتلمسان، ويجدر القول أن القبوات المتقاطعة التي تعلو الدرج قد تهاوت بالقرب من سطح الطابق الأول من المئذنة ثم رممت بعوارض من الخشب والحديد لتدعيم جدار المئذنة، أما الدورة الأخيرة في الدرج تؤدى إلي سطح الطابق الأول الذي ينتصب عليه الجوسق أو الطابق العلوي، وعلى يمين الراقي إلي سطح المئذنة غرفة صغيرة مستطيلة الشكل، وقد تكون غرفة المؤذن، ويبلغ ارتفاع المئذنة في أدني الطابق الأول حتى السطح ١٩,٥٠م، أما الطابق الثاني أو الجوسق فتتراجع جدرانه عن جدران الطابق الأول

---

(1) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS ARABES DE TLEMCEN, ALBERT FONTEMOING EDITEUR, PARIS 1903, P.142.

بنحو ١,٦٥ مترًا، وهي مساحة تتيح للمؤذن أو المراقب التحرك بكل حرية وسهولة، ويدور بالسطح جدار ساتر ارتفاعه ٢,٢٠مترا تكلله شرافات ارتفاع الواحدة ٩٠سم.

وفي الجهة الشرقية للجوسق درج يتصل بباب يفضي إلي غرفة مربعة تعلوها قبة، وينبت في أعلي القبة سفود بارز ينتهي بهلال، هذا ويبلغ ارتفاع الطابق الثاني ابتداء من سطح الطابق الأول وحتى أعلى قمة المئذنة ٩,٢٠م وبذلك يصل الارتفاع الكلي للمئذنة إلي ٢٨,٧٠م.

ولا تختلف مواد البناء في هذه المئذنة عن مواد بناء المآذن السابقة، فقد استخدم في بنائها الآجر الأحمر الممزوج بالحجر المدكوك الذي استعمل لتماسك الآجر فيما بينه ثم طلي بالجير، وتداخلت في قوالب الآجر كثير من العوارض الخشبية التي مازالت آثارها قائمة حتى اليوم ولا تختلف هذه الطريقة في مضمونها عن طريقة بناء مئذنة جامع قلعة بني حماد.

وتعتبر هذه المئذنة رائعة الجمال نموذجا حيا لمآذن بني زيان في المغرب الأوسط إذ تندرج بمظهرها الأصيل في عداد المآذن المربعة التقليدية في الشمال الأفريقي، كما أنها لا تختلف إطلاقا في نظامها عن مئذنة جامع أغادير[1].

٣ - مئذنة جامع ندرومة:

المسجد الجامع بندرومة واحد من أهم الآثار التي قام المرابطون بإنشائها في المغرب الأوسط وهو يشبه إلي حد ما المسجد الجامع بالجزائر العاصمة الذي بني في نفس الفترة.

يتألف بيت الصلاة من تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة وثلاث أساكيب، وثلاث بلاطات في كل من مجنبتي الصحن الشرقية والغربية، ويزيد اتساع البلاطة الوسطي عن البلاطات الأخرى، ومن الغريب أن العقد المفصص الذي كان الظاهرة

---

(1) BERQUE (A); L' ALGERIE TERRE D'ART ET D'HISTOIRE, ALGER 1937, P.158.

المميزة لمساجد المرابطين في المغرب الأوسط اختفي تمامًا في جامع ندرومة[١].

وتلتصق المئذنة بالجدار الشرقي للجامع لصق المدخل الرئيسي (شكل١٢)، والمئذنة مربعة الشكل طول ضلعها ٤,٩٠م تتألف شأن مئذنة جامع تلمسان من طابقين، الطابق الأول مربع الشكل ارتفاعه ٢٠,٥٠م بينما يصل ارتفاع الطابق الثاني (الجوسق) إلي ٤,٢٠ مترا وارتفاع المئذنة الكلي يبلغ ٢٤,٧٠م (شكل١٤).

وواجهات الطابق الأول كلها مكسوة بشبكات من المعينات تغطي معظم المسطحات وتتمثل في حشوتين متراكبتين السفلي تنحصر داخل مسطح مستطيل الشكل وقوامها عقدان مفصصان ينبتان من عمود مركزي في الوسط، ويتوسط كل منهما جامة بيضية الشكل، أما الحشوة العليا فتغطي معظم سطح الطابق الأول وقوام زخارفها عقود ثلاثة مقرنصة رؤوسها مدببة تقوم على عمودين مركزيين، وتمتد من رؤوسها نحور تتقاطع فيما بينها مع امتدادها مؤلفة شبكة من المعينات البارزة. ومن الجدير بالذكر أن شبكة المعينات والعقود مقامة من القراميد[٢].

أما الطابق الثاني (الجوسق) فصغير الحجم وجدرانه عاطلة من الزخرفة تعلوه قبيبة ركب فيها سفود خال من الكرات. (صورة٨).

وموقع المئذنة من المسجد يشبه موقع مئذنة جامع سيدي الحلوى من عصر دولة بني مرين، وبداخل المئذنة درج يفضي إلي سطح الطابق الأول يبلغ عدد درجاته ١٠٢ درجة ويدور حول دعامة مركزية مربعة صماء طول ضلعها ١,٢٠م غير مزودة بالغرفة التي تقع إلي يسار المدخل في مئذنة جامع تلمسان، ولكن الجدار في هذا الموضع مبني بالأسمنت الحديث يشير إلي احتمال وجودها في عصر الإنشاء ودثورها بعد ذلك. (شكل١٣).

ويسقف الدرج قبو نصف أسطواني ينحصر بين قبوين متقاطعين في الزوايا على غرار قبوات الدرج في مئذنة جامع قلعة بني حماد وتتخلل الجدران الداخلية

---

[١] MARCAIS (G), L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI. P.192..

[٢] LES MOSQUEES EN ALGERIE ..... P.21.

للمئذنة فتحات كلها على شكل مزاغل.

ودرج السلم مقام من الأجر والخشب، ويبلغ طول كل درجة من درجاته ٨٢سم، ومن الجدير بالذكر أن نظام توزيع الدرجات يتغير بأعلي الدرج في الدورة الأخيرة حيث تنقسم الدعامة المركزية إلي قسمين تخترقها عشر درجات تؤدي إلي جوسق المئذنة، وقبل هذا التشعب تظهر غرفة مستطيلة الشكل على اليسار كما هو الحال في مئذنة جامع تلمسان، وعندما يصل الراقي إلي آخر درجة في الدورة الأخيرة يجد درجات أخرى تفضي إلي غرفة المؤذن وهي غرفة مربعة الشكل تعلوها قبة يوجد في أعلاها سفود بارز.

ويتميز جدار شرفة المئذنة الواقعة بين الطابقين بخلوها من الشرافات، وقد استخدمت في بناء المئذنة نفس مواد البناء التي استخدمت في المآذن السابقة لها، ومن الواضح أن هذه المئذنة تتشابه كثيرا سواء من حيث الشكل العام أو من حيث التفاصيل الداخلية والخارجية مع مئذنة جامع تلمسان.

٤- مئذنة جامع سيدي أبي الحسن:

بني جامع سيدي أبي الحسن فى ٦٩٦هـ/١٢٩٦م في فترة حكم الأمير أبي سعيد عثمان الذي شيده تخليدا لذكري الأمير أبي أمير إبراهيم بن يغمراسن ويؤكد ذلك نقشان كتابيان مثبتان أحدهما في الجدار الغربي من بيت الصلاة، والآخر بطرة عقد المحراب، وأبو الحسن الذي سمي به الجامع (هو أبو الحسن بن يخلف التنسي) أحد العلماء الذين عاشوا في فترة حكم أبي سعيد عثمان.

وتحول الجامع في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر إلي مخزن للخمور، ثم مخزن للعلف، ثم تحول إلي مدرسة عربية فرنسية وأخيرا تحول إلى متحف وهي الوظيفة التي يشغلها حاليا. [1].

---

(١) أبو الحسن بن يخلف التنسي فقيه مشهور أصله من مدينة التنس، أستوطن تلمسان أول حكم أبي سعيد عثمان ورث من المكانة الرفيعة التي احتلها أخوه أبو إسحاق إبراهيم الذائع الصيت في بلاط بني زيان ودرس في الجامع الذي يحمل إسمه الآن. =

وتخطيط الجامع على شكل مربع صغير المساحة لاصحن له يتألف من ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة، الوسطي أكثر اتساعا من البلاطتين الجانبيتين، ويتوسط المحراب الجدار القبلي، وجوفته مضلعة وهو محراب بلغ الغاية في الروعة والجمال يذكرنا بمحراب جامع تلمسان ومحراب جامع قرطبة، ويسجل هذا المحراب عودة إلي المحاريب المرابطية وهو مؤشر لاستمرار التأثيرات الفنية الأندلسية على عمارة وفنون بني زيان.

وينفتح في جدار القبلة باب يؤدي مباشرة إلي سلم المئذنة الملتصقة بالجدار الخارجي للمسجد في الزاوية الجنوبية الشرقية منه (شكل١٥).

ولا تختلف واجهات المئذنة المقابلة للشارع كثيرا في نظامها وفي شكلها العام عن مئذنة المسجد الجامع بتلمسان اللهم إلا في بعض التفاصيل الزخرفية للجوسق العلوي.

والمئذنة مربعة الشكل وتتألف من طابقين الأول منهما تزدان واجهاته بنفس الزخارف التي تزدان بها واجهات المآذن السابقة، وتنقسم زخارف الطابق الأول في كل من أوجهه الأربعة إلي ثلاث قطاعات متراكبة، القطاع الأدنى منها تشغله حشوة يتوسطها عقد متعدد الفصوص غائر رأسه مدببة تحيط به طرة مستطيلة الشكل، ويعلو الحشوة بين القطاعين الأدنى والأوسط فتحتان ضيقتان للإضاءة والتهوية، والقطاع الأوسط وهو أكثر من الأدنى ارتفاعا وتكسوه شبكة من المعينات تنبثق من ثلاثة عقود مقرنصة مدببة الرؤوس قائمة على عمودين تاجاهما كورنثيان، وتتداخل بشبكة المعينات قطع من الفسيفساء خضراء اللون، ويفصل بين هذا القطاع الأوسط والقطاع العلوي إفريز بارز يدور حول أوجه المئذنة الأربعة يزدان بقطع من الفسيفساء يتناوب فيها اللون الأبيض والأخضر ويعلو هذا الإفريز القطاع العلوي الذي تشغله بائكة من ثلاثة عقود مفصصة قائمة على عمودين، وتكسو بواطن

* عن بورويبة (رشيد): الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، ترجمة إبراهيم شبوح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٧٧.

العقود وبنيقاتها قطع من الفسيفساء متعددة الالوان فيها الأخضر والأبيض والأصفر والأسود (صورة٩).

أما الطابق الثاني للمئذنة ويمثله الجوسق العلوي فتتوسطه جوفة مستطيلة الشكل يعلوها عقد مفصص محمول على كابولين جانبيين ويطوق العقد تربيعة مطولة تكسوها زخارف رائعة من الفسيفساء الخزفية ذات قطع هندسية مربعة ومستطيلة، ونجمية الشكل بألوان منها الأخضر والأبيض والأسود والأصفر (صورة١٠) وينطبق هذا الوصف على الواجهات الأربعة للمئذنة، ويعلو ذلك الطابق قبيبة ينبثق من مركزها سفود بارز ركبت فيه تفاحتان وهلال مقوس يتجه طرفاه إلي السماء.

ويتبين مما سبق أن هذه المئذنة ترتبط كثيرا بمئذنة المسجد الجامع بتلمسان.

وتظهر زخارف القطع الفسيفسائية التي تتناوب فيها الألوان بسيطة في تكوينها وأصبحت قاسما مشتركا بين المآذن الزيانية بحيث يمكننا اعتبارها إحدى الخصائص المميزة للمآذن الزيانية[1].

وينفذ الراقي إلي أعلي المئذنة عبر باب من الخشب يؤدي إلي دعامة مركزية مربعة الشكل صماء طول ضلعها ١,٣٥م وعلى يسار الدعامة غرفة فارغة، وعلي يمينها سلم عدد درجاته ٤٣درجة يلتف حول الدعامة المركزية صاعدا نحو قمة المئذنة (شكل١٦).

ويبلغ سعة باب المئذنة ٨٠سم وسمك جدارها ٨٥سم أما طول ضلع القاعدة المربعة للطابق الأول منها فيبلغ ٤,٣٥م. وتتخلل جدران المئذنة منافذ للإضاءة والتهوية، وفي كل طلعة محاذية لجانب من الجوانب الأربعة ثلاث درجات. ويسقف الدرج قبوة نصف أسطوانية تنحصر بين قبوتين متعارضتين في كل طلعة حتى نهاية الطابق الأول من المئذنة، وفي آخر طلعة إلي أعلي المئذنة نشهد غُرفة صغيرة على يمين الراقي كما هو الحال في مئذنة جامع تلمسان.

---

(1) MARCAIS (G.ET.W); LES MONUMENTS ARABES ....P. 183.

وينتهي الدرج عند شرفة المئذنة عبر باب صغير ليقوم الطابق الثاني (الجوسق) الذي يتراجع قليلا عن الطابق الأول للمئذنة ليتيح للموذن التحرك بسهولة حول الجوسق.

ويتوج شرفة المئذنة شرافات مسننة كما هو الحال في مئذنة المسجد الجامع بتلمسان، ويبلغ ارتفاع الشرفة ١,٧٠م، أما الارتفاع الكلي للمئذنة فيصل إلي ١٤,٢٥م (شكل١٧)، ولهذا فهي من المآذن القصيرة ولكنها تتناسب مع تخطيط المسجد وصغر مساحته.

ونلاحظ في هذه المئذنة غياب المزاغل التي حلت محلها فتحات أو منافذ مستطيلة الشكل كما تظهر من الخارج. وكل ما يمكن قوله عن هذه المئذنة أنها لا تختلف كثيرا عن مئذنة جامع تلمسان.

كما أنه طبقت نفس المادة البنائية وطريقة البناء المستخدمة فيها.

٥- مئذنة جامع المشور:

المشور اسم يطلق على مقر إقامة السلطان الزياني يغمراسن بن زيان ومازالت آثاره قائمة إلي الآن وهو يشغل مساحة كبيرة يحيط بها ترتكز عليه أبراج ويشتمل بداخله على قصر السلطان وبعض الدور والملحقات، والمسجد الجامع الذي شهد تغييرات كثيرة على مر العصور، بعضها في العصر التركي والبعض الآخر في فترة الاستعمار الفرنسي حين تحول إلي كنيسة، ثم استرجع مكانته ووظيفته الإسلامية بعد الاستقلال، ولكنه أصبح مهجورا، ولم يبق من عناصره الزيانية سوي مئذنته[١] وقاعدة المئذنة مربعة الشكل تتألف من طابقين، وتبدو جدران الطابق الأول من الخارج منتظمة قائمة دون أي ميل من القاعدة إلي نهايته وتزدان أوجهه الأربعة بنفس الزخارف وقد اقتصرنا في دراستنا على وصف الواجهة الجنوبية فقط التي تكتمل فيها الزخارف، وتتألف من ثلاث حشوات متراكبة السفلي منها تشبه حشوة نظيرتها في مئذنة مسجد تلمسان وأبي الحسن، وهي حشوة غائرة تزينها أشكال

---

[١] MARCAIS (GET W); LES MONUMENTS ....P.314.

هندسية قوامها عقود تكسوها قطع من الفسيفساء الخزفية تؤلف أشكالا متعامدة ومستطيلة ومربعة يحيط بها شريط من الكتابة بالخط النسخي من الصعب قراءته لتآكله وتهاوى قطع منه مع مرور الزمن. ويفصل هذه الحشوة عن الحشوة الثانية ثلاثة أشرطة متتالية من الزليج، وأما الحشوة الثانية فغائرة بعض الشيء وقوام زخارفها عقد مفصص يشبه نظيره. في المئذنتين سالفتي الذكر (تلمسان وأبي الحسن)، وهذا العقد متعدد الفصوص تزدان بواطن فصوصه بقطع رائعة من الفسيفساء الخزفية ذات أشكال هندسية متباينة الألوان، منها خطوط متعرجة سوداء وصفراء على أرضية بيضاء، وأما القطع الخزفية الأخرى فتتلاصق فيما بينها مؤلفة مربعات ومستطيلات ونجوما زرقاء وخضراء وسوداء وبيضاء.

ويحيط بالحشوة إطار من الآجر يطوقه شريط آخر عريض من قطع الفسيفساء الكبيرة نسقت بحيث تكون ما يشبه المعينات المتراكبة بألوان منها الأخضر الفاتح، والأسود، والأزرق، والبني على أرضيه بيضاء.

ويعلو هذه الحشوة إفريز بارز يدور بأوجه المئذنة يتألف من قطع مربعة من الزليج بيضاء وسوداء وخضراء، ويعلو هذا الأفريز حشوة كبيرة مربعة الشكل غائرة قوام زخارفها بائكتان تعلو الواحدة منهما الأخرى (صورة ١١) تزدان بواطن عقودها بمعينات من الفسيفساء الخزفية ذات اللون الأسود والأبيض والأخضر ويعلو الحشوة فراغ عاطل من الزخرفة يليه الشرافات المسننة.

وأما الطابق الثاني فيمثله الجوسق الذي تعلوه القبة التي لم يتبق منها إلا آثارها ثم السفود البارز الذي يخلو من التفاحات (صورة١٢) وهذه الواجهة هي الوحيدة التي تحتفظ بحشواتها الثلاثة وبزخارفها وهذه المئذنة تشبه في بعض حشواتها مئذنة جامع أولاد الإمام التي من الممكن أن تكون قد استلهمت منها هذه الزخارف(١).

يبلغ طول كل جانب من قاعدة المئذنة ٤,٩٥ مترا، ويؤدي مدخل المئذنة إلى

---

(١) MARCAIS (G.ET.W); LES MONUMENTS ARABES ....P. 183.

دعامة مركزية مربعة الشكل طول ضلعها ٢,٠٥م يدور حولها سلم يبلغ عدد درجاته ٨٨درجة، وعلى يسار المدخل غرفة مستطيلة الشكل تشبه نظيرتها في مئذنة جامع قلعة بني حماد، وعلي يمين المدخل ردهة صغيرة على يمينها باب يدخل منــه إلــي المسجد وعلي اليسار درج يدور حول دعامة مركزية صماء (شكل ١٨).

ويتكون السلم من ست درجات في كل طلعة بأحد جوانب المئذنة ماعدا الأولــي التي تبلغ عدد درجاتها ثمان وهي مستخدمة. ويسقف السلم قبوات نصف أسطوانية تنحصر بين قبوتين متقاطعتين، ومن الجدير بالملاحظة قلة عدد الفتحات أو المنافــذ المفتوحة بجدران المئذنة فهي لا تعدو أربعة مزاغل، ويبلغ طول كــل درجــة مــن درجات السلم ٩٠سم وهي شبيهة بدرجات مئذنة جامع قلعة بني حماد مــن حيــث بنائها بآجر ممزوج بالخشب.

وعند الاقتراب من قمة المئذنة يتغير النظام ويصبح كمئذنتي المســجد الجــامع بتلمسان ومسجد أبي الحسن بحيث تنقسم الدعامة المركزية إلي قســمين يخترقهــا السلم فتصبح عشر درجات، وعلى يسار هذه الدرجات غرفــة مســتطيلة صــغيرة، وتفضي آخر درجة بالسلم الداخلي مباشرة إلي غرفة الجوسق وهي مربعة تعلوهــا قبة، ويتوج القبة سفود بارز، وينفتح في الجوسق باب يطل على الشرفة، ويتــوج بدن المئذنة شرافات مسننة ويقدر الارتفاع الكلي للمئذنة بما في ذلك الجوسق ٢٥م (شكل١٩) .

أما من حيث مواد البناء فهي لا تختلف عن المآذن سالفة الذكر باستثناء ثرائها الزخرفي، فهي المئذنة الزيانية الوحيدة التي تحتفظ بهذه الزخارف، والتي سنتعرض إليها بشيء من التفصيل في الفصل الذي أفردناه لدراسة زخارف المآذن في المغرب الأوسط.

٦- مآذن زيانية أخرى:

بالإضافة إلي ما ذكرناه هناك مآذن أخرى زيانية الأصل ولكنها فقــدت قيمتهــا الأثرية بسبب دثور الكثير من عناصرها الأصلية منها على ســبيل المثــال مئذنــة

المسجد الجامع بالجزائر العاصمة الذي يرجع إنشاؤه إلي عصر المـــرابطين والـــذي أقيمت له مئذنة زيانية في ٧٢٢هــ /١٣٢٢م بأمر من أبي تاشفين سلطان تلمســـان كما يشير إلي ذلك نقش كتابي تتضمنه لوحة مثبتة علي مدخل المئذنة، ولكن المئذنة تعرضت لتغييرات كثيرة أفقدتها قيمتها الأثرية[١]. ويبلغ ارتفاع المئذنة ١٥م وتزدان بأعلى الشرفة بأربع وعشرين شرافة، ويذكر (كلان) أنها أضيفت إليهـــا فـــي ســـنة ١٨٥٦م القطع الخزفية الزرقاء اللون التي تزينها اليوم[٢]. (صورة١٣).

أما المئذنة الأخرى فهي مئذنة جامع أغادير الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عصر الأدارسة، فقد بناه إدريس بن عبد الله بن الحسن في أغادير، ومازالت أغادير تحتفظ بهذا الاسم، ولقد تهدم جامع الادارسة، ولم يبق منه اليوم إلا بقايا بعـــض الأعمـــدة وبيت الصلاة بالإضافة إلي المحراب. أما المئذنة (صورة ١٤) فما تزال إلي اليـــوم، وتقع في موضع استراتيجي هام للراقي إلي قمتها رؤية كل ما في المدينة مما يـــدل على أن هذه المئذنة استعملت برجا للمراقبة في الأوقات المضـــطربة[٣]. والمئذنـــة مربعة القاعدة طول كل جانب منها ٥,٦٠م ارتفاعها حوالي ٣٠م، وهي لا تختلـــف في مضمونها عن مآذن المسجد الجامع بتلمسان وجامع سيدي أبي مدين وســـيدي الحلوى كما سنري فيما بعد من حيث وقوعها في الجانب الشمالي من الجامع، أمـــا بدنها فيزدان بشبكة من زخارف الآجر تعلوه عقدين متعددي الفصوص، ويتخلل هذا البدن نوافذ ضيقة لإضاءة السلم الداخلي. [٤].

والجامع الآخر الذي يدخل في نطاق مساجد بني زيان هو جامع سيدي إبراهيم الذي بناه أبو حمو موسي الثاني وكان يضم ضريحا وزاوية ومدرسة، وكان يطلـــق عليه قديما إسم المدرسة اليعقوبية، ولكن إسم المسجد والضريح فقد نسب إلي رجل

---

[١] MARCAIS (G); L'.ARCHIT. MUSUL. D'OCCI. P.273.

[٢] KLEIN(H); FEUILLETS D'EL DJEZAIR. L. CHAIX. EDITEUR, ALGER 1937, P.152..

[٣] BEL (A); "FOUILLES FAITES SUR L'EMPLACEMENT D'AGHADIR, L'ANCIENNE MOSQUEE' , TLEMCEN. IN. REV-AFR 1913,P. 34.

[٤] MARCAIS (G ET. W), LES MONUMENTS .... P. 138.

صالح يدعي سيدي إبراهيم المصمودي[1]. وتقع المئذنة (صورة١٥) في الركن الشمالي الغربي من بيت الصلاة وتبرز عن سمك جدار المسجد في الجهة الغربية، وهي مئذنة متوسطة الارتفاع تزدان واجهاتها الأربعة بحشوة تشغلها شبكة من المعينات تنبثق من ثلاثة عقود، وتكسو البائكة العليا في بدنها قطع براقة من الخزف، وتنتهي الشرفة بشرافات مسننة، أما الجوسق فيخلو من أية زخارف. [2].

وآخر المآذن الزيانية الأصل مئذنة جامع أولاد الإمام الذي بناه السلطان أبو حمو الأول كملحق للمدرسة القديمة التي كان يدرس فيها أخوان هما إبنا إمام مدينة (برقش) بالقرب من تنس، ولقد إمتاز الأخوان بعلمهما إلي أن أصبحا كاتبين لسلاطين بني زيان، وحظيا بمحبة السلطان أبى حمو الأول ورعايته، ومن هنا أطلق اسم أولاد الإمام على الجامع الملحق بالمدرسة[3]، ويبلغ ارتفاع المئذنة (صورة١٦) حوالي ١٧م وتزدان أوجهها الأربعة بزخارف متماثلة وتقترب إلي حد ما من مئذنة جامع سيدي أبي الحسن ومئذنة جامع المشور بحيث تتكون من حشوتين غائرتين تعلو الواحدة الأخرى يحيط بها شريط من القطع الخزفية الخضراء والبيضاء والبنية اللون. [4].

ويتبين من هذه النظرة العامة على مآذن بني زيان أنها تمتاز جميعا بوحدة في جوهر البناء أي في النظام الداخلي لها مع بعض الاختلافات البسيطة كفتحات الإضاءة أو اختلاف في المقاييس والنسب وفقا لكبر مساحة الجامع أو صغرها، أما من حيث الطابع العام الخارجي، فعلي الرغم من تشابهها فيما بينها في طريقة وضع الزخارف إلا أنها تختلف فيما بينها في التفاصيل كما هو الحال في مئذنة جامع سيدي أبي الحسن ومئذنة جامع المشور ومئذنة جامع أولاد الإمام، وقد عرف هذا العصر استعمال القطع الخزفية متعددة الألوان في واجهات المآذن كما في جوسقها، وكان

---

(١) BOUROUIBA ®; L'ART RELIG ....P. 17.

(٢) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS ..... P.306.

(٣) IBID, P. 185.

(٤) BERQUE (A); L'ALGERIE TERRE D'ART ....P.181.

لهذه الظاهرة صدى كبيرًا في مآذن بني مرين في الفصل اللاحق والتي بلغت ذروتها وتقدمها ويتمثل ذلك في مئذنة جامع سيدي أبي مدين التي تأثرت تأثرا واضحا بمآذن بني زيان.

أما مئذنة جامع المنصورة فهي غريبة في عمارتها ووحيدة في هيئتها بين مآذن المغرب الأوسط، هذا ويمكن الاستدلال في النهاية على أن بني زيان لم يبتكروا أسلوبا جديدا في بناء المآذن وأن المئذنة في عصرهم لم تتخذ الأسلوب الذي ساد في عهد الموحدين التي تتميز مآذنهم باشتمالها على دعامة مركزية مفرغة بداخلها غرف متراكبة ومنحدر صاعد، غير أن الزيانيين تفادوا هذا النظام وأقاموا مآذنهم على غرار مئذنة جامع قلعة بني حماد التي أعطت الصورة الحقيقية لمآذن المغرب الأوسط والمكونة من دعامة مركزية صماء يدور حولها سلم صاعد إلي الجوسق، وماعدا هذه الظاهرة فيمكن القول أن الزيانيين استوحوا تقاليد الموحدين الفنية وأضافوا إليها بعض الأساليب الزخرفية الجديدة، وبهذا تكون مآذن بني زيان قد جمعت بين تأثير معماري حمادي وتأثير فني موحدي.

الفصل الثالث

المئذنة في عهد بني مرين

تمهيد

1) الطابع العام للمئذنة في عهد بني مرين.
2) مئذنة جامع المنصورة بتلمسان.
3) مئذنة جامع سيدي أبي مدين.

تمهيد:

بعد سقوط دولة الموحدين قامت في المغرب الإسلامي ثلاث دويلات: الحفصية في تونس، والزيانية في الجزائر (تلمسان) والمرينية في المغرب (فاس)، ومنذ ذلك الحين بدأ المرينيون يشنون الغارات علي أراضي الدولة الزيانية لاسيما علي تلمسان.

ويروي عبد الرحمن بن خلدون أن أبا يعقوب أغتنم فرصة خروج السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن من عاصمته تلمسان لتأديب بعض القبائل التي ساعدت المرينين في حصارهم السابق لتلمسان فأغار للمرة الخامسة عليها[1]. وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلي أنه سبقت هذا العدوان اعتداءات أخري لبني مرين وغارات انتهت بالفشل إلا أن هذه المحاولة وضعت حدا للصمود الزياني، فقد تمكنت القوات المرينية من الوصول إلي تلمسان في شعبان في سنة ٦٩٨ هـ / مايو ١٢٩٩م وانتهي الأمر باستيلائهم عليها[2].

ولا نشك في أن هذه المحاولات اقترنت ببعض الإنشاءات والعمائر يذكر صاحب كتاب روض القرطاس أن السلطان أبا يعقوب بمجرد استيلائه علي تلمسان شرع في بناء قصره، ثم مسجد جامع، وأمر الناس بالبناء فانتشر البنيان يمينا وشمالا، ثم أنه أقام سورا يحيط بالجامع كما أمر بتسوير تلمسان الجديدة (المنصورة)[3].

ولعل ما أقامه المرينيون من منشآت يعتبر بحق إنجازا كبيرًا وآية من آيات فن العمارة الإسلامية المغربية، وللأسف فقدت مدينة المنصورة حاضرة المرينين المؤقتة في المغرب الأوسط كثيرا من معالمها الأثرية، وكانت بمثابة القاعدة العسكرية لجيوش أبي يعقوب، عاشت فترة رقي وازدهار دامت ثماني سنوات نافست خلالها الحواضر المغربية.

---

(1) ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨ ، ص١٩٥.

(2) نفسه، ص ١٩٥.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، نورنبرج ١٨٤٣، ص ٣٦٧.

ومن الجدير بالذكر أن إنشاء مدينة المنصورة لم يتم عفوا أو من قبيل الصدفة، أو كان ثمرة ارتقاء حضاري مفاجيء وإنما تحكمت فيه عوامل هامة نذكر منها: حصار المرينيين الطويل بعد أربع حملات باءت جميعها بالفشل مما أدي بهم إلي فرض حصار طويل دام ثماني سنوات منعها من كل تمويل خارجي وذلك ببناء معسكر يضم الجيوش المرينية، وساعد علي بناء المدينة المناخ القاري للمنطقة مما دعا القوات الغازية إلي إنشاء هذه المدينة وتعميرها، يضاف إلي ذلك الموقع الجغرافي الهام الذي تنعم به المنصورة وقربه من فاس عاصمة المرينيين ليؤمن خط الرجعة، زد علي ذلك موقع تلمسان الاستراتيجي وسط شبكة من الطرق التجارية العظمي التي أتاحت لها الفرصة أن تشهد حركة اقتصادية نشطة، كل ذلك شجع سلاطين بني مرين علي إنشائها.

ولقد تبقي من آثار بني مرين في المنصورة بقايا مسجدهم الجامع بمئذنته الشامخة الصامدة إلي الآن والفريدة من نوعها بين مآذن المغرب الأوسط. ومعلوم أن المسجد الجامع قطب الفن الإسلامي ومحور ارتكازه، فيه تركزت عبقرية الفنان المسلم وإبداعه، وفيه تمثلت براعته وملكاته، ولهذا فإن مآذن بني مرين في المغرب الأوسط تعبر بروائعها عن مرحلة فنية متقدمة شهدها الفن الجزائري في العصر الإسلامي.

١ - الطابع العام للمئذنة في عهد بني مرين:

شهدت المئذنة في عصر بني مرين تطورا مذهلا في جميع عناصرها المعمارية سواء من حيث الطابع العام أو النظام الداخلي كما تمثله مئذنة جامع المنصورة، فالمئذنة المرينية ممثلة في جامعي سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي تميزت بطراز تقليدي، فهاتان المئذنتان من حيث البناء المعماري والزخرفي تذكرنا بمآذن بني زيان فكلتاهما تنتصب في الزاوية الغربية من الجامع، كما أن مئذنة جامع سيدي الحلوي تبرز عن جدار المسجد(١).

---

(1) BOUROUIBA (A); L'ART RELIG ...P.272.

ومن حيث النظام الداخلي تتكون كلتاهما من دعامة مركزية مربعة صماء يدور حولها سلم صاعد إلي أعلي المئذنة، وتزدان واجهات المئذنة بحشوات تتخللها تشبيكات زخرفية بالآجر بارزة بالإضافة إلي بعض الزخارف الزهرية علي أرضية من الفسيفساء الخزفية التي تحلي أعلي المئذنة والجوسق(١).

أما مئذنة جامع المنصورة فمربعة الشكل القائمة إلي الآن بلونها الآجري الأحمر والتي ضاع جزء من قمتها تختلف تمام الاختلاف عن سابقتيها(٢) فهي المئذنة الوحيدة في الجزائر التي تحتوي علي دعامة مركزية جوفاء، يرتقي الراقون إلي أعلاها عن طريق ممر صاعد منحدر يدور حولها، ويشغل الدعامة غرف متراكبة مربعة الشكل طول كل جانب منها ٢،٤٨م وسمك الجدار ١،٠٠٦م، ويتمثل أقدم أمثلة الممرات الصاعدة في العمارة المغربية في منار سوسة، غير أن مئذنة جامع المنصورة جاءت تقليدا للنظام الداخلي لمآذن الموحدين الثلاثة بجامع الكتبية وجامع حسان بالرباط وجامع اشبيلية. ويسقف الطريق الصاعد قبوات نصف أسطوانية ومتقاطعة(٣).

يضيء السلم من الداخل فتحات عريضة علي الواجهات الأربع وفي نهاية الدورة السابعة والأخيرة توجد مساحة واسعة عبارة عن قاعة ذات جدران منحوتة علي شكل بوائك تتألف من عشرين عقدا تتماثل مع البوائك الصماء التي تزين واجهات المئذنة من الخارج، ويربط بين هذا الطابق والسطح درج يرتفع وسط الدعامة المركزية التي تحمل الجوسق كما هو الحال في مئذنة جامع الكتبية بمراكش(٤).

وتقوم المئذنة بأعلى الباب الرئيسي للمسجد وهي في ذلك تنفرد بهذا الموقع

---

(1) LES MOSQUEES EN ALGERIE …P.37.

(2) L'ALGERIE AUX CENT VISAGES. ARTS ET METIERS GRAPHIQUES, PARIS 1955, P. 48.

(3) BOUROUIBA ®; ARRORTS DE L'ALGERIE A LACHITECTURE RELIGIEUSE ARABO. ISLAMIQUE OPU ALGER 1986, P. 285.

(4) MARCAIS (G); L'ARCHI MUSUL D'OCCI, P. 275.

بين مآذن المساجد المرينية،ويتميز القسم العلوي من واجهاتها بأنه أقيم بنفس نظام مآذن جامع قرطبة وجامع اشبيلية وجامع الكتبية بمراكش، وكـذلك معظـم مـآذن المغرب الإسلامي(١).

وتزدان واجهات المئذنة بحشوات ذات تشبيكات من الآجر تحلي أرضيتها قطـع من الفسيفساء الخزفية البراقة، وقد وفق البناءون في اتخاذ اللون البنـي للأحجـار التي أقيمت منها المئذنة حلية زخرفية تتناسق مع الترصيعات الخزفيـة الخضـراء والبيضاء والبنفسجية، مع تنوع العناصر الزخرفية التي جعلت من هذه المئذنة أجمل المآذن الجزائرية من حيث الزخرفة ومتانة البناء وصلابته، ولعـل طريقـة توزيـع زخارفها علي الواجهات تذكرنا بتوزيعات الشـبكات الزخرفيـة بمئذنـة الخيرالـدا باشبيلية(٢).

٢ - مئذنة جامع المنصورة بتلمسان:

تتميز مئذنة جامع المنصورة بتلمسان بخاصية فريدة من نوعها بـين المـآذن المغربية إذ تنتصب فوق المدخل الرئيسي للجامع بحيث يصبح المدخل نفسه جـزءا منها ويجدر بنا لذلك السبب أن نبدأ بوصف الجامع قبل الخوض في دراستنا للمئذنة.

يقع الجامع علي هضبة صلبة من الصخور الكلسية غير بعيد عن السور بحيث لا يبعد عن الباب الغربي لهذا السور إلا ببضعة مئات من الأمتار(٣) وموقعه في هذا الموضع بعيد عن الجهة الشرقية لم يتم بمحض الصدفة وإنما كان مقصودا إذ أنه لو وقع بالقرب من الأسوار الشرقية أو الجنوبية فإنه يكون معرضـا لخطـر العـدوان الزياني عليه، وقد تصيب جدرانه ببعض قذائف المناجيق. وقد أحيط هـذا الجـامع بسور خارجي لأهميته بخلاف السور الخارجي المحيط بالمدينة، ولكن لم يبق منـه اليوم سوي الجدران الخارجية من العمارة الداخلية للجامع، فلقد ترتب علي الحفريات

---

(1) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS ... P. 220.

(2) BERQUE (A); L'ALGERIE TERRE D'ART ...P. 189.

(3) IBID, P. 185.

التي أجريت في موقع الجامع قبل سنة ١٨٥٩م[1]، ثـم الحفريـات التـي أجراهـا (ألكسندر ليزين) سنة ١٩٦٤م الكشف عن الجامع. يتوسط الجـامع صـحن مربـع الشكل طول ضلعه ٣٠م[2] تحيط به المجنبات من الجوانب الثلاثة الشرقية والغربيـة والشمالية بالإضافة إلي رواق القبلة الذي يتكون من ثلاث عشرة بلاطة تتقدمها ثلاثة أساكيب مستعرضة تترك مساحة مربعة أمام المحـراب، ويـري الأسـتاذ (جـورج مارسيه) أنها كانت تشكل قاعدة لحمل القبة التي تتقدم المحـراب أو ربمـا لسـقف هرمي الشكل يرتكز علي جدران القبلة، ويضاف إلي هذه الأساكيب العريضة ثمـان دعامات متقاطعة الشكل ربما كانت مخصصة للمقصورة التـي كانـت تشـغل هـذه المساحة[3].

ويرجع عالم الآثار الجزائري الأستاذ رشيد بورويبة السقف الهرمي بـدلا مـن القبة استنادا إلي حقائق منها أن طول كل جانب من جوانب القاعـدة المربـع ١٤م تشكل فراغا كبير المساحة لا يمكن أن تعلوه قبة لكبره[4].

وتنقسم الثلاث عشرة بلاطة إلي ستة أساكيب محددة بخمسـة صـفوف مـن الأعمدة كما يلاحظ أن البلاطة الوسطي أكثر اتساعا من البلاطات الاخري.

ويعلو واجهة المدخل شريط من الكتابة التأسيسية نطالع فيه العبـارة الآتيـة: "الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هـذا الجـامع المبـارك أميـر المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين المقدس المرحوم أبو يعقوب يوسـف بـن عبد الحق رحمه الله"

والمتأمل لهذا النقش التأسيسي يستنتج لأول وهلة أن الجامع لم يكتمل بناؤه في عهد أبي يعقوب نتيجة لورود لفظ المرحوم، وهذا يدل عي أن السلطان وافته المنية

---

(1) BROSSELARD (M.C) ; 'LES INSCRIPTIONS ARABES DE TLEMCEN MANSOURA. In. REV-AFR 3^{e} ANNEE, N^{o} 17,JUIN 1859, P.334.

(2) MARCAIS(G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI…P. 274.

(3) IBID, P.274.

(4) BOUROUIBA®; L'ART RELIG ….P. 377.

قبل الفراغ النهائي من تأسيس الجامع والمئذنة علي وجه الخصوص، وهذا استدلال قريب من المنطق خاصة إذا علمنا أن رغبته في بناء مسجد جامع عظيم كجامع المنصورة لينافس به المسجد الجامع بتلمسان الذي كثيرا ما تفاخر به سلاطين بني زيان، يجعلنا نستبعد بناء جامع المنصورة الضخم في سنتين أو ثلاث، وما يؤكد هذا الاستدلال ابن مرزوق التلمساني في سياق حديثه الذي يقارن فيه بين جامع أبي يعقوب وجامعي قرطبة وجامع المنصور بمراكش: " لو أن جامع المنصورة أكمل بناؤه وزخرفته لما قل عظمة وروعة عن الجامعين المذكورين "(١).

هذا الرأي يخالف رأي علماء الآثار الإسلامية أمثال (بارك) الذي اعتبر سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م تاريخ الفراغ من تأسيس الجامع(٢)، ولنا أن نتساءل عن السبب في ورود لفظ المرحوم في النقش الكتابي التأسيسي علي الرغم من أن المصادر تشير إلي أن المئذنة تم بناؤها في عهد أبي يعقوب، وعما إذا كانت قد هدمت في جملة ما هدمَ من منشآت المدينة في أعقاب انسحاب المرينيين عنها، ثم أعاد السلطان أبو الحسن ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م بناءها ثانية. ونعتقد أن النواة الأساسية لبناء الجامع والمئذنة تمت علي يدي السلطان المريني أبي يعقوب ثم تولي أبو الحسن ترميم ما تهدم منهما وقت حصاره لتلمسان واستكمل البناء وزخرفته وقد نفذ النقش الكتابي في فترة حكم السلطان أبي الحسن عند حصاره لتلمسان، ونسب هذا العمل إلي جده اعترافا بفضل السبق في تأسيسه للجامع والمئذنة وعلي هذا النحو حظي هذا الجامع بتأسيس أبي يعقوب وترميمات أبي الحسن لها وهي من عمارته، وهو لذلك يعد آية من آيات فن العمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي حتى أن ابنَ مرزوق وصفه بقوله: " وأما الجامع الكبير فقد اتفق الرحالون وأجمع المتجولون علي أنهم لم يروا له ثانية"(٣).

---

(١) ابن مرزوق (محمد التلمساني): المسند الصحيح في مآثر المولي أبي الحسن، تصحيح الأستاذ ليفي بروفنسال، اميل لاروز، باريس ١٩٢٥ ، ص ١٧.

(٢) BERQUE (A); L'ALGERIE TERRE D'ART....P. 185.

(٣) ابن مرزوق: المسند، ص ١٧.

وأما عن مئذنة الجامع فهي أعلي مئذنة في الجزائر وثالث مئذنة في المغرب الإسلامي بعد كل من مئذنتي جامع حسان بالرباط، وتتكون المئذنة من قاعدة مربعة طول كل جانب منها عشرة أمتار، وتنتصب في منتصف الجدار الشمالي للجامع علي نفس محور المحراب (شكل ٢٠) وتبرز كلها عن مستوي هذا الجدار (صورة ١٧).

ويتم الدخول إلي المئذنة عن طريق باب يعلوه عقد متجاوز لنصف الدائرة يرتكز علي عمودين من الرخام تاجاهما مركبان (صورة ١٨) وتنقسم واجهة المئذنة إلي خمس حشوات متراكبة ويعلو هذا العقد عقد بارز متعدد الفصوص تتناوب فيه فصوص كبيرة وأخري صغيرة، يرتكز بدوره علي عضادتين ويطوقه زخرفة هندسية قوامها أقواس متقاطعة تتخللها دوائر مفرغة كل فص منه يشتمل علي ثلاثة فصوص صغيرة مرصعة بقطع من الفسيفساء الخزفية السوداء اللون ذات أشكال بيضية، ويحيط بالعقد تربيعة تمتد إلي المستوي الأدني للعضادات ويشغل البنيقتان وخواصر العقد زخارف نباتية محفورة في الحجر متداخلة فيما بينها قوامها مراوح نخيلية بسيطة وبراعم نباتية، وتبرز في كل من البنيقتين محارة بارزة ومفصصة تذكرنا بمحارات القلعة وربما تأثرت بها، ويدور بهذه الحشوة الزخرفية التي تعلو مدخل المئذنة شريط عريض من الكتابة النسخية علي أرضية نباتية تنتهي حروفها بمراوح نباتية (صورة ١٩). أما الحشوة الثانية فتتألف من بائكة من سبعة عقود مقرنصة صغيرة وكبيرة علي التناوب ترتكز علي عمد صغيرة، وتبدو هذه البائكة بارزة عن سمت وجه المئذنة، ومن الجدير بالذكر أن هذه العقود المقرنصة ظهرت لاول مرة في زخارف المآذن الجزائرية، ويلي هذه البائكة طاقتان واحدة في كل جانب ينحصر بينهما إفريز بارز يرتكز علي البائكة البارزة علي جانبيه كابولان وصل الينا أحدهما. ويعتبر جورج مارسيه هذا النصف البارز من العقود والكابولين قاعدة لشرفة المئذنة[1] (صورة ٢٠) بينما ينكر الأستاذ بورويبة ذلك ويري أنه مجرد إفريز زخرفي تابع للحشوة الأولي ويستند في قوله هذا علي وجود مثل هذا النوع من الزخرفة في جوامع مرينية أخري معاصرة كمسجد سيدي أبي مدين

([1]) MARCAIS (G ET W) LES MONUMENIS ....P. 218.

وسيدي الحلوي بتلمسان والمدرسة البوعنانية وفندق القصر بسلا بالمغرب[1]، وأميل إلي ترجيح هذا الرأي استنادًا إلي أن الفتحة التي تتوسط الحشوة الثالثة بأعلى الشرفة المزعومة لا تصل إلي مستوي البائكة البارزة مما يؤكد أنها مجرد نافذة لإدخال الضوء.

أما الحشوة الثالثة فتتألف من الفتحة المذكورة وهي فتحة مربعة الشكل معقودة بعقد مقرنص منكسر تحيط به تربيعة، ويطوق هذه المجموعة عقد بارز مقرنص منكسر كبير الحجم، وتنتهي الحشوة من أعلي بطاقتين مستطيلتي الشكل يعلو واحدة في كل جانب (صورة ٢٠) أما الحشوة الرابعة فتشكل أجمل وأروع ما تزدان به المئذنة وهي أكثر الحشوات ارتفاعا وتقسم إلي ثلاثة قطاعات رأسية، القطاعان الجانبيان منها متناظران، ولهذا نقتصر علي وصف جانب واحد فقط.

يتكون من عقد متعدد الفصوص تتناوب فيه الفصوص المستديرة مع فصوص مدببة، يرتكز العقد علي عمودين لا وجود لهما حاليا، ويعلو هذا العقد شبكة من المعينات، قوامها نحور متقاطعة تتألف من فصوص مماثلة لفصوص العقد وكلها من الآجر رصعت بقطع الفسيفساء الخزفية (خضراء وخضراء فاتحة وسوداء اللون)، ويتوسط القطاعين المتناظرين قطاع أوسط يتألف من نافذتين متراكبتين مستطيلتي الشكل معقودتين بعقدين نصف دائريين تطوق كل منهما تربيعة، ويعلو هذا القطاع معينات تتصل بالشبكتين سالفتي الذكر. ويعلو هذه الحشوة الرابعة حشوة خامسة قوامها بائكة من خمسة عقود مفصصة ترتكز علي ٦ أعمدة من الرخام الأبيض لم يتبق منها إلا أربعة، وفي وسط كل عقد فتحة مربعة الشكل صغيرة ماعدا الفتحة الوسطي فهي طاقة مستطيلة الشكل كبيرة الحجم، وينتهي هذا الطابق من المئذنة بمسطح عاطل من الزخرفة تليه قمة المئذنة التي لم يتبق منها أي أثر (صورة ٢١) ومن الجدير بالذكر أن جوف المئذنة وصل إلينا مهدما بما في ذلك الطريق الصاعد المؤدي إلي أعلي المئذنة، وكذلك بعض أجزاء من الواجهتين الجانبيتين اللتين أقيمتا متماثلتين، ولهذا سنكتفي بوصف أحداهما، تتكون الواجهة الجانبية من أربع حشوات

---

(1) BOUROUIBA ®; L'ART RELIG ....P. 180.

تزدان الأولي بجوفتين موزعتين واحدة في كل جانب، الطاقة الشمالية غائرة، تفتح أسفلها طاقة مستطيلة الشكل وعقد أعلاها بعقد متعدد الفصوص ويعلو هذا العقد شبكة من المعينات المتشابكة، أما الطاقة الجنوبية في الحشوة الأولي فصماء وهذه الجوفة معقودة بعقد منكسر، ويتوسط الجوفتين علي مستوي أكثر ارتفاعا جوفة أخري معقودة بعقد نصف دائري، ويعلو العقد إطار بقيت فيه بعض الزخارف الهندسية تمثل خطوطا وأشكال معينات وفصوص.

أما الحشوة الثانية في الواجهة الجانبية فتتألف من مربع غائر ينحصر بين إفريزين بارزين ينتهي أعلاه بدخلتين مربعتي الشكل وتزدان هذه الحشوة بعقد منكسر متدرج يضم عقدين مقرنصين.

ومن الجدير بالملاحظة أن جدار المئذنة يتراجع ويضيق محيطه كلما ارتفعت. أما الحشوة الثالثة فتتألف من عقد مقرنص ينبثق من مفتاحه نحران يمتدان وتتقاطع معهما نحور أخري مؤلفة شبكة من المعينات رصعت أرضيتها بقطع الفسيفساء الخضراء والسوداء اللون، أما القسم المجاور لها فيتكون من حنيتين مصمتتين واحدة فوق الأخري. أما الحشوة الرابعة وهي أصغر الحشوات حجما فتزدان بثلاثة عقود مفصصة تقوم علي أربعة عمد تبقي منهما عمودان فقط (صورة ٢٢).

ويبدو من خلال الوصف السابق أن الواجهة الرئيسية لمئذنة جامع المنصورة مستوحاة من مئذنة جامع حسان بالرباط. وللدخول إلي جوف المئذنة، نمر من الباب الذي يتوسط الواجهة الرئيسية ويؤدي إلي ردهة مستطيلة الشكل مبلطة بالآجر علي جانبيها غرفتان اليمني مستطيلة الشكل ومغلقة ويعلوها بقايا عقد، ويعتقد ليزين أنها كانت مخصصة لحفظ أثاث المئذنة[1]. أما الغرفة اليسري فبقيت فيها آثار قبوة متقاطعة (شكل ٢١)، وكان يدور بالدعامة المركزية التي كانت تتوسط جوف المئذنة طريق صاعد يماثل نظيره في مآذن الموحدين ويؤدي إلي القمة بقيت آثار منه حتى

---

(1) LEZINE (A); "NOTES D'ARCHEOLOGIE TLEMCENIENNE" IN. B.A.A. TOME 1, 1962-1965, EDITIONS.EDE BOCCARD, PARIS 1967, P. 268.

اليوم (صورة ٢٣).

ويرى ليزين بأن أقدم مثال لاستعمال الطريق الصاعد في أبراج ومآذن المغرب الإسلامي يتمثل في منار سوسة(١). ومن خلال آثاره المتبقية في أدني جوف مئذنة المنصورة يتبين أن سعته تبلغ ١،٣٣مترا وأنه كان مسقوفا بقبوات نصف أسطوانية تتحول في أركان المئذنة إلي قبوات متقاطعة. ويذكر ابن مرزوق بأنه صعد إلي أعلي المئذنة علي بغلته ويعبر عن ذلك بقوله: "صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر وهو علي فرسه وأنا علي بغلتي من أسفلها إلي أعلاها وكانا في وطأ من الأرض، ولها مجريان يطلع فيهما إلي أعلاها وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار"(٢).

ولعل القارئ لوصف ابن مرزوق يتبادر إلي ذهنه أن للمئذنة طريقين صاعدين أو مجريين علي حد قوله، ولكن المقصود بذلك أن الطريق الصاعد عريض يتسع لشخصين راكبين مما يدل علي اتساعه.

ويرى مارسيه أن الوصول إلي القمة كان يتم بواسطة طريق صاعد أو منحدر يدور سبع دورات حتى شرفة المئذنة[3]، وتتخلل الجدران الداخلية للمئذنة فتحات للإضاءة والتهوية (شكل ٢٢). وتتميز المئذنة بطرازها الفريد بالنسبة لمآذن المغرب الأوسط إذ تشتمل علي دعامة مركزية جوفاء، وهي بذلك تنفرد دون هذه المآذن بتلك الخاصية، ولا نشك في وجود غرف للحراسة بالمئذنة بدليل أنه ينفتح في جدرانها منافذ عديدة منها ما يتخذ شكل مزاغل ومنها ما يتخذ شكل طاقات مستطيلة ومربعة خصصت جميعها للإضاءة والتهوية والمراقبة في آن واحد.

هذا وقد اندثر جوسق المئذنة أو طابقها العلوي الذي ينتهي بالتفافيح المركبة في العمود الحديدي، وقد شاهده ابن مرزوق أثناء صعوده فيذكر أنه رأي "العمود

([1]) IBID, P. 268.

(٢) ابن مرزوق: المسند، ص ١٧.

([3]) MARCAIS (G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI, P. 274.

الذي تركب فيه التفافيح وهو من حديد"[1] وأما صاحب روض القرطاس فيضيف بعض التفاصيل فذكر أن أبا يعقوب يوسف "بني به منارا عظيما وجعل علي رأسه تفافيحا من الذهب بسبع مائة دينارا ذهبا[2]".

ونستنتج من الوصفين سالفي الذكر أن المئذنة كانت تنتهي من أعلي بجوسق تعلوه قبة يخرج منها سفود بارز ركبت فيه ثلاث تفاحات وربما كان يتوجها هلال، وانطلاقا من الوصفين السابقين يمكننا إعادة التصور لمخطط الجوسق، وأغلب الظن أنه كان يزدان في واجهاته الأربعة بقطع من الفسيفساء الخزفية علي غرار جوسق مئذنة جامع سيدي أبي مدين، وقد اعتمدنا في تصورنا للجوسق وجود بقايا آثار شرافتين في قمة واجهة المئذنة واحدة في كل من زاويتها اليمني و اليسري مما يدعونا إلي الاعتقاد بانه كان يتوجها أربع شرافات واحدة في كل زاوية، وقد يكون الجدار العلوي مكللا كله بشرافات اندثرت ولم يبق إلا آثارها في الزوايا (شكل ٢٣) وفي تصوري أن ارتفاع المئذنة بطابقيها وقبتها كان يبلغ ما يقرب من ٤٥م.

وقد أقيمت المئذنة بكتل منتظمة من الحجر المنحوت وردي اللون ونقشت الزخارف بالآجر وبعضها نقش في الحجر، كما استعمل الحجر المدكوك في بناء المئذنة، ولاحظنا أيضا مزج بعض الألواح الخشبية والحديد لتدعيم المبني.

ومن خلال دراستنا لهذه المئذنة تتبادر إلي الذهن عدة حقائق منها سمك جدار المئذنة ويبلغ ١،٥٠م، وعلوها الشاهق وقدرناه ب٤٥ مترا وبناؤها المتناسق مما يوحي بأنها لم تكن مجرد مئذنة، وإنما كانت تقوم أيضا بمهمة المراقبة.

هذا ويجدر بنا القول أن الطريق الصاعد إلي أعلي المئذنة ظهر لأول مرة في العراق في القرن الثالث الهجري، ويتمثل في مئذنتي جامع سامراء وجامع أبي دلف، ولكن الطريق الصاعد في هاتين المئذنتين خارجي وليس داخلي، وتسجل المآذن الموحدية أول ظهور له في الداخل في العالم الإسلامي ربما تقليدا للطريق الصاعد

---

(١) ابن مرزوق: المسند، ص ١٧.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٣٦٨.

بمنار الإسكندرية ثم ظهر في مئذنة جامع المنصورة. ونتساءل كيف انتقل هذا التقليد من مآذن الموحدين إلي مئذنة جامع المنصورة؟ ولا يتبادر الشك إطلاقا إلي أي باحث في آثار الإسلام في أن عرفاء البناء في المنصورة استلهموه من المآذن الموحدية، وان كان (جولفان) يعتقد أن الطريق الصاعد في العمارة المغربية الإسلامية بالجزائر لم يكن من ابتكار المعمار الموحدي، إذ نجده مطبقا ومنفذا في برج المنار بالقلعة الحمادية حيث يدور حول دعامة مفرغة مربعة الشكل تشغلها من الداخل غرف متراكبة للحراسة(١).

وهذا يدعونا إلي تأكيد أصله الحمادي والاعتقاد بأن الموحدين عرفوه إبان سيطرتهم علي قلعة بني حماد في ٥٤٧هـ / ١١٥٢م عندما كان برج المنار ما يزال قائما، ولقد اقتبس عرفاء الموحدين هذه الفكرة ونفذوها علي وجه الخصوص في مئذنة جامع حسان بالرباط التي يصفها عبد الواحد المراكشي المؤرخ المغربي في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) والذي يؤكد الرأي الذي أدلي به الدكتور السيد عبد العزيز سالم ويتلخص في أن لمنار الإسكندرية تأثيرا واضحا علي مآذن المغرب الإسلامي خاصة الموحدية(٢) يقول عبد الواحد المراكشي: "وعمل للجامع مئذنة في نهاية العلو علي هيئة منار الإسكندرية يصعد فيه بغير درج"(٣).

ويبدو في رأينا أن منار الإسكندرية قد مارس تأثيرا واضحا علي مآذن المغرب الإسلامي من حيث الطابع العام، وننتهي من العرض السابق إلي الاعتقاد بأن بناة مئذنة جامع المنصورة تأثروا في اتخاذهم للطريق الصاعد وسيلة للصعود إلي قمة المئذنة بنظيره في برج المنار بقلعة بني حماد القريبة منهم زمانا ومكانا، وكان

---

(1) GOLVIN (L); ESSAI SUR L'ARCHIT. RELIG. MUSUL, T.4. EDITIONS, KLINCKSiECK, PARIS; 1979, P. 285.

(2) السيد عبد العزيز (سالم): تأثير منار الإسكندرية علي بعض مآذن المغرب والأندلس، مجلة المعهد المصري بمدريد، عدد ٢٣.

(3) المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الثانية، مراجعة وتصحيح ر. دوزي ليدن ، ابريل ١٨٨١ ، ص ١٩٢.

الحماديون قد عرفوه من العمارة الإفريقية في منار سوسة.

كما يري ليزين ومنه انتقل إلي المغرب الأوسط ممثلا في القلعة ثم إلي المغرب الأقصى ممثلا في المآذن الموحدية، ومئذنة الخيرالدا بإشبيلية، ثم يعود إلي عمارة المغرب الأوسط في عصر بني مرين[١].

ويجدر القول أن الطريق الصاعد الذي يدور بمئذنتي سامرا ومئذنة جامع ابن طولون في القطائع إنما جاء تقليدًا لمعابد النار الفارسية (أتش جاه) أو الزيجورات، ولا علاقة لهذا الطريق الصاعد في هذه المآذن بنظيره في مآذن المغرب، وربما استخدم في هذه المآذن المغربية لهدف عسكري بقصد المراقبة أو سرعة الوصول إلي أعلي المنار حتى على ظهور الخيل إن اقتضى الأمر.

وفيما يتعلق بزخارف واجهة هذه المئذنة فيبدو أنها تأثرت بنظائرها في مئذنة جامع الموحدين بإشبيلية التي أثرت بدورها تأثيرا واضحا في مآذن الزيانيين والمرينيين خاصة مئذنة جامع المنصورة، ومن الواضح أن فكرة تقسيم الزخارف إلي قطاعات رأسية ثلاثة في الخيرالدا، إنما ظهرت لأول مرة في مئذنة جامع قلعة بني حماد، وربما اقتبس الموحدون هذا النظام ونفذوه بحذق في تقسيمات الزخارف بمئذنة اشبيلية ثم نفذه المرينيون على نحو أكثر اتقانا وروعة في مئذنة جامع المنصورة.

---

(١) يختلف أستاذي الدكتور عبد العزيز سالم معي في ذلك ويعتقد بدوره أن التأثير المباشر تم عن طريق مآذن مساجد الموحدين في المغرب الأقصى، صحيح أن أول استخدام لهذا الطريق الصاعد نفذ في برج المنار بقلعة بني حماد ولكنه لم ينفذ بنفس الأسلوب والنظام اللذين نشهده في الخيرالدا، وفي جامع حسان، أو الكتبية أو المنصورة. إذ كان يتسع في كل من هذه المآذن لفارسين يصعدان جنبا إلي جنب، كما يذكر عبد الواحد المراكشي وابن مرزوق وهو نفس القول الذي ذكره المسعودي بالنسبة للطريق الصاعد بمنار الإسكندرية. وما دام جامع المنصورة من بناء المرينيين خلفاء الموحدين في المغرب فإن التأثير يبدو غالبا على مئذنة المنصورة التي تنفرد عن المآذن الزيانية بهذه الخاصية للمآذن.

٣- مئذنة جامع سيدي أبي مدين:

أمر السلطان أبو الحسن ببناء هذا الجامع في ٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م، كملحق لقبر سيدي أبي مدين الذي اختار هذا الموضوع المعروف بالعباد ليدفن فيه، وأصبح مجموع بنيان الجامع يضم ضريحا وقصرا وحماما ومسجدا هذا بالإضافة إلي المدرسة الخلدونية التي أقيمت بجوار هذه المجموعة.

ويتميز الجامع بمظهره الأنيق، فكل عناصره المعمارية بالإضافة إلي المنبر والأبواب تزدان جميعا بكسوات زخرفية رائعة الجمال، وينفتح بيت الصلاة على الصحن بثلاثة عقود، ويشتمل على خمسة بلاطات عقودها قائمة على دعامات تقسم بين الصلاة إلي ثلاثة أساكيب، وتتميز البلاطة الوسطي بأنها أكثر البلاطات اتساعا، وهذا ويتقدم المحراب بلاطة عرضية أو أسكوب قائم بذاته[١].

ويصف ابن مرزوق هذا الجامع بقوله "......... وسقفه كله أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الأخرى في الوضع، إنها أشكال منجورة منفرشة، وهي كلها مبنية إحكاما بالآجر والقصة، واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس"[٢].

ومئذنة الجامع من الطراز المغربي المربع وتنتصب في الركن الشمالي الغربي من المسجد في نهاية المجنبة الشمالية للمسجد (شكل ٢٤) وتتكون من قاعدة مربعة يعلوها بدن المئذنة المربع الذي اتخذت واجهاته أشكالا زخرفية مختلفة يقول ابن مرزوق في هذه المئذنة: "والصومعة كذلك في غاية من الحسن والاتقان، كل جهة من جهاته الأربع تخالف الأخرى في النوع والإحكام وذهبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين دينارا ذهبا"[٣].

ولما كانت الزخارف التي تكسو واجهات المئذنة تختلف من واجهة إلي أخري،

---

(١) MARCAIS (G); ARCHIT. MUSUL. D'OCCI... P.276.

(٢) ابن مرزوق: المسند، ص١٨.

(٣) نفسه، ص١٩.

فسنضطر إلي وصف كل واجهة منها على حدة، ففيما يخص الواجهة الجنوبية فإنها تنقسم إلي حشوتين الأولي صغيرة وزخارفها عبارة عن طاقة معقودة بعقد نصف دائري يعلوها عقد مفصص كبير وتطوقها تربيعة مستطيلة الشكل يعلوها عقد متعدد الفصوص يرتكز على كابولين، وبقيت في بواطن العقود بعض آثار قطع الفسيفساء الخزفية. أما الحشوة الثانية فيصل ارتفاعها حتى بداية جوسق المئذنة وتزدان في أدناها بثلاثة عقود منكسرة تنتهي بعقد مدبب تعلوها عقود نصف دائرية متراكبة على شكل صفوف. وبقيت بعض آثار الفسيفساء الخزفية التي تزخرفها وهي على شكل دوائر سوداء وخضراء، أما الواجهة الشرقية المطلة على الصحن فتتكون من حشوة واحدة فقط، لأن الجزء الأدنى منها يدخل في نطاق جدار المسجد، وفي هذا الجدار وجد (مارسيه) إطارا مربعا يتكون من قطع من الفسيفساء الخزفية خضراء مرصعة في الآجر ويعتقد (مارسيه) أنه المثال الوحيد في تلمسان وربما أحد الأمثلة المغربية النادرة من هذا النوع من الزخرفة الكتابية والتي استعملت كثيرا في المشرق وهو الخط الكوفي المزوى نقرأ فيه عبارة (بركة محمد)، أما مارسية فقرأها (ببركة محمد)(١).

وزخارف هذه الحشوة تنبثق من ثلاثة عقود متدرجة تنتهي بعقدين مدببين، وكل عقدين مدببين غائرين يعلوهما عقد نصف دائرى بارز يزدان بقطع الفسيفساء الخزفية على شكل دوائر مربعة ومعينات ومستطيلات وعلي شكل بيضات، وبقي في هذه الواجهة زخرفة بشكل مزهرية يخرج منها فرعان نباتيان يعلوهما برعم وهكذا الزخرفة حتى أعلي المئذنة.

أما الواجهة الشمالية فهي فريدة من نوعها في أسلوب زخارفها فهي تتكون من حشوة واحدة غائرة من أدني إلي أعلي لأن مكان الحشوة الأولي يدخل في نطاق جدار المسجد، وهذه الحشوة مقسمة بدورها إلي ثلاثة أقسام رأسية، الحشوتان الجانبيتان متناظرتان عبارة عن شبكة من عقود متدرجة (منكسرة) تنتهي بعقود مدببة وترتكز السفلي على كوابيل، والصف الثاني يرتكز على الأول وهكذا، أما

---

(١) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS ARABES …..P. 263..

الحشوة الطولية التي تتوسط هذه الحشوات فتنقسم بدورها إلي أربعة أقسام الأولى قصيرة تتمثل في طاقة لإنفاذ الضوء والهواء معقودة بعقد مدبب يرتكز على كابولين، أما الحشوة الثانية فغائرة وتخلو من الزخارف، أما الثالثة فهي أكثر ارتفاعا يتخلل قسمها الأدنى طاقة صغيرة معقودة بعقد مدبب يعلوها زخارف على شكل معينات منكسرة ومتراكبة، ويعلو كل معين عقد مدبب صغير وهكذا حتى يبدأ القسم الأخير الذي هو عبارة عن طاقة مفتوحة لإدخال الضوء معقودة بعقد نصف دائري ويحيط به تربيعة بارزة.

أما الواجهة الغربية فقد نفذت بنفس نظام الواجهة الجنوبية، ويعلو هذه الواجهات الأربعة شريط صغير من قطع الفسيفساء الهندسية عبارة عن مربعات ومستطيلات ثم يعلوه شريط أكثر اتساعا تشغله أطباق نجمية كبيرة متجاورة يملأ الفراغ بينها قطع أخري مربعة ومستطيلة ومتعامدة ومعينات ودوائر، ويلي هذا الشريط شريط ضيق آخر تكسوه قطع الفسيفساء الخزفية، ويكلل هذا الطابق الشرافات المسننة المزخرفة من الخارج بقطع الفسيفساء على شكل دوائر ومربعات، ثم يبدأ الجوسق أو الطابق العلوي الذي يزدان في واجهاته الأربع بشبكات من المعينات ويكسو الفراغات كسوة من الفسيفساء الملونة، ويعلو الجوسق قبة يخرج منها سفود بارز يحمل ثلاث كرات، يذكر مارسيه بأن الكبرى منها مذهبة يبلغ محيطها ١,٥٠م[1]، ويعلو الجوسق البارز هلال يتجه طرفاه إلي أعلي (صورة٢٤).

وقوام الزخارف التي تزدان بها الواجهات الأربع للجوسق العلوي في نفس طابع زخارف بدن المئذنة وقوامها توريقات تتفرع من فروع متشابكة كلها ملونة باللون الأسود على أرضية بيضاء ويعلو هذه الزخرفة النباتية شبكة من المعينات لا تختلف زخارفها عن زخرفة مئذنة جامع سيدي الحلوي ومئذنة جامع تلسمان وجامع أبي الحسن وجامع المشور، وهذه المعينات تنبثق من عقود منكسرة متلاصقة فيما بينها، وتشغلها من الداخل فروع نباتية وتوريقات ألوانها هي الأخضر والأسود والأبيض،

---

[1] MARCIS (G ET W); LES MONUMENTS ARABES ......P.263.

يحيط بهذه الزخرفة شريط عريض من الزخارف الهندسية المتباينة الألوان، وحافة هذا الشريط أشكال متعرجة من الفسيفساء الخزفية يليها مستطيلات خضراء ثم تليها الزخرفة الحقيقية للشريط وهي أشكال متعرجة متقاطعة بالإضافة إلي معينات ومربعات ومستطيلات ونجوم صغيرة ذات ثمانية رؤوس، والكبيرة ذات اثنى عشر رأسا تتناوب فيما بينها كلما ارتفعنا إلي أعلي الشريط، والزخرفة إجمالا تشكل أطباقا نجمية متجاورة ألوانها دائما الأخضر والأسود والأبيض ثم الأصفر.

أما من حيث النظام الداخلي لهذه المئذنة فيتشابه مع نظام المآذن الزيانية، ويتم الدخول إليها عن طريق باب ينفتح في صحن المسجد يؤدي مباشرة إلي دعامة مركزية صماء مربعة الشكل طول ضلعها ١,٧٠م على يسارها غرفة مستطيلة الشكل يعلوها عقد نصف دائري، ويعلو سقف هذه الغرفة قبوة متقاطعة تشبه نظائرها بمآذن بني زيان وقلعة بني حماد.

المئذنة مربعة القاعدة طول ضلعها ٤,٣٠م وسمك جدارها ٥٥سم نصعد إلي أعلاها بواسطة درج يدور حول الدعامة المركزية وفي كل دورة خمس درجات (شكل ٢٥)، ويغطي الدرج قبوة متقاطعة تليها قبوة نصف أسطوانية على التناوب، ويتخلل جدار الدورة الثالثة طاقة معقودة بعقد مدبب يتجاوز نصف الدائرة، وهذا العقد غطي بخشب الخرط على شكل مشربية، وقد يكون مستحدثا في الوقت الحاضر. وتوجد أيضا فتحات مستطيلة معقودة بعقد نصف دائري بالإضافة إلي مزغل يطل على الجهة الجنوبية الغربية للمسجد، ويقابل الراقي إلي المئذنة قبل الوصول إلي شرفتها فتحة كبيرة معقودة بعقد مشرع تؤدي إلي ما يشبه الشرفة الصغيرة التي تطل على سقف المسجد والصحن، ويوجد أيضا في نفس الدورة مزغل الضوء والتهوية وإلي جواره حنية غائرة منفتحة في أعلاها فقط بطاقة صغيرة معقودة بعقد مدبب صغير. وفي هذه الدورة يتغير نظام التقبيب ليصبح ثلاثة قبوات متقاطعة ومتجاورة بدلا من القبوة نصف الأسطوانية، ثم يعود النظام الأول والثاني بالتناوب حتى أعلي شرفة المئذنة وهنا يتغير النظام فنجد في الدورة الأخيرة المؤدية إلي الشرفة تسع درجات بدلا من خمس كل دورة، ثم نقابل إلي اليمين غرفة مستطيلة الشكل تشبه الغرفة السفلية

القائمة عند المدخل، ونخرج إلي شرفة المئذنة من باب معقود مشرع، ويتوسط الشرفة الطابق العلوي الذي يتراجع قليلا عن جدار بدن المئذنة (شكل٢٦).

وندخل إلي الجوسق من باب نصعد إليه بدرجة واحدة وهو معقود بعقد مدبب تعلوه زخارف متشابكة رائعة، وغرفة الجوسق مربعة الشكل تعلوها قبة، هذا وقد قدرنا الارتفاع الكلي للمئذنة بـ ٢٦,٥٠م.

وقد استخدم البناء الحجر والآجر والخشب والحديد في بناء هذه المئذنة وكل هذه المواد لتدعيم المبنى وتقويته، ومن الجدير بالملاحظة أن الحجر استخدم في بناء المآذن المرينية وقد سبق استخدامه في مئذنة المنصورة.

أما مئذنة جامع سيدي الحلوى فالجامع أقامه السلطان المرينى أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن المريني في ٧٥٤هـ /١٣٥٣م ويشتمل بدوره على مئذنة رائعة وثيقة الصلة بمئذنة جامع سيدي أبى مدين في جميع المجالات لا سيما مجال الزخرفة (صورة٢٥)، ونفذت واجهاتها بالطريقة نفسها (صورة٢٦)، ولهذا اكتفينا فقط بعرض وصف مختصر لها لتشابهها الوثيق مع مئذنة جامع سيدي أبي مدين.

ويبدو في نظرنا من دراسة هذا الفصل بأن قمة المآذن وتطورها خاصة من الناحية الزخرفية كان في عصر بني مرين والذي يعكس مقدرتهم الفنية في مجال العمارة والفنون الزخرفية التي فاقت كل الفترات السابقة في المغرب الأوسط وحتى مآذنهم في المغرب الأقصى أقاموها على نسق المآذن الموحدية والزيانية إلا أنها أقل ارتفاعا منها، وأعظم ما برعوا في أدائه واستعملوه بكثرة هو الزخرفة بالفسيفساء الخزفية متعددة الألوان، وإذ لم يكن هذا النوع من الزخرفة شائع الاستعمال من قبل، وهذه إضافة جديدة في مجال الفنون الإسلامية في الجزائر يمكن تسجيلها للمرينيين، ولعل هذا النوع المبتكر من الزخارف جعل مآذن بني مرين تشغل مكانا فنيا بارزا بين مآذن العالم الإسلامي في العصور الوسطي. ومع قدوم العثمانيين عرفت المئذنة الجزائرية بساطة متناهية، ولم يبلغوا بها التطور المراد حيث بدت واجهات مآذنهم في المغرب الأوسط خالية من كل زخرفة، وإن كانت قد عرفت نوعا من التنوع في الأشكال.

الفصل الرابع

المئذنة في عهد العثمانيين

تمهيد:

١) الطابع العام للمئذنة في عهد العثمانيين.

٢) مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة.

٣) مئذنة جامع الجيش بقصر الداي بالجزائر العاصمة.

٤) مئذنة جامع الحواتين (الجامع الجديد) بالجزائر العاصمة.

٥) مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة.

٦) مئذنة جامع الباشا بوهران.

تمهيد:

أخذ الضعف والاضمحلال يتسللان إلي كيان الدولة الزيانية في أواخر عهدها وأذنت بالانهيار، منذ أن استولي الأسبان على عدد من موانيها الهامة مثل المرسي الكبير ووهران وبجاية، كما ساعد على ذلك السقوط والانهيار تفتت دول المغرب وتطلع القوي منها للسيطرة على الضعيف، وعلي هذا النحو أصبحت معظم سواحل الجزائر مهددة من قبل الأسبان وجمهوريتي البندقية وجنوة إلي أن ظهر خير الدين بربروسة وأخوه عروج للدفاع عنها وحمايتها من العدوان الأيبيرى والإيطالي الغاشم وقدر لهما بأن يقوما بدور هام في تاريخ الجزائر في بداية العصر الحديث وذلك بتكوينهما دولة مستقلة لها كيان ووحدة جغرافية وحدود ثابتة[١].

وتميزت فترة الوجود العثماني بالجزائر منذ عام ١٥١٦ م بتتابع الاعتداءات الأسبانية، وانتهي الأمر في الربع الأول من القرن ١٩م (١٨٣٠م) بالاحتلال الفرنسي، وشهدت الجزائر إبان العصر العثماني وضعا اجتماعيا متميزا وانتعاشا اقتصاديا واضح المعالم[٢]وصاحب هذه النهضة حركة فنية ومعمارية نشطة تمثلت في العديد من المنشآت التي مازالت قائمة إلي الآن، والدليل على ذلك قصبة الجزائر التي تضم من المباني التي يمكن أن تتحول بحق إلي متحف مفتوح على الهواء الطلق.

ومازالت مساجد العثمانيين ومبانيهم في كل من الجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران وغيرها من المدن الجزائرية قائمة تشهد بنشاط الحركة المعمارية في العصر العثماني الذي تسللت فيه عناصر فنية ومعمارية جديدة في عمارة المغرب الإسلامي وفنونه، وعرفت المئذنة في عصرهم تنوعا في الأشكال، كما خرجت المساجد بتخطيطها في بعض الأحيان عن الطراز المربع المألوف في مساجد المغرب

---

[١] عبد القادر (نور الدين): صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، مطبعة البعث، قسنطينة، ط٢، ١٩٦٥، ص٤٣.

[٢] سعيدوني (ناصر الدين) والشيخ المهدي (بوعبدلي): الجزائر في التاريخ، ج٤، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤، ص١٤.

الإسلامي.

١- الطابع العام للمئذنة في عهد العثمانيين:

خلف العثمانيون تراثا معماريا هائلاً في الجزائر، يروى (هايدو) أنه في سنة ١٥٨١ بلغ عدد مساجد العاصمة الجزائرية مائة مسجد، وفي سنة ١٨٣٠م قدر (جورج مارسيه) عدد المساجد بمائة واثنين و عشرين مسجدا بما فيها ثلاثة عشر مسجدا جامعا[١]. ومن البديهي أن كل هذه المساجد كانت تحتوي على مآذن متنوعة الأشكال، وإن كان معظمها قد ضاع مع الظروف المضطربة التي عاشتها الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي، ولم تكن المئذنة العثمانية عنصرا ثانويا في المساجد تنتصب في موضعها المخصص في المسجد، بل كانت عنصرا أساسيا يشكل وحدة متناسقة مع التخطيط العام للمسجد حتى وإن كانت مقاساتها تتفاوت من مئذنة إلى أخري، وفي بعض الأحيان تبدو وقد خلت من الحليات التقليدية واتخذت مظهرا ساذجا[٢].

وتجدر الإشارة إلي أن موقع المئذنة في المساجد العثمانية لم يكن يخضع لأية قاعدة، بل كانت تنتصب في المكان الذي يستطيع فيه المؤذن أن ينطلق بصوته إلى آفاق بعيدة، وفيما يتعلق بالشكل العام للمئذنة العثمانية فقد كانت إما مربعة الشكل على غرار المآذن السابقة لهذه الفترة، أو مثمنة الشكل على مثال بعض المآذن العثمانية في صنعاء وزبيد باليمن. وفيما تعلق بالطراز المربع فيعتبر طرازا تقليديا في العمارة الإسلامية بالجزائر ظل مستخدما في المساجد العثمانية بالجزائر كما يمثله جامع الحواتين وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، وسوف نتعرض لدراستهما في هذا الفصل بشيء من التفصيل. أما الطراز الثاني المثمن فتمثله مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة ومئذنة جامع الباشا بوهران وغيرهما

---

(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI...... P.426.

(٢) EKREM (A); L'ART EN TURQUIE. OFFICE DU LIVRE FRIBOURG, PARIS 1981, P.147.

من المساجد، ويعتبر طرازا جديدا داخل الجزائر في الفترة العثمانية[١].

أما فيما يتعلق بمظهرها الخارجي العام فيختلف بـاختلاف أشـكالها، فالمئذنـة العثمانية المربعة لم تكن تختلف عن مآذن بني زيان وبني مرين إذ كانت تتكون من طابقين ويعلو الجوسق قبيبة يتوجها سفود بارز تركب فيه كرات، أما المثمنة فتتكون من طابقين أيضا، ويمكن أن يطوق بدن المئذنة أكثر من شرفة قائمة على مقرنصات يؤذن منها المؤذن، ويزين الجوسق وكذا بدن بعض المآذن قطع من الزليج مختلفة الألوان.

أما من حيث التكوين الداخلي فتتشابه فيما بينها إذ كان يتوسطها دعامة مركزية مصمتة قد تكون مربعة وقد تكون مثمنة يدور حولها درج حتـى أعلـي الشـرفة، وتسقف الدرج قبوات نصف أسطوانية متتابعة[٢].

ويتضمن كتاب (اسكار جبريال) صورا رائعة لمختلف أنواع المآذن في القطـر الجزائري والعاصمة على وجه الخصوص ولكن لم يبق لتلك المآذن أثر يذكر. ومـن الملفت للملاحظة أن من مآذن العصر العثماني في الجزائر المربعة على غرار مآذن الموحدين والزيانيين والمرينيين والمثمنة والتي تتألف من طابقين أو ثلاثة يعلوهـا جوسق مستدق يتراجع قليلا عن مستوي المئذنة ينتهي في أعلي بقبيبة ثـم سـفود بارز كما هو الحال في مآذن وهران ومستغانم والجزائر العاصمة وجيجل وقسنطينة وغيرها. وهناك بعض مآذن تتميز بجوسقها الأسـطواني كمـا تـزدان واجهاتهـا بزخارف من الزليج والفسيفساء الخزفية متباينة الألوان، ويعلو الجوسق عادة شرفة صغيرة ثم قبة يليها سفود بارز يحمل كرات ويعلوه هلال في بعض الأحيان[٣].

---

(١) MARCAIS (G), L'ART EN ALGERIE, P. 136.

(٢) DOKALI (R); LES MOSQUEES DE LA PERIODE TURQUE A ALGER, SNED. ALGER 1974, P.41.

(٣) ESQUER(G); ICONOGRAPHIE HISTORIQUE DE L'ALGERIE DEPUIS LE 16^{e} SIECLE JUSQU A 1871, TOME 1 ET 2 LIBRAIRIE PLON, PARIS, 1929, S.P.

ومن الجدير بالملاحظة أيضا في هذه المآذن العثمانية التي أقيمت بالجزائر أنها تختلف كثيرا عن المآذن العثمانية التي أقيمت في الدولة العثمانية نفسها، وإنها تعتبر تطورا للمآذن التقليدية مربعة الشكل، التي أقيمت في الغرب الإسلامي قبل العصر العثماني، وظل مستخدما طوال هذا العصر، ويمكن تفسير هذه الظاهرة بسببين: أولهما أن الأتراك لما دخلوا الجزائر وجدوا بها عمارة دينية مزدهرة تختلف في طرازها عن طراز أبنيتهم الدينية فأعجبوا بهذا الطراز المحلي لاختلافه عن طرازهم العثماني، ولهذا أبقوا عليه في المساجد التي أقاموها كالجامع الجديد وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبى بالعاصمة الجزائر، والسبب الثاني الذي يمكن أن نعلل به استمرار طراز المآذن المغربية مربعة الشكل في الفترة العثمانية قد يرجع إلي أن عرفاء البناء الذين اشتغلوا بالبنيان والعمارة في الجزائر كانوا محليين من أهل البلاد.

٣- مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة:

يعتبر جامع سيدي لخضر أحد منجزات العثمانيين في الشرق الجزائري وتاريخ إنشائه مسجل على اللوحة التأسيسية القائمة على مدخل الجامع ونطالع في هذا النقش التأسيسى النص التالي : أمر ببناء هذا المسجد العظيم وتشيد بنائه للصلاة والتسبيح والتعليم ذو القدر العالي والتدبير الكامل وحسن الرأي أميرنا وسيدنا حسن باي أدام الله أيامه وكان تمام بنائه أواخر شهر شعبان سنة ست وخمسين ومائة وألف ١١٥٦هـ.

أما من حيث التخطيط المعماري فيتكون من خمس بلاطات عمودية وستة أساكيب وله محراب في غاية الروعة، وفي مؤخرة المسجد دكة المبلغ، ولقد درس في هذا الجامع الشيخ عبد الحميد بن باديس في عصر السيطرة الاستعمارية وإسم سيدي الخضر أطلق على المسجد نسبة إلي شيخ بهذا الاسم اعتكف فيه طويلا حتى مات وضريحه مازال موجودا في المسجد إلي الآن.

أما فيما يتعلق بمئذنة الجامع فهي من الطراز المضلع -فهي مثمنة الشكل من

القاعدة إلي القمة- وتنتصب في الركن الشمالي الغربي من المسجد (شكل٢٧) ويتخلل جدرانها الخارجية فتحات لكنها قليلة، ويخلو بدن المئذنة الخارجي من الزخارف، وينتهي البدن من أعلي على مسافة قصيرة أدني الشرفة بعقود نصف دائرية يعلوها حشوات على طول أضلاع المئذنة من الزليج الأصفر ويتوسط كل حشوة، حشوة أخرى مربعة من الزليج متداخل الألوان ذي الزخارف النباتية المتشابكة، ويعلو هذه الحشوات عقود غائرة ترتكز على ستة عشر كابولي تتوزع على البدن المثمن للمئذنة تساعد على حمل الشرفة البارزة على مستوي البدن حيث يقف المؤذن للنداء إلي الصلاة[١].

أما الجوسق فمثمن الشكل يقوم على سطح البدن الرئيسي للمئذنة وهو استمرار للبدن وتتخلل واجهاته حنايا مستطيلة الشكل صماء، والجوسق قمته مثمنة أيضا ترتكز عليها القبة هرمية الشكل التي يتوجها سفود بارز يحمل كرتين من النحاس[٢]، يعلوهما هلال يتجه ذراعاه إلي السماء (صورة٢٧). أما من الداخل فنرتقي إلي أعلي المئذنة من باب في المسجد يؤدي إلي قاعدة مثمنة تتوسطها دعامة مركزية من الخشب على غرار مئذنة جامع قسنطينة من الفترة الحمادية (شكل٢٨). ونصعد إلي أعلي المئذنة بواسطة سلم من الخشب عدد درجاته خمس وثمانون درجة يلتف حول الدعامة المركزية.

والملاحظة الوحيدة علي المئذنة أنها تخلو من نظام الطوابق المتراكبة، بل تنتصب كتلة واحدة دون فاصل بين البدن والجوسق ودون استدقاق أو تراجع حتى تقترب من نهايتها وعندئذ تبرز شرفة ارتفاعها ٧٥سم والمسافة بينها وبين جدار الجوسق ٦٥سم وهي كافية بأن يدور حولها المؤذن ويقف لأداء الأذان بكل حرية، ويعلو قمة المئذنة جوسق مضلع تقوم عليه قبة هرمية الشكل (شكل٢٩).

وتنفتح في جدار المئذنة فتحات متعددة منها على شكل مزاغل ضيقة من الخارج

---

(١) BOUROUIBA ®, CONSTANTINE, P.113.

(٢) IBID, P.113.

وواسعة من الداخل، ومنها فتحات عادية للإضاءة ومنها طاقات صماء، ويقدر سمك جدار المئذنة بنحو ٥٠سم، أما طول كل درجة من درجات السلم فتبلغ ٨٥سم وقطر الدعامة المركزية ٣٠سم وتنتهي الدعامة المركزية التي تتخذ شكل عمـود خشـبي بسفود بارز يخترق أعلي المئذنة لتركب فيه كرتان من النحاس ثم هلال تتجه ذراعاه إلي السماء. ويبلغ الارتفاع الإجمالي للمئذنة ١٦,٥٠م، وطول ضلع القاعدة ٢,٥٠م ويعبر ذلك عن تناسب هندسي واضح في تصميم المئذنة (شكل ٣٠). نفذ بناء هـذه المئذنة وفق طراز معماري جديد غير مألوف في العمارة الجزائرية الإسلامية مـن قبل، بل ابتكار عثماني في العمارة الجزائرية.

٣- مئذنة جامع الجيش بقصر الداي بالجزائر العاصمة :

يتسم الجامع المذكور بأن مساحته صغيرة للغاية، ويتألف من بيت الصلاة فـي حالة سيئة، وتقع مئذنة الجامع في الضلع الغربي أي في مؤخرة الجامع وهي مئذنة مثمنة الشكل، ولكن أوجهها الثمانية تزدان هذه المـرة بحشـوات مـن البلاطـات الخزفية، وقد وصلت المئذنة إلينا اليوم في حالة سيئة بحيث تؤذن بالانهيار الوشيك وتحتاج إلي إصلاح سريع حتى نحفظها من السقوط.

ومن الجدير بالذكر أن الجزء السفلي من المئذنة يندمج مع الجدار فـي حـين يطوق القسم العلوي شريط من البلاطات الخزفية على طول بـدن المئذنـة وهـذه البلاطات خضراء اللون تتميز بوجود تعرجات بيضاء ويعلو هذا الشـريط حشـوات غائرة قليلا واحدة في كل ضلع، وتزدان الحشوات بقطـع مربعـة مـن البلاطـات الخزفية، ويلي ذلك شريط من البلاطات الخزفيـة خضـراء اللـون ذات التعرجـات البيضاء على غرار البلاطات سالفة الذكر، ثم حشوات أخرى متماثلـة فـي الحجـم والشكل يليها شريط آخر تطبيقا لمبدأ التناظر.

أما أعلى المئذنة فيتوجه شرافات على شـكل عقـود تخـتلط فيهـا الخطـوط بالمنحنيات على غرار شرافات مئذنة جامع الحواتين بالجزائر العاصمة وهذا النـوع من الشرافات مستحدث في المغرب الأوسط لم تسبقه أمثلة في العمائر السابقة على العصر العثماني مما يجعلنا نرجع بأنه ابتكار عثماني، ويتوسط سطح البدن المـثمن

جوسق مضلع تزدان أوجهه ببعض بقايا قطع من الفسيفساء الخزفية، وتعلو الجوسق قبيبة مصقولة الظاهر رأسها مدبب تخلو من السفود البارز والكرات التقليدية (صورة٢٨).

ويتوسط بدن المئذنة من الداخل دعامة مركزية مربعة مصمتة يلتف حولها درج دائري عدد درجاته ثمان وأربعون درجة، تختلف هذه الدرجات فيما بينها في كل دورة.

وقاعدة المئذنة مربعة الشكل طول كل جانب منها يبلغ ٣,٥٠م، وارتفاعها الكلي ١٦مترا وسمك الجدار ٥٠سم (شكل ٣١). ويسقف الدرج قبوات نصف أسطوانية، ويتخلل جدران المئذنة فتحات معقودة بعقود نصف دائرية للإضاءة والتهوية، وعندما نصعد قليلا بارتفاع ٦ أمتار إلي أعلي المئذنة على مستوي سطح المسجد ينفتح باب يؤدي إلي هذا السطح. وعند هذا الحد يتوقف الشكل المربع للمئذنة ويبدأ الشكل المثمن للمئذنة (شكل ٣٢) وهذا التنوع في شكل المئذنة يمثل تطورا جديدا لنظام المآذن الجزائرية ويرجع الفضل فيه إلي العثمانيين أول من حملوه إلي الجزائر، ويظهر هنا لأول مرة كما نشهده بعد ذلك ممثلا في مئذنة جامع الداي في القصر نفسه كما سنرى فيما بعد.

أما من حيث نظام التسقيف فهو نفس النظام الذي طبق في القسم الأدنى من المئذنة، ويستمر استخدام القبوات نصف الأسطوانية حتى أعلي المئذنة حيث يقوم الجوسق، ونلاحظ في هذه المئذنة تنوعا من حيث الفتحات، فمنها ما يتخذ شكل عقد نصف دائري وأخرى مستطيلة الشكل.

وقد استخدم في بناء هذه المئذنة الآجر الممزوج بالحجر المدكوك وكذلك الملاط، كما استخدمت في البناء بعض العوارض الخشبية لتدعيم المبني وتقويته، وأيا ما كان الأمر فإن نظام هذه المئذنة يبدو مخالفاً لنظام المآذن المغربية المألوفة، ومن الواضح أن العثمانيين أثروا في العمارة الإسلامية في الجزائر ببعض الأشكال والطرز التي نعتبرها تطورا لنظام المئذنة.

وعلي مقربة من هذا الجامع يقع مسجد الداي، وهو مسجد صغير المساحة تتوسطه قبة مركزية كبيرة فتحت فيها شبابيك مخرمة ذات ألوان ثلاثة الأزرق والأحمر والأصفر، ويتميز المحراب بصغره ويزدان ببلاطات خزفية. أما أعمدة المسجد فكلها مقناة بقنوات متموجة لولبية الشكل، ومئذنة الجامع لا تختلف في مظهرها الخارجي عن مئذنة جامع الجيش، فهي صغيرة الحجم قليلة الارتفاع مضلعة وتخلو من نظام الطوابق المتراكبة، وتفتح على واجهاتها بعض المنافذ للإضاءة والتهوية، ويخلو بدن المئذنة من الزخارف ما عدا الشريط العلوي الذي يبدو عريضا بعض الشئ، ويدور حول واجهات المئذنة، ويتألف من بلاطات خزفية خضراء اللون وزرقاء وصفراء وبيضاء وتشغلها زخارف نباتية وهندسية، وتنتهي المئذنة من أعلي بشرافات مثلثة الشكل.

ويتوسط السطح العلوي لبدن المئذنة جوسق قليل الارتفاع مثمن الأضلاع تعلوه قبة ذات سفود بارز ركبت عليها كرتان من البرنز ويزدان النصف العلوي من الجوسق بما في ذلك القبة ببلاطات خزفية كالتي سبق ذكرها، ولا يختلف نظام وشكل هذه المئذنة عن مئذنة جامع الجيش إلا في أن المئذنة مثمنة من القاعدة إلي القمة، وهذا الشكل المثمن لبدن المآذن جيد ومبتكر في تاريخ العمارة الإسلامية بالجزائر (صورة٢٩) ويشبه إلي حد كبير نماذج عديدة من مآذن اليمن في العصر العثماني.

أما من الداخل فكل ما استطعنا ملاحظته أن الدعامة المركزية مصمتة يدور حولها سلم، ولم نتوصل إلي معرفة نظام التسقيف من الداخل وذلك لأن مدخل المئذنة كان موصدا بسبب أعمال الصيانة والترميم الجارية بها.

٤- مئذنة جامع الحواتين (الجامع الجديد) بالجزائر العاصمة:

يطلق أهل مدينة الجزائر على هذه الجامع أيضا اسم الجامع الجديد وهو الاسم الشائع له، ويشغل هذا الجامع وملحقاته مساحة تبلغ ١٣٧١,٢٠م٢، ومن حيث التخطيط يتوسط الجامع قبة مركزية تحيط بها قباب صغيرة على غرار قباب جامع الباشا بوهران، وتخطيط هذا الجامع يذكرنا بتخطيط المساجد العثمانية

بتركيا[1].

ويتخذ بيت الصلاة مستطيلا يتجه من الشمال (الشمال الغربي) إلى الجنوب (الجنوب الشرقي) وتقدر أبعاده من الداخل دون احتساب سمك الجدران بـ ٣٩,٥x ٢٤م في الجهة المقابلة[2] ومن المعروف أن الجامع بني في عام ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م بأمر صادر من الجيش العثماني بالعاصمة من مال سبو الخيرات. ويذكر (كلان) أن هذا الجامع بني على انقاض موقع مدرسة قديمة تسمي (أبو عنان) [3]. واسم الحواتين الذي أطلق على هذا الجامع تسمية فرنسية لقربه من شاطئ الحواتين، وسوقهم القريب من الزاوية الغربية للجامع[4].

أما المئذنة موضوع الدراسة فتقع في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع وتشغل جانبا من مؤخرة الجامع (شكل ٣٣)، وتتخذ المئذنة شكل برج مربع الشكل طوله ٤ أمتار ينقسم إلي ثلاثة قطاعات أفقية، الأول خال على الإطلاق من الزخارف، والثاني عبارة عن حشوة كبيرة غائرة تضم حشوة أخرى أصغر مساحة، ويتوسط هذه الحشوة الأصلية زخرفة تشغل سطحا بيضي الشكل قوامها مربعات خزفية صغيرة متلاصقة فيما بينها تزدان بزخارف نباتية وهندسية باللون الأخضر والأزرق والأصفر والأبيض ويتوسط هذه الزخرفة بيضية الشكل إطار مربع الشكل من البلاطات الخزفية باللون الأخضر والأبيض والأصفر ذات زخارف هندسية، أما القطاع الثالث فيتألف من حشوة مربعة الشكل غائرة بداخلها حشوة أخرى مربعة أقل مساحة تتوسطها ساعة حديثة (صورة ٣٠) أضيفت إلي مئذنة الجامع في عام ١٨٤٧م كسيت في سنة ١٨٥٩ بغطاء من الزجاج الشفاف لحمايتها من الأمطار[5]،

---

(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT . MUSUL. D'OCCI, P.433..

(٢) DEVOULX (A); LES EDIFICES RELIGIEUX DE L'ANCIEN ALGER IN. REV-AFR, T.11, 1867, P.302..

(٣) KLEIN (H); FEUILLETS D'EL DJEZAIR ...... P.153.

(٤) DEVOULX (A); OP CIT, P. 385.

(٥) KLEIN (H). OP CIT, P. 153.

أما الإطار المحيط بالساعة فيزدان ببلاطات خزفية مستحدثة.

ويدور بهذا القطاع الثالث من أعلي شريط من التربيعات الخزفية يقدر عرضه بحوالي متر، وتزدان هذه التربيعة شأن الحشوة البيضية التي أشرنا إليها في القطاع الثاني، ويعلو هذا الشريط شرافات مستطيلة الشكل عددها أربعة وعشرون، ويلي هذا البدن الشاهق سطح بزخارف نباتية وهندسية يتوسطه جوسق تزدان واجهاته الأربع بنفس الأسلوب ولهذا نقتصر على وصف واجهة الباب الشمالي المطل على البحر، يعلو باب غرفة الجوسق قندلية مطولة عبارة عن نافذتين معقودتين بعقدين توأمين متجاوزين ومطولين يرتكزان على عمود مركزي رشيق يتوسطهما من أعلي مفتاحي العقدين جوفة مستديرة مفرغة يطوقها عقد نصف دائري وتكسو القندلية مشربية من خشب الخرط ويحيط بهذا القطاع كله بلاطات من الخزف على شكل أطباق نجمية الشكل مع دوائر باللون الأخضر والأزرق والأبيض والأصفر والبني، وينتهي الجوسق من أعلي بشرافات مسننة تحيط بقبة صغيرة نصف كروية يرتفع بأعلاها سفود بارز ركبت فيه ثلاث كرات (صورة ٣١). والمئذنة بهذا الشكل تشبه المآذن المغربية السابقة على العصر العثماني[1].

ومدخل المئذنة ينفتح في الجانب الشمالي الغربي، وعند دخولنا المئذنة نجد على يسارنا بابا مغلقا يؤدي إلي ما يشبه الغرفة المستطيلة لعلها كانت تستعمل لوضع أثاث المسجد كما هو الشأن في المآذن السابقة (الزيانية والمرينية).

نرتقي إلي أعلي المئذنة عن طريق درج يدور حول دعامة مركزية مربعة الشكل مصمته يبلغ طول جانب منها ١,٦٠م وتتكون الدورة الأولي من خمس درجات تسقفها قبوة متقاطعة يليها قبوة نصف أسطوانية فقبيبة غائرة (شكل ٣٤). وعند الدورة الثانية من الدرج يقابل الراقين بابان أحدهما يؤدي إلي الشارع والآخر يفضي إلي أعلي المئذنة، وسقف هذه الدورة كله قبوة نصف أسطوانية. ويتخلل جدران المئذنة من الداخل فتحات للإضاءة والتهوية، أما أسلوب التسقيف فيختلف من دورة

---

(1) LES MOSQUEES EN ALGERIE .... P.54.

إلي أخرى، فمن قبوة نصف أسطوانية إلي قبوة متقاطعة إلي قبيبة غائرة ويشكل ذلك النظام ظاهرة فريدة من نوعها في نظام المآذن بالمغرب الأوسط. وتتبع طلعات الدرج خمس درجات في كل دورة نفس نظام التسقيف إلي أن نصل في الصعود إلي منتصف المئذنة فيقابلنا باب يؤدي مباشرة إلي سطح المسجد. ومن الجدير بالملاحظة أن درجات السلم في النصف الأدني من المئذنة مبلطة ببلاط حديث، أما في النصف العلوي فيبدو أنها قديمة وأصلية وتتألف من قوالب متلاصقة من الآجر الأحمر. ويتخلل الجدران الداخلية للمئذنة فتحات مصمتة يبدو أنها أغلقت في فترات حديثة. ونلاحظ عندما نقترب من أعلي المئذنة أن أسلوب الدرجات يبدأ في التغير خاصة عند مستوي الساعة كما يبدو من الخارج (شكل٣٥) فهناك درجات عادية وأخرى أكثر أتساعا وإذا ما تجاوزنا مستوى الساعة تتوقف الدرجات قدر دورتين استعيض عنها بأخرى حديثة، ثم تنتهي آخر دورة بباب يؤدي إلي السطح العلوي للمئذنة، ونصعد من هذا الباب عبر سلم خشبي ضيق وتتوقف عند هذا الحد الدعامة المركزية ويحل محلها عمود من الخشب يماثل نظيره في مئذنة المسجد الجامع بقسنطينة، ويسقف غرفة الجوسق سقف خشبي مربع يبرز من منتصفه سفود بارز يخترق القبيبة المتوجة للجوسق ركبت فيه الكرات النحاسية الثلاثة. ويبلغ إجمالي ارتفاع المئذنة ٢٥مترا وكان ارتفاعها الأصلي ٣٠مترا، ولكن عمليات الردم التي أجرتها الإدارة الفرنسية سابقا في ساحة الشهداء (ساحة الحكومة سابقا) بالجزائر العاصمة أدت إلى انخفاض علوها بحوالي خمسة أمتار(١).

وأكثر ما يلفت النظر في هذه المئذنة جوسقها الفريد من نوعه بين مآذن المغرب الإسلامي السابقة، ويمكن أن نعتبره ابتكارًا عثمانيا، فواجهاته الأربعة تتميز بدخلاتها المتناظرة اثنتين في كل جانب (شكل٣٦).

أما عن مواد بنائها فهي تقريبا المواد التي بنيت بها مئذنة الجامع سالف الذكر هذا مع تعرض المئذنة لبعض التجديدات التي أدخلت عليها.

---

(١) DEVOULX (A); OP CIT, P. 134..

٥- مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي:

يعد عبد الرحمن الثعالبي من أبرز علماء المغرب الأوسط وجلتهم في العلوم الدينية، ولد بمدينة الجزائر سنة ١٣٨٣م وتلقي العلم على شيوخ عصره وعاني الرحلة في أنحاء المغرب الأوسط حتى ذاع علمه واشتهر بين علماء بلده وحظي بتقدير أهل عصره إلي أن وافته المنية في ١٤٧٠م وانتشر إسمه بعد وفاته وتردد كثيرا من مريديه إلي قبره للتبرك، الأمر الذي أدي إلي إقامة ضريح يضم رفاته في سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م[١]، وبني فوق الضريح مسجد ألحق به في سنة ١٦٩٦م ويتميز هذا المسجد بصغر مساحته إذ يتكون من أربع بلاطات وأربعة أساكيب وزود بمحراب صغير في غاية الروعة والجمال[٢]، ولا يسقف هذا المسجد سوى مساحة صغيرة تقدر بـ٣٦م٢. وقد لاحظ (البرت ديفولكس) وجود آثار منزل قديم بالقرب من المسجد ويحتمل أن يكون مقر إقامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي[٣].

ولهذا المسجد الصغير مئذنة مربعة الشكل على غرار المآذن المغربية السابقة للعصر العثماني، تقع في الجانب وتندمج في جدار المسجد من ثلاث جهات ماعدا الجهة الجنوبية الشرقية التي تظهر فيها تفاصيل المئذنة كاملة من الخارج[٤]. ونلاحظ أن واجهات المئذنة كلها متماثلة من حيث النظام المعماري والزخرفي ولذلك نقتصر على وصف الواجهة الجنوبية الشرقية. تزدان الواجهة بثلاث قطاعات متماثلة يفصل بين كل منها طنف بارز يشغله شريط عريض من الفسيفساء الخزفية يدور على الجدران الأربعة للمئذنة، ويزدان هذا الشريط بأشكال نباتية عبارة عن فروع نباتية متموجة وأشكال هندسية قوامها أشكال نجمية، ويشغل كل قطاع ثلاثة عقود مفلطحة غائرة ترتكز على أربعة أعمدة ونلاحظ أن العقد الثالث في القطاعين الأوسط والعلوي تنفتح فيه طاقة صغيرة مستطيلة الشكل كما نلاحظ أن الشريط

---

(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT MUSUL D'OCCI.. P. 434.

(٢) KLEIN(H); OP CIT, P. 156.

(٣) DEVOULX (A); OP CIT, P.53.

(٤) DOKALI®; OP CIT, P.41.

الزخرفي الذي يتوج بدن المئذنة بالقطاع الزخرفي الثالث أقل ارتفاعا من الشريطين الأوسط والأدنى (صورة٣٢) ويتوج البدن الرئيسي للمئذنة شرافات تتخذ شكل القبة مدببة الرأس وعددها اثنتا عشرة من بينها أربع شرافات كبـري تشـغل الأركـان المربعة للبدن، ويتوسط السطح جوسق مربع الشكل يـزدان أعـلاه بشـريط مـن البلاطات الخزفية تعلوه قبيبية (صورة٣٣) و (شكل٣٧)، ومن الجـدير بالـذكر أن شريط التربيعات الخزفية الذي يمتد بأدنى الشرافات لا يدور على الواجهات الأربعـة للمئذنة.

والمئذنة من الداخل مربعة القاعدة طول ضلعها ٣م يتخللها درج يـؤدي إلـي دعامة مركزية مربعة الشكل مصمتة طول ضلعها ٧٠سم يدور حولها سـلم دائـري عدد درجاته سبع وعشرون درجة، وتشتمل الدورة الأولي تسع درجات (شـكل ٣٨) وتنفتح في جدار المئذنة فتحات نصف دائرية للإضاءة والتهويـة، ويتغيـر نظـام الدرجات فيصبح ثلاث درجات في كل دورة ويسقف الدرج سقف مسـطح. ويتغيـر نظام توزيع الدرجات بحيث يصبح في آخر دورة نحو أعلي المئذنة خمس درجـات، وينتهي الدرج بشرفة المئذنة التي نصل إليها عن طريق باب صغير، ويقابل المـرء عند اقترابه من سطح المئذنة باب يؤدي إلي سطح المسجد، ويتوسط سطح الشرفة جوسق مربع الشكل، هذا ولقد تعرضت المئذنة لبعض أعمال الإصلاح والتجديد كمـا تدل آثارها. وكل ما يمكن قوله عن هذه المئذنة أنها تمتاز بتناسـب واضـح بـين ارتفاعها وطول ضلع قاعدتها حيث يقدر ارتفاعها بـ ١٦م، كمـا تمتـاز بتكـوين معماري بسيط (شكل ٣٩). ومن الواضح أن مظهرها الخارجي يخالف نظام المـآذن العثمانية الأخرى المقامة بالجزائر خاصة في زخرفتها الخارجية ويمكن تعليل هـذا بالتطور الذي وصلت إليه المئذنة الجزائرية في الفترة العثمانية من حيـث الشـكل والمضمون.

أما عن مواد بنائها فهي لا تختلف عن مواد بناء المآذن السابقة في قصر الداي ومئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة.

٦- مئذنة جامع الباشا بوهران:

بني مسجد الباشا بوهران في أواخر الفترة العثمانية كما تشير إلي ذلك اللوحة التأسيسية التي تتقدم مدخل الجامع ونطالع فيها النص التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم مسجد الباشا أسس بأمر من سيدي حسن باشا ١٧٩٢م" وقد تم إنشاؤه بعد الفتح الثاني لوهران سنة ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م وهو مسجد جامع كما تثبت أحدي اللوحات التأسيسية المحفوظة بمتحف وهران، وهي لوحة تذكارية منقوشة على الحجر. ويعتبر من المساجد العثمانية القليلة التي سلمت من أيدي الاستعمار الفرنسي التخريبية أو التحويل إلي كنيسة[١].

ويتكون بيت الصلاة من خمس بلاطات وسبعة اساكيب تتميز البلاطة الوسطى بأنها أكثر البلاطات اتساعا وتحمل قبة مركزية على نمط قبة جامع القيروان ويحيط بها اثنتا عشرة قبة صغيرة. وللمسجد محراب مزخرف يزليج حديث تتقدمه قبة أصلية تزدان بتربيعات من الزليج العثماني. ويحتوى الجامع على دعامات مربعة وأعمدة مزدوجة تحمل عقود بيت الصلاة.

ومدخل المسجد يؤدي إلي غرفة مربعة مسقفة بقبة، وتنتهي هذه الغرفة بصحن المسجد الذي تتوسطه نافورة مستحدثة وكانت في الأصل مجرد حديقة تتخذ شكل رنتين في صدر الصحن (شكل ٤٠)، ويتخذ الصحن شكل نصف دائرة، وينفتح في الصحن باب يفضي إلي بيت الصلاة.

أما المئذنة فتنصب في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد وتتكون من قاعدة مثمنة يعلوها بدن مثمن الشكل من القاعدة إلي القمة تشتمل واجهاته على أربعة قطاعات زخرفية تقسم إلي قسمين يفصل بينهما زخرف بارز مثمن الشكل، وواجهات المئذنة تزدان جميعا بنفس هذا التقسيم الأمر الذي يجعلنا نقصر الوصف على واجهة واحدة فقط. ويزدان النصف الأدنى من المئذنة بقطاعين متراكبين من الزخرفة في

---

[١] مهيريس (ميروك): المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في الآثار الإسلامية. إشراف الدكتور رشيد بورويبة ١٩٨١-١٩٨٢، ص٣٣..

كل منهما عقد نصف دائري متعدد الفصوص المتقاطعة فيما بينها داخل نطاق مستطيل الشكل غائر بعض الشيء عن وجه المئذنة، ويفصل بين كل من القطاعين إفريز عريض من تربيعات الزليج يتناوب فيها اللونين الأبيض والأخضر. أما النصف الأعلى من البدن فيزدان قطاعاه بنفس النظام سالف الذكر ويفصل بين كل من قطاعيه إفريز يماثل للنصف الأدنى من البدن، ويتوج البدن إفريز أكثر عرضا من الأفاريز الفاصلة، وينتهي البدن بنطاق مثمن يبرز قليلا عن سمت جدار المئذنة، وتقوم عليه شرفة مسورة بسياج قوامه تشبيك حديدي يزدان بزخارف هندسية مفرغة. ومن الجدير بالملاحظة أن الشريطين يزدانان بتربيعات من الزليج التي تتناوب فيها التربيعات الخضراء والبيضاء (صورة ٣٤، ٣٥).

ويزدان الجوسق العلوي مثمن الشكل بزخارف تكسو واجهاته الثمانية قوامها تربيعات الزليج التي تتناوب منها الخضراء مع البيضاء ويتوج الجوسق قبة مضلعة يعلوها سفود بارز يحمل أربع كرات من البرونز ثم هلال يتجه ذراعاه إلي السماء (شكل ٤١) ويربط المسجد بالمئذنة أسطوان مسقوف اتخذ في الوقت الحاضر ميضأة، يؤدي إلي باب المئذنة ويفضي هذا الباب عبر درجتان إلي مدخل المئذنة ويغلق هذا المدخل باب خشبي يصل إلي جوف المئذنة التي تتخذ من الداخل شكل مثمن طول كل ضلع منه ٢,٥٠متر وتتوسط المئذنة من الداخل دعامة مركزية مستطيلة الشكل صماء. ومن الجدير بالملاحظة أنه يقع إلي يسار المدخل غرفة مستطيلة الشكل على غرار مئذنة جامع قلعة بني حماد ومآذن تلمسان في العهد الزياني والمريني، وهذه الغرفة مسقفة بقبو نصف أسطواني ويدور حول الدعامة المركزية سلم يتكون من مائة وثمان وثلاثين درجة يصعد إلي أعلي المئذنة، كل دورة من دوراته الأربع تشتمل على أربع درجات ماعدا الدورة الأخيرة التي يتغير فيها النظام فتتكون الدورة من ثمان درجات (شكل٤٢) وتسقف هذه الدورات قبوات متقاطعة في الأركان تتوسطها قبوات نصف أسطوانية على غرار نظام القبوات بمئذنة جامع قلعة بني حماد ومئذنة المسجد الجامع بتلمسان، ولكن مع مرور الزمن بدأت القبوات المتقاطعة تندثر بحيث لم يتبق منها إلا آثار تدل عليها. ويتخلل كل دورة مزغل أو

أكثر بغرض التهوية والإضاءة بدلا من مستطيلة الشكل التي تعودنا رؤيتها في مئذنة المسجد الجامع بتلمسان والمآذن الزيانية الأخرى. ونصعد تسعا وسبعين درجة لنصل إلي بسطة مستطيلة الشكل تليها بسطة أخرى مستطيلة الشكل أيضا في الدورة المجاورة، ثم يواصل الدرج صعوده بنفس النظام بمعدل أربع درجات في كل دورة، ويتخلل البسطة مستطيلة الشكل فتحة كبيرة مستطيلة الشكل تحولت في فترة قريبة إلي باب صغير يؤدي إلي الشرفة الخارجية، وتبدو هذه الشرفة بارزة عن سمت بدن المئذنة وإن كان جدارها لم يتبق له من أثر سوى المساحة الأفقية البارزة في الواجهات الثمانية للمئذنة، وقد دفعنا ذلك إلي تقسيمنا للمئذنة من الداخل والخارج إلي قطاعين متحاجزين يعلوهما الجوسق الذي يمكن أن نعتبره الطابق الثالث للمئذنة، وللمؤذن الخيار في أن يؤذن في الشرفة السفلي أو الشرفة العليا.

وتتخذ المئذنة من الداخل نفس النظام كلما ارتفعنا إلي أن يصل المرء إلي الدورة الأخيرة فتصبح عدد درجاتها ثمان درجات، وتنقسم الدعامة المركزية إلى اثنتين وتظهر إلي يمين الدعامة غرفة مستطيلة الشكل صغيرة المساحة بنفس مقاييس الغرفة السفلي الواقعة إلي يسار الدعامة المركزية. وتنتهي الدورة الأخيرة بباب استحدث في فترة معاصرة يؤدي إلي الشرفة العلوية التي لم يبق أثر لجدرانها فعوضت بسياج يتألف من شبكة حديدية تدور بالمئذنة من سائر الجهات ويتوسط سطح البدن الجوسق العلوي للمئذنة وهو بناء مثمن الأضلاع تزدان أوجهه بتربيعات الزليج وتعلوه قبيبة مضلعة يتوجها سفود بارز يحمل ثلاث كرات (شكل٤٣).

هذا وقد استخدم في بناء المئذنة كتل متوسطة الحجم من الحجارة المصقولة أشبه بالقوالب مستطيلة الشكل التي صفت على شكل حليات وتلاحمت فيما بينها بملاط شديد الصلابة تتخللها عوارض خشبية (صورة ٣٦).

ونخرج من دراستنا لهذه المئذنة بأن لها طرازًا خاصًا يختلف عن طراز مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة العارية من الزخارف، ولا تفوتنا الإشارة في هذا الفصل إلي مئذنة جامع سيدي حسن باشا بمعسكر وتنسب إلي حسن باشا مؤسس مئذنة جامع الباشا ١٧٩٢م ويرجع تاريخ إنشاء جامع معسكر إلي نفس تاريخ إنشاء

جامع الباشا بوهران، وتشبه مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة وجامع الباشا بوهران، وبدنها أملس خال من الزخارف. أما في مدينة وهران نفسها فتوجد مئذنة تبدو على بعد كأنها مئذنة من مآذن بني زيان في كل تكويناتها المعمارية من الداخل أو من الخارج لولا أن اللوحة الحجرية التأسيسية المثبتة على بدن المئذنة تشير إلي أن الجامع والمئذنة من الفترة العثمانية، وينسب بناء المئذنة كما سجل في اللوحة التأسيسية إلي محمد باي عثمان الكبير ١٢٠٧هـ /١٧٩٢م، ومحمد باي هذا هو الذي افتتح ثغر وهران، و ترتبط هذه المئذنة ارتباطا وثيقا من حيث الشكل العام للمئذنة ونظام البناء بالجامع من حيث الشكل العام للمئذنة ونظام البناء بجامع تلمسان الكبير ويعبر هذا التشابه عن استمرار طراز بني زيان في فترة العثمانيين. أما المئذنة الوحيدة الجديرة بالذكر في هذا الفصل والتي لم نتمكن من الوصول إليها فهي مئذنة جامع صالح باي بعنابة التي أقيمت في ١٢٠٦هـ/٢ -١٧٩١ وفقا للنقش الكتابي المسجد في لوحة مثبتة على مدخل الجامع[١].

ومئذنة الجامع من المآذن أسطوانية الشكل من نوع المآذن قلمية الشكل التي تميز بها الطراز العثماني، وبدنها الرئيسي أملس عاطل من الزخرفة ينتهي بشرفة مستديرة بارزة عن سمت جدار البدن، ويتوسط سطح البدن على امتداده الصعودي جوسق يماثل البدن في الاستدارة، ولكنه قصير ينتهي من أعلي بشكل مخروطي مدبب ركب بقمته سفود يحمل ثلاث كرات معدنية (صورة ٣٧). ولا تبلغ هذه المئذنة في الرشاقة والارتفاع ما لمآذن جامع محمد على بالقلعة في القاهرة أو مآذن جامع سنان باشا. وربما أوحت هذه المئذنة ببداية ظهور هذا الطراز المبتكر في هذا الجامع ولظروف ما لم ينشر في الجزائر كلها فبقي نموذجا فريدا يعبر علي أي حال من الأحوال عن تطور المئذنة العثمانية في الجزائر.

وبهذا نكون قد أخذنا نماذج مختلفة من المآذن العثمانية التي امتازت بالتنوع في الأشكال ونقص في الدقة الأشكال والإتقان والمهارة في البناء عكس ما عرفته

---

(1) LES MOSQUEES EN ALGERIE. P. 64.

مآذن المغرب الأوسط من قبل. وتعتبر مئذنة جامع المنصورة في تصورنا أرقي ما وصلت إليه المئذنة الجزائرية من تطور، ولكن المئذنة لم تلبث أن جنحت إلي البساطة المتناهية في العصر العثماني برغم ما عرفته العمارة العثمانية من تطور. ولا حظنا في هذا الفصل أن المآذن العثمانية خالية من أية تأثيرات أندلسية كما كان الأمر من قبل بل امتازت بعمارة ذات طابع خاص.

وبدراستنا لهذه المآذن نكون قد سلطنا الضوء علي عمارة المآذن في المغرب الأوسط بدءا بعصر دولة بني حماد حتى نهاية الحكم العثماني، وتبقي بعد ذلك دراسة زخرفة المآذن في المغرب الأوسط. ونخرج من دراستنا المعمارية للمآذن بعدة خصائص تميزت بها:

فمن حيث عدد المآذن التي أقيمت في المساجد، نجد أن المسجد الواحد لم يكن مزودا بأكثر من مئذنة واحدة بخلاف ما كان شائعا في مصر الإسلامية والدولة العثمانية، فقد كان يتوج جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة ومدرسة السلطان حسن مئذنتان، وكان للجامع الأزهر ثلاثة مآذن وجامع محمد علي بالقلعة أربعة، وكان للمسجد الجامع ببورصة وجامع الفتح باسطنبول مئذنتان وجامع أيا صوفيا أربعة وجامع دمشق ثلاث مآذن، وجامع الرسول (صلي الله عليه وسلم) في المدينة أربعة، وجامع السليمانية بأدرنة بتركيا أربع، وجامع السلطان أحمد باسطنبول ستة. وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال محير: ما المغزى من الاكتفاء بمئذنة واحدة فقط في مساجد المغرب الإسلامي في حين تتعدد في المشرق وآسيا؟.

كذلك نلاحظ من حيث موقعها من المساجد أنها في المغرب الأوسط كانت تنتصب في المجنبة الشمالية للمسجد وأحيانا علي محور المحراب نفسه أو في أحد أركان بيت الصلاة أو الصحن. ففيما يتعلق بالمآذن التي تقع في المجنبة الشمالية علي نفس محور المحراب فتقليد لمئذنة جامع القيروان التي أقيمت في طليعة القرن الثاني الهجري و صفاقس في القرن ٣ هـ/٩ م، كما تمثله أيضا مآذن جامع قلعة بني حماد والمسجد الجامع بتلمسان و جامع المنصورة، وكلها مآذن تقوم علي نفس محور المحراب. أما المآذن القائمة في أحد أركان بيت الصلاة فمن أمثلتها مئذنة

جامع سيدي لخضر الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية للمسجد، ومئذنة جامع أولاد الإمام الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية لبيت الصلاة، وكذا مئذنة الجامع الجديد (الحواتين) بالجزائر العاصمة، ومئذنة جامع سيدي أبي الحسن الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية لبيت الصلاة، ومئذنة جامع الباشا بوهران وتقع في الزاوية الجنوبية الشرقية.

والحق أن موقع المآذن في الزوايا الركنية لبيت الصلاة أو الصحن وفي واجهة المسجد تقليد قديم ظهر بادئ ذي بدء في القيروان ثم في جامع المهدية ٣٠٤هـ/ ٩١٦م وموقعها علي هذا النحو في المساجد الجزائرية يشير إلي تأثير إفريقي ، بل إن هذا التأثير امتد إلي القاهرة الفاطمية وتمثل في مئذنتي جامع الحاكم بأمر الله حيث تقع في الركنين الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي وتبرزان عن الجدار الخارجي(١).

ومن حيث أشكال المآذن الجزائرية، فقد رأينا أن بعضها مربع الشكل وهو الظاهرة الغالبة المميزة للطراز المغربي الأصيل، وبعضها الآخر مثمنة الشكل. وأما المآذن المربعة الشكل فيمكن تصنيفها من حيث المظهر العام إلي نوعين: نوع يتألف من ثلاثة طوابق كما هو الحال في مئذنة جامع القيروان، ونوع يتألف من طابقين كما يتمثل في معظم المآذن الجزائرية، وربما يدعونا ذلك إلي القول بأصالة مئذنة جامع قلعة بني حماد التي تتكون في رأينا من طابقين فقط، وهي النموذج الذي احتذته مآذن الجزائر و المغرب الأقصي وكذلك مآذن الأندلس في عصر الموحدين.

أما المآذن المثمنة الشكل فقد اختصت بها مآذن العصر العثماني وتتمثل في مئذنة جامع الباشا بوهران ومئذنة جامع سيدي الخضر بقسنطينة وكذا جامع الداي الجزائر العاصمة.

وتجدر الإشارة إلي أن مآذن الجزائر بوجه عام ذات ارتفاع متوسط يتناسب مع صغر مساحة المسجد أو كبره علي عكس بعض المساجد في المشرق الإسلامي

---

(١) السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها، ص١٨.

وآسيا. فمئذنة جامع قطب منار مثلا يبلغ ارتفاعها ٧٣م، وجامع السليمانية باسطنبول ٦٣،٥٠م[1]، أما أعلي مئذنة في الجزائر فهي مئذنة جامع المنصورة التي لا يتجاوز ارتفاعها ٣٨م.

أما من حيث التكوين المعماري للمآذن الجزائرية، فيمكن تصنيفها إلي مآذن ذات دعامة مركزية مصمتة وأخرى جوفاء، ففي الأولي تكون الدعامة المركزية عادة مربعة وفي بعض الأحيان مستطيلة أو مثمنة في المآذن المضلعة، وتجدر الإشارة إلي أن الدعامة المركزية في مئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة خماسية الأضلاع. ويمكن الصعود في المآذن ذات الدعامة المركزية المربعة إلي أعلي البدن الرئيسي عن طريق سلم درجاته مثلثة أو مربعة في الزوايا ومستطيلة علي الجوانب، ولا توجد قاعدة عامة في التكوين الداخلي للمئذنة، فإن مقاسات الدعامة المركزية وعدد درجات السلم وعرضها وعددها في كل دورة يتغير من مئذنة إلي أخري، ويسقف السلم الصاعد إلي شرفة المئذنة عادة قبوات نصف اسطوانية تنحصر بين قبوتين متقاطعتين، ولعل في تكوين مئذنة جامع قلعة بني حماد، ومئذنة جامع قسنطينة ما يشير إلي وضوح مظهر الأصالة المعمارية فيهما.

أما المآذن ذات الدعامة المركزية الجوفاء فتمثلها مئذنة واحدة فقط في الجزائر وهي مئذنة جامع المنصورة من العصر المريني، ويمكن الصعود إلي أعلاها بواسطة منحدر أو طريق صاعد، ويقع داخل المئذنة غرف للحراسة متراكبة أي تتعدد الطوابق فيها، وهذه المئذنة من المآذن الفريدة في المغرب الإسلامي التي تتميز بهذه الظاهرة.

---

(1) BOUROUIBA®;...P.273.

الفصل الخامس

مقومات الزخرفة علي أوجه المآذن

في المغرب الأوسط

١) الزخرفة النباتية.

٢) الزخرفة الهندسية.

٣) النقوش الكتابية.

٤) المقرنصات.

لما كانت مساجد المغرب الإسلامي تقتصر مآذنها علي مئذنة واحدة لكل مسجد، فقد كان طبيعيا أن يخصها رجال الفن بعنايتها ويمهروها بكل القيم الجمالية المؤثرة فيودعونها قدرا كبيرا من الإبداع الفني ويفرغون علي جدرانها ضروبا متنوعة من الرقش والنقش والحليات وعلي هذا النحو تنوعت الزخرفة في المآذن الجزائرية حتى أصبحت حلة قشيبة من الزخارف النباتية والهندسية والكتابية بالإضافة إلي عنصر آخر استخدموه كمادة زخرفية هي المقرنصات. وسنحاول تتبع هذه العناصر الزخرفية علي المآذن الجزائرية بدءا بمئذنة قلعة بني حماد إلي المآذن التي أقيمت في أواخر الفترة العثمانية.

١ - عناصر الزخرفة النباتية:

قبل الحديث عن الزخرفة النباتية علي المآذن الجزائرية، لابد من الإشارة إلي أن العناصر النباتية لم تستخدم أول الأمر استخداما واسعا علي المآذن بخلاف الزخرفة الهندسية التي أصبحت من الخصائص المميزة لزخارف المآذن الجزائرية، ولكن علي الرغم من ذلك ففي مئذنة جامع قلعة بني حماد ما يمثل الزخرفة النباتية ويتمثل ذلك في اللوحة الحجرية التي تعلو عقد المدخل ويبلغ طولها ٩٤سم وعرضها ٣٢سم[1] (صورة ٣٨) وهذه اللوحة محاطة بإطار من الزخارف النباتية أيضا قوامها أغصان وفروع متموجة ومراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة، ويفصل الإطار الخارجي عن الحشوة المركزية شريط من الدوائر المنقوطة في وسطها والمتصلة فيما بينما كحبات اللؤلؤ،أما الحشوة المركزية فقوام زخارفها أغصان ومراوح تنتهي بأشكال زهرية مفصصة، وهذه الفروع والمراوح تتموج وتتداخل فيما بينها علي غرار ما يعرف بزخرفة التوريق (شكل ٤٤). ومن الواضح أن هذه الزخرفة تبدو بسيطة ومتأثرة كثيرا بزخارف مقصورة جامع القيروان المتأثرة بدورها بزخارف سامراء الجصية، ولا تختلف عنها إلا في أن زخارف مقصورة جامع القيروان قريبة إلي الطبيعة، بينما تظهر زخارف مئذنة جامع قلعة بني حماد محورة عن الطبيعة علي

---

(1) BOUROUIBA ®; APPORTS DE L'ALGERIE... P. 317.

غرار الطراز الثالث لزخارف سامراء الجصية. أما في مئذنة جامع قسنطينة فتختفي الزخارف النباتية تماما وهو أمر يثير التساؤل فيما إذا ما كانت قد اندثرت مع ترميم المئذنة وإجراء بعض الإصلاحات المضافة إليها، أم أن المئذنة الأم كانت تخلو من الزخارف النباتية.

أما المآذن الزيانية فتغلب عليها الزخرفة الهندسية، أما الزخارف النباتية فتكاد تنعدم تماما ماعدا مئذنة المسجد الجامع بتلسمان حيث تتمثل في الطوق النحاسي الدائري والمجوف الذي كان يتوج مئذنة المسجد الجامع إذ تتخلل الكتابة بعض المراوح النخيلية البسيطة ومنها ما ينتهي بثلاثة فصوص.

أما في الفترة المرينية فقد أخذت الزخرفة النباتية تشهد نوعا من الانتعاش، فنجدها ممثلة علي واجهة مئذنة جامع المنصورة إذ تشكل عنصرا أساسيا يزدان به مدخل المئذنة، كما تظهر علي امتداد الحشوة الأولي للواجهة زخارف نباتية محفورة في الحجر تتداخل فيما بينها وتنتهي ببراعم ومراوح نخيلية بسيطة، ويحيط بهذه الزخارف النباتية شريط من الكتابة علي أرضية نباتية، كما أن الحروف تنتهي بمراوح نخيلية (صورة ٣٩)، وإذا كانت الزخارف النباتية لا تتمثل في بدن مئذنة جامع سيدي أبي مدين فإنها تظهر عنصرا أساسيا في زخارف الجوسق الذي تزدان واجهاته بتوريقات وفروع نباتية متشابكة تنتهي بمراوح ثلاثية الفصوص قد نفذت باللون الأسود علي أرضية بيضاء (صورة٤٠) وتزدان بعض الحشوات بما يشبه زهرية تنبت منها تفريعات نباتية خضراء وسوداء وبيضاء وصفراء (شكل٤٥).

أما في الفترة العثمانية فان العناصر النباتية باتت محدودة جدا وأصبحت تستخدم في كثير من الأحيان مختلطة مع الزخارف الهندسية ففي مئذنة جامع سيدي لخضر، يظهر بأدنى الكوابيل شريط من الزليج يحمل زخارف متشابكة لأغصان وفروع نباتية صفراء اللون، أما في مئذنة جامع الداي بقصبة الجزائر، فالزخارف النباتية تقتصر علي فروع وأغصان متموجة تختلط مع بعض الزخارف الهندسية في حين تتزايد هذه الزخرفة النباتية نسبيا في مئذنة جامع الحواتين، وإن كانت تتخذ أسلوبا واحدا، فبدن المئذنة يزدان بوزرة بيضية الشكل قوامها تربيعات خزفية

صغيرة متلاصقة فيما بينها تشغلها توريقات نباتية وتشكيلات هندسية باللون الأخضر والأزرق والأصفر والأبيض (صورة٤١) أما في مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي فتتمثل في شريط عريض من الفسيفساء الخزفية يدور ببدن المئذنة قوام زخارفه أشكال نباتية من أغصان وفروع متموجة تختلط مع أشكال هندسية نجمية الشكل (صورة٤٢) أما في مئذنة جامع الباشا بوهران فالزخرفة النباتية تختفي تماما.

والحق أن الزخرفة النباتية تظهر علي استحياء علي المآذن الجزائرية،في حين وجدت التشكيلات الهندسية ضالتها في تحلية مسطحاتها الخارجية.

٢ - الزخرفة الهندسية :

أن أهم ما يلفت النظر في زخارف المآذن بالمغرب الأوسط، تلك الغلالة الحجرية التي تكسو الواجهات الأربعة لتلك المآذن وتتخذ شكل شبكة من المعينات المتراكبة والمتصلة فيما بينها، وهذا النوع من الزخرفة يعبر عنه باللغات الأوروبية بالزخرفة اللوزنجية LOSENGE GRATING[١].

شهدت مئذنة جامع قلعة بني حماد طرازا زخرفيا فريدا من نوعه بين المآذن، فقد ازدان وجه واحد منها فقط بالزخارف الهندسية الفريدة من نوعها بين مآذن المشرق والمغرب كله، فالقطاعان الجانبيان بواجهة المئذنة يزدان كل منهما بمشكاة مقعرة معقودة بعقد نصف دائري يحيط بعقد تشتبك فيه الفصوص ويتخذ شكل دلايات، ويدور هذا العقد حول مروحة تتشعع من وسطه الضلوع لتنتهي بفصوص متداخلة تشبه المحارة وتتخذ نفس سمات المشكاوات التي تزين برج المنار بالقلعة[٢] والواقع أن هذا النوع من الأشكال المحارية (شكل ٤٦) شاع استعماله في العمارة الحمادية[٣]، وبدلا من أن يطوق عقد مفصص كما هو ممثل في كثير من

---

(١) محمد عبد العزيز (مرزوق) : الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص٨٧.

(٢) بورويبة (رشيد): الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها ....ص٢١٣.

(3) GOLVIN (L);RECHERCHES ARCHEOLOGIQUES A LA KALAA ..... P.119.

الأمثلة الفاطمية بمصر، فإننا نشهده مطوقا بعقد بلغ الغاية في التعقيد، إذ يتألف من فصوص بعضها نصف دائرية، وبعضها الآخر مدببة تتقاطع فيما بينها. ومن المحتمل أن يكون الفنان الحمادي قد استوحي هذا التشكيل من العمارة الافريقيـــة بـــالقيروان ويتمثل في القبة المجزأة التي تعلو المحراب وكذا القبة التي تتقدمه.

وبالإضافة إلي هذا المثال هناك أشكال هندسية أخري استعملت في المئذنة مــن ذلك اتخاذ تشكيلات زخرفية من قوالب الآجر المتراكبة في أشكال منتظمـــة، وهــذه القوالب مطلية بالميناء أخضر اللون (شكل ٤٧) ويزدان إطار النافذة الصماء بالمئذنة بزخرفة هندسية علي شكل حرف (Y) اللاتيني تحيط به قطع من الآجــر، ويتوســط الزخرفة قطع من الفسيفساء الخزفية مربع ومعينة الشكل مطلية بـــاللون الأخضــر ويحيط بالزخرفة كلها عقد نصف دائري مدبب (شكل ٤٨). أما المشكاوات المسطحة السفلي فتزدان بقطع من الآجر المزجج أخضر اللون صــفت علـــي نحـــو متنـــاوب وشكلت ما يشبه الشبكة تاركة فيما بينها فراغا بداخله أشــكال متعامـــدة (صــلبان) أضلاعها متساوية، ويظهر من خلالها طلاء أرضية المشكاة (شكل ٤٩)، أما المشكاة الثانية فتكسوها قطع خزفية خضراء مزججة علي هيئة أشكال هندســية رؤوســها مستديرة مثقوبة في الوسط حتى يظهر طلاء سطح المشكاة (شكل ٥٠) وتتجلي هنا مقدرة الفنان الحمادي علي التنويع والتلاعب بالألوان بين سطح المشكاة والخــزف الأخضر مما يضفي علي المئذنة جمالا ورونقا، وبفضل ذلك تميزت مئذنة جامع قلعة بني حماد بأصالة فنية بين مآذن المغرب الإسلامي كله في فترته المبكرة، وكان لهذه الأشكال الزخرفية تأثير علي القصور والكنائس في بالرمو بصقلية[1].

واستنادا إلي الأدلة المادية يتبين لنا أن البلاطات الخزفية ظهرت لأول مرة فـــي مئذنة جامع قلعة بني حماد، ويري (ليزين) أن استعماله في هذه المئذنة يعكس تأثيرا

---

(1) BLANCHET(PAUL);"LA KALAA DES BENI-HAMMAD".IN. ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES LETTRES. COMPTES RENDUS DES SEANCES DE L'ANNEE, 1897, P.468.

شرقيا إيرانيا[١] ولكن رأيه هذا لا يستند علي أدلة مادية يمكن الاطمئنان إليها، وحسب مطالعتنا الخاصة لم نجد مثالا أقدم من مئذنة القلعة، لأن أقدم أمثلة المآذن الإيرانية المزينة بالبلاطات الخزفية يرجع تاريخها إلي القرن السادس الهجري ثم أن طريقة استخدام البلاطات الخزفية في تلك المآذن الإيرانية تختلف عنها في مئذنة القلعة، حيث شمل في القلعة في مجالات واسعة، وإذا كنا قد اعترضنا علي هذا الرأي فإن ذلك لا ينفي ما لإيران من شهرة في صناعة البلاطات الخزفية، فهي عريقة في صناعتها، ولكن لا يعني بالضرورة أن تكون قد سبقت المغرب الأوسط في استعمالها لزخرفة المآذن خاصة إذا علمنا أن البلاطات الخزفية في القلعة استعلمت في كسوة الأرضيات والجدران وشبابيك النوافذ ويمثل هذا رواق دار البحر في قلعة بني حماد. ويري (مارسيه) أن القلعة الحمادية تضم أمثلة للبلاطات الخزفية سبقت بنحو قرن من الزمن مجموعة بلاطات (قونية) التي تعد أقدم البلاطات الخزفية[٢].

ومن تصوري وفي ضوء الأدلة المادية والتسلسل التاريخي أن استعمال البلاطات الخزفية في زخرفة المآذن ابتكار حمادي.

وفي عصر بني زيان بلغت الزخرفة الهندسية أوجها، ونستطيع تقسيم مآذن بني زيان إلي نوعين، الأول يتعلق بالمآذن المزينة بشبكة من المعينات المتدخلة، وهذه الزخرفة ظهرت لأول مرة في محراب جامع قسنطنية، ثم استعملها الموحدون في زخرفة مآذنهم حيث ظهرت لأول مرة في جوسق مئذنة الكتبية بمراكش، ثم شهدت رواجا في مئذنة جامع حسان بالرباط، وجامع القصبة الكبير باشبيليه[٣] وفي هذه المآذن نلاحظ أن المعينات المتشابكة ترتكز علي عقد أو عقدين أو ثلاثة، بينما ترتكز في المآذن الزيانية علي عقدين ويتمثل ذلك في الواجهة الشرقية لمئذنة المسجد

([1]) LEZINE (A); LE MINARET DE LA KALAA ...P.270.

([2]) MARCAIS (G);POTERIES ET FAIENCES DE LA KALAA DES BENI-HAMMAD XI^{e} (SIECLE) D.BRAHAM EDITEUR. CONSTANTINE 1913, P. 10.

([3]) BOUROUIBA (A), L'ART RELIG ...P.187.

الجامع بتلمسان وعلي ثلاثة عقود في مئذنة جامع سيدي أبي الحسن، وفي جميع الجهات في مئذنة جامع سيدي إبراهيم وفي الواجهة الشرقية بندرومة، وعلي أربعة عقود في الواجهة الشمالية والغربية والجنوبية لمئذنة المسجد الجامع بتلمسان، وعلي خمسة عقود في الواجهة الشمالية والجنوبية بندرومة.

أما أشكال العقد فتختلف من عصر إلي آخر، فالموحدون استعملوا العقود المفصصة فقط، بينما استخدم الزيانيون العقد خماسي الفصوص، وكذلك العقد متعدد الفصوص (١١ فصا) والعقد المقرنص المزود برأس أو رأسين أو ثلاثة رؤوس، وتختلف العقود من مئذنة لأخرى، فبعضها يتألف من سبعة فصوص، وبعضها من تسعة، وبعضها الآخر عقود متجاوزة منكسرة كما هو الشأن في مئذنة جامع سيدي إبراهيم الذي تزدان الوزرات المربعة فيها بالفسيفساء، كما تزدان المآذن الزيانية بحشوة زخرفية تقع عادة أدني شبكة المعينات تمتد عرضا حينا، ويقل عرضها عنها حينا آخر.

أما النوع الثاني من المآذن الزيانية فعاطل من شبكة المعينات المتداخلة ويمثل هذا النوع جامع الجزائر العاصمة، ومئذنة جامع أولاد الإمام، ومئذنة جامع المشوّر، فبالنسبة للمئذنة الأولي، فإنها فقدت خصائصها الزيانية تقريبا، أما الثانية فتزدان بحشوتين مستطيلتي الشكل متراكبتان العليا منهما مزينة بعقدين خماسي الفصوص داخل إطار مستطيل يطوقه بدوره إطار آخر مستطيل من الفسيفساء وهذا تجديد ظهر واضحا في تطور نظام الزخرفة علي المآذن في المغرب الأوسط. أما مئذنة جامع المشور فتزدان جوانبها الأربعة بحشوة مستطيلة تتكون من صفين من العقود المتراكبة خماسية الفصوص وإحدى واجهاتها مزينة بحشوة مستطيلة الشكل تتخللها شبكة من المعينات المتشابكة ولكن ليست كالتي نجدها في مئذنة جامع تلمسان أو أبي الحسن، ويزين أرضيتها قطع هندسية من الزليج وألوانها الأبيض والأسود تمتزج معها توريقات ثلاثية الفصوص، ويحيط بجميع الزخرفة شريط من الكتابة (صورة ٤٣).

أما في مئذنة جامع سيدي أبي مدين فتزدان واجهاتها بشبكات من المعنيات

المتشابكة ترتكز علي ثلاثة عقود مقرنصة ذات رأس واحد وذلك في كل من الواجهتين الشرقية والغربية للمئذنة ويتخلل الزخرفة أحيانا توريق من ثلاث شحمات (شكل ٥١) كما تزدان المئذنة أيضا بشريط تشغله شبكة من صف واحد من المعينات هي امتداد لعقد تختلط الخطوط المستقيمة بالمنحنيات مزود إما براس واحد أو براسين مدببين، وهذا النوع من الزخرفة أستخدم من قبل في زخرفة جميع واجهات مئذنة جامع الكتبية بمراكش، أما الشرفة فتزدان بست عشرة شرافة مدببة ملبسة بالفسيفساء.

ويشير بورويبة أن المرينيين هم أول من زين شرافات المآذن بالفسيفساء[1]، ويمثل هذه الظاهرة ثلاثة مساجد في فاس هي:

المسجد الجامع بفاس، وجامع أبي الحسن، وجامع الشرابليين، أما واجهات جوسق مئذنة سيدي أبي مدين فتزدان بشريط من الزخارف الهندسية لا تعدو أشرطة مستطيلة الشكل ضيقة تتقاطع فيما بينها وتكون أطباقا نجمية متقنة بالإضافة إلي بعض الخطوط المتعرجة (صورة ٤٤).

ومن الجدير بالذكر أن جوسق المآذن المرينية في الجزائر وتتمثل في مئذنتي جامع سيدي أبي مدين، وسيدي الحلوى يغطيها كسوة من الفسيفساء الخزفية، وفي تصوري أن هذا النوع من الزخرفة يعكس تأثيرا زياتيا بدليل أن أقدم جوسق تزينه كسوة الفسيفساء الخزفية هو جوسق مئذنة جامع سيدي أبي الحسن في الفترة الزيانية ويرجع تاريخه إلي ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦م في حين أن أقدم مثال مريني لهذه الكسوة الفسيفسائية الخزفية تتمثل في جوسق مئذنة جامع سيدي أبي مدين ٧٣٨ هـ / ١٣٣٨م.

ولقد شاع استخدام الزخارف الهندسية علي نطاق واسع وعلي نحو فريد من نوعه في مئذنة جامع المنصورة إلي حد أن الواجهة كسيت كلها بشبكة من المعينات الهندسية تحددها ضفيرتان الأولي عبارة عن فصوص مستديرة تتناوب مع أخري

---

(1) BOUROUIBA ®; L'ART RELIG...P. 274.

منكسرة، أما الضفيرة الثانية فتتألف من فصوص دائرية فقط، ويشكل تقاطع الضفيرتين معينات علي شكل عقود مفصصة تتناوب فيها فص نصف دائري مع فصين مدببين، وتقوم هذه الشبكة من المعينات علي عقدين كل منهما نصف دائري ذي ضفيرتين وتشكلان سبعة فصوص نصف دائرية يتناوب كل واحد منها مع فصين مدببين ويكسو سطح هذه المعينات قطع خزفية بنية وزرقاء صفت بالتناوب مع قطع خضراء في أنصاف المعينات المحاذية لإطارات اللوحة والفراغ الفاصل بين ضفيرتي المعينات (شكل ٥٢) وتزدان المئذنة أيضا بزخارف معقدة من أشكال هندسية متداخلة مع أغصان ووريقات نباتية بالإضافة إلي كتابات (شكل ٥٣)، أما المحارتان المتناظرتان اللتان تزينان الحشوة الزخرفية الأولي التي تعلو مدخل الباب فصغيرتان وفي تصوري أنها تقليد لزخرفة مئذنة جامع قلعة بني حماد من القرن ١١م (صورة ٣٩).

وإذا كانت الزخارف الهندسية عنصرا أساسيا في تزيين المآذن الزيانية والمرينية، فقد قل استخدامها في العصر العثماني، وأصبحت وقفا علي بعض العناصر المعمارية، ففي مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة يمكن اعتبار الكوابيل التي تدعم شرفة المئذنة بمثابة تنميقات هندسية بالإضافة إلي دورها المعماري (صورة ٢٧)، أما في مئذنة جامع الجيش بالجزائر العاصمة فقد اقتصرت الزخرفة الهندسية علي خطوط متعرجة بالإضافة إلي بعض المربعات البيضاء التي تتناوب مع أخري سوداء (صورة ٢٨)، بينما يظهر في مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي نوع جديد من الزخارف الهندسية علي الواجهات الأربع للمئذنة، وتتألف من ثلاثة طوابق متراكبة في عقود توأمية ثلاثة في كل طابق تحملها أربعة أعمدة من الرخام، وهذه العقود مشقوقة من وسطها، ويفصل بين الطابق والآخر شريط عريض من الزخارف النباتية تتمثل في بلاطات خزفية (صورة ٣٢)، وهذا النوع من الزخارف استحدث في الفترة العثمانية، وتنفرد به هذه المئذنة وحدها إذ لا نجد له نظيرا في المآذن الاخري في الفترة نفسها، وأما الزخرفة الهندسية في مئذنة جامع الباشا بوهران فتختفي تماما في أوجه المئذنة وتقتصر الحليات علي بعض العقود المتشابكة

والمتداخلة التي تزين كل حشوة في كل واجهة من واجهات المئذنة (صورة ٣٥).
أخذت الزخرفة القائمة علي تشكيلات الفسيفساء انتشارا واسعا في تزيين المآذن الزيانية والمرينية بوجه خاص، ويبدو أنهم تأثروا في ذلك بالموحدين الذين أكثروا في زخرفة مآذنهم(١) وإن كان الحماديون في حقيقة الأمر هم أول من استعمل البلاطات الخزفية في زخرفة مآذنهم، ويغلب علي الظن أن هذه الطريقة في الزخرفة انتقلت إلي الموحدين بعد دخولهم القلعة، وربما كانت المئذنة في تلك الفترة ما تزال تحتفظ بصورتها القشيبة، فتأثر الموحدون بزخارفها، وان كان بعض الباحثين يرون أن بلاد الأناضول هي مصدر البلاطات الخزفية(٢) وإذا صح رأينا فان مئذنة القلعة كان لها أثر بارز في زخارف المآذن الموحدية والزيانية باعتبارها مصدرا للبلاطات الخزفية. فلأول مرة في تاريخ الفن الإسلامي تظهر في مئذنة جامع سيدي أبي مدين الحشوة العلوية استخدمت فيها زخرفة الفسيفساء الخزفية سواء في أوجه المآذن أو في الشرافات بخلاف البائكة التي تتوج بدن المآذن موحدية الطابع، وهذا بطبيعة الحال إبداع مريني في مجال الفنون الإسلامية(٣) (صورة ٢٤ و ٢٥).

ويمكن اعتبار مرحلة بني زيان وبني مرين المرحلتين اللتين عرفت فيهما المئذنة الجزائرية أوج تطورها من حيث الأناقة والمظهر الجمالي، بينما أصبح بدن المآذن في الفترة العثمانية أملسا وخاليا من الزخارف المشبكة البارزة المكونة من الآجر، واقتصرت الحليات علي بعض قطع من الزليج(٤).

٣ - النقوش الكتابية :

لم تلعب الزخرفة الكتابية دورا كبيرا في زخرفة المآذن الجزائرية فباستثناء بعض الأمثلة القليلة للغاية يمكن أن يقال أنها كانت تخلو من هذه النقوش الكتابية.

---

(1) TERRASSE (H); L'ART HISPANO MAURESQUE, PARIS LES EDITIONS G.VAN OEST 1932, P. 323.

(2) EKREM (A); OP CIT, P. 180.

(3) BOUROUIBA ®; APPORTS DE L'ALGERIE... P. 301.

(4) RICARD(P), POUR COMPRENDRE L'ART ...P. 201.

فمئذنتا جامع قلعة بني حماد وجامع قسنطينة تخلوان تماما من أية نقوش كتابية، ولكننا لاحظنا في دراستنا أن أول مثل للمآذن التي تحمل نقوشا كتابية يتمثل في الطوق النحاسي الدائري الذي كان يتوج أعلي مئذنة المسجد الجامع بتلمسان في عصر بني زيان، وهو الآن محفوظ بمتحف الآثار القديمة بالجزائر العاصمة ويتمثل ذلك في عبارة (اليمن والإقبال) التي كتبت بخط لين بارز علي الأرضية بحيث تتدخل بعض المراوح النخليلية مع حروف الكتابة وتنتهي ببرعم أو أكثر يتوسطها (شكل ٥٤).

ويحيط بأحدي واجهات مئذنة جامع المشور شريط من الكتابة بالخط النسخي علي مهاد من التوريقات وقد تعذر علينا قراءتها بسبب العوامل الطبيعية التي أثرت علي الشريط (صورة ٤٣).

أما الأستاذ بورويبة فاستطاع أن يقرأ كلمتي (اليمن و الإقبال) وقد سبق أن سجلتا في مئذنة المسجد الجامع بتلمسان وكذلك علي زخرفة مدهونة يحتفظ بها متحف تلمسان حاليا، ويقال أنه عثر عليها في أحد المنازل القديمة بالمدينة، كما تزدان بها مزهرية بقصر الحمراء بغرناطة، ومن الجدير بالذكر أن الاستاذ بورَويبة عثر علي هذه العبارة منقوشة علي سوار في قلعة بني حماد أثناء الحفريات التي أجراها في الجهة الجنوبية من بيت الصلاة بالمسجد الجامع بالقلعة الحمادية وذلك في سبتمبر١٩٦٧[1]، كما عثر علي نقش كتابي آخر يتمثل في عبارة يتضرع صاحبها لله سبحانه وتعالي ونطالع فيها النص التالي: "يا ثقتي يا أملي،أنت الرجا أنت الولي، اختم بخير عملي " وقد شاع هذا النوع من العبارات في عصر بني مرين حيث يتمثل في الرواق الداخلي في مسجد سيدي أبي مدين[2].

وهناك مثل آخر للنقوش الكتابية علي مآذن المغرب الأوسط يتمثل في واجهة مئذنة سيدي أبي مدين حيث توجد حشوة مربعة إطارها الخارجي يزدان بخطوط

---

(1) BOUROUIBA ®; APPORTS DE L'ALGERIE ...P.316.

(2) IBID, P. 316.

هندسية متضافرة، أما وسط الحشوة فتشغلها كتابة أنيقة بالخط الكوفي مربع الزوايا نصفها وفق قراءتنا (بركة محمد)،، في حين قراءها (مارسيه) علي أنهـا (ببركـة محمد) (شكل ٥١)، والدليل علي صحة قراءتنا وجود نفس هـذا الـنقش الكتـابي (بركة محمد) علي أحد جدران مسجد الشرابليين بفاس في العهد المريني[١].

كذلك يحيط بالإطار الذي زين مدخل مئذنة جامع المنصورة من نفـس العصـر شريط من الكتابة الخط ألنسخي علي أرضية نباتية بحيث تتداخل الأغصان والفروع مع الكتابة إلي حد يتعذر معه قراءتها، وتضمن النقش ما يشير إلـي تـاريخ بنـاء الجامع والمئذنة وقد سبق أن أشرنا إليه من قبل في دراستنا لمئذنة جامع المنصورة من الوجهة المعمارية (صورة ٣٩).

٤ - المقرنصات:

المقرنصات أو المقربصات أو الدلايات كلها مسميات لمدلول واحد وهو عنصـر أصله معماري ثم تحول إلي عنصر زخرفي أقبل عليه المزوقون كحليـات معماريـة بحيث أصبح عنصرا من أبرز عناصر الزخارف الإسلامية التـي لـيس فيهـا روح. وأصل هذا العنصر الزخرفي يرجع إلي الكوة التي تقام فوق الأركان الاربعة لتحـول القاعدة المربعة إلي مثمنة أو المثمنة إلي ١٦ ضلعا أو إلي ٣٢ ضلعا أو إلـي ٦٤ حسب عدد الحطات تمكينا لمحيط القباب نصف الكروية الاستقرار عليهـا، ويعـرف الفراغ القائم ما بين القاعدة المربعة ومحيط القبة برقبة القبة، وقد تفنن المهندسون في وضع تلك الكوي وفي تنسيقها وتزيينها حتى بدت تحفا رائعة من الفن الجميـل. ولقد شاع استخدام المقرنصات في تزيين الفتحات في أبواب ونوافذ وعقود ومداخل وأركان وكذا المئذنة[٢].

وأول مثل للمقرنصات الزخرفية نشهده في القبة التي تتقدم المحراب بالمسـجد

([1]) BOUROUIBA ®; L'ART RELIG …P. 274.

([2]) محمد عبد العزيز (مـرزوق): الفـن الإسـلامي تاريخـه وخصائصـه، مطبعـة أسـعد، بغـداد ١٩٦٥،ص١٨٤.

الجامع بتلمسان المؤرخ ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م، ولكن أصل القرنصات حسب الأدلة المادية وحتى التسلسل التاريخي يرجع إلي قلعة بني حماد، وإن كانت مقرنصاتها بدائية تخلو من مظاهر الجمال التي تتمثل في القبة التي تتقدم المحراب بجامع تلمسان.

وتظهر المقرنصات في واجهة مئذنة جامع المنصورة في عصر بني مرين علي شكل صف من المقرنصات (صورة ٤٥)، وهذه المئذنة هي الوحيدة من بين مآذن المغرب الإسلامي التي تزدان بالقرنصات[١].

(1) GABRIEL ®; L'ART DECORATIF MUSULMAN, PARIS, MARCEL RIVIERE EDITER, PARIS 1934, P. 31.

الخاتمـــــة

خاتمة:

استطاعت مئذنة جامع القيروان أولي مآذن المغرب الإسلامي أن تحـدد شـكل المئذنة وتخطيطها ووضعها في الجامع في المغرب والأندلس، وذلك منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، ثم شهدت المئذنة بعض المتغيرات الطفيفة نتيجة لتعرضـها للتأثيرات والتقاليد الإقليمية الغالبة في كل بقعة من أرض المغرب، وأن ظلت تحتفظ بالشكل العام المربع الذي يعتبر صدي لمئذنة جامع القيروان، ويتمثل ذلك في مئذنة جامع قلعة بني حماد التي تتشابه في الشكل العام مع مئذنة القيروان، وتختلف معها في كثير من التفاصيل المعمارية والزخرفية، فمئذنة جامع قلعة بني حماد تتكون من طابقين وتعتبر مصدرا لمآذن الموحدين الذين تأثروا بالعمـارة الحماديـة بعـد أن استولوا علي قلعة بني حماد، ولقد ظهر تأثير مئذنة القلعة علـي مئذنـة الكتبيـة بمراكش، ومئذنة جامع حسان بالرباط، وكذلك علي مئذنة جامع الموحدين باشـبيلية من حيث الطابع العام، ومن حيث التوزيع الزخرفي.

ولقد أثرت المآذن الموحدية بدورها في مآذن بني زيان سواء في النظام العام أم في الزخرفة، أما من حيث النظام الداخلي للمآذن، فلقد سارت مسار مئذنة القلعة إلي شكل كبير، وتعتبر مئذنة جامع المشور الفريدة من نوعها بين مآذن المغرب أرقي ما وصل إليه تطور فن زخرفة المآذن الزيانية بالمغرب الأوسط. ولهـذا السـبب فـان المآذن الزيانية تتميز بوحدة في جوهر البناء مع بعض الاختلافات البسـيطة التـي تتمثل في فتحات الإضاءة، أو المقاييس والنسب وفق مساحة المسجد، وأما من حيث المظهر الخارجي فقد تشابهت فيما بينها في طريقة توزيع الزخارف ورغـم وجـود بعض الاختلافات في التفاصيل كما هو الحال في مئذنة جامع سيدي أبـي الحسـن، ومئذنة جامع المشور، ومئذنة جامع أولاد الإمام. هذا وقد استخدمت فـي زخرفـة واجهات مآذن هذا العصر وجواسقها لأول مرة الكسـوات الخزفيـة، وكـان لهـذه الطريقة صدي كبير في العصر الذي يليه.

أما في عصر بني مرين، فتمثل مئذنة جامع المنصورة أرقي ما وصـلت إليـه المئذنة الجزائرية حيث عرفت تطورا مذهلا من حيث الطابع العام، والنظام الـداخلي

والكسوات الخزفية، فقد حذت هذه المئذنة حذو المآذن الموحدية وعلي الأخص مئذنة جامعي القصبة والكتبية بمراكش، ومئذنة جامع حسان بالرباط، ومئذنة جامع الموحدين باشبيلية وذلك باحتوائها علي دعامة مركزية جوفاء تتكون من غرف متراكبة استخدمت مخازن لأدوات الجامع.

ولعل استعمال الطريق الصاعد في مئذنة جامع المنصورة يمثل تطورا في عمارة المآذن في عصر بني مرين، وقد فاقت هذه المئذنة بوجه خاص ومآذن بني مرين بوجه عام مآذن المغرب الأوسط في العصور السابقة حيث بلغت غاية التطور في مجال الزخرفة والبناء مما يعبر عن قدرات عالية وصل إليها فن العمارة والزخرفة في العصر المريني.

وفي العصر العثماني عرفت المئذنة الجزائرية تطورا في الأشكال لم تكن معروفة من قبل، فأقيمت مآذن مربعة القاعدة علي غرار المآذن المغربية التقليدية وأخري مثمنة الشكل، وأخري مربعة ومثمنة في آن واحد، ولقد أثري العثمانيون العمارة الإسلامية في الجزائر ببعض الأشكال والطرز التي نعتبرها تطورا لفن المئذنة في العمارة الإسلامية ، إلا أن الشكل العام للمئذنة العثمانية اتسم بانحطاط في الذوق الفني، فقد أصبحت أبدان بعض المآذن عاطلة من الزخارف، بينما ازدان بعضها الآخر بقطع من الزليج أي أن المئذنة الجزائرية فقدت حلتها الزخرفية التي تميزت بها في عصر بني زيان وبني مرين، كما يعتبر استعمال الشرافات المنكسرة المنحنية الممثلة في جامع الجيش وجامع الحواتين بمدينة الجزائر المفتوح علي واجهاته الأربع يعبر عن ابتكار عثماني لم يكن معروفا من قبل، ويعتبر الجوسق الوحيد في العمارة الاسلامية بالجزائر الذي أقيم علي هذا النظام.

وبالرغم مما عرفته العمارة العثمانية من تطور، فان المآذن التي أقاموها بالجزائر تفتقد الدقة والإتقان والمهارة في البناء، وحق لنا القول أن العصر العثماني يعتبر مرحلة تقهقر وانحطاط في تاريخ المئذنة الإسلامية بالجزائر.

وأما من حيث تطور العناصر الزخرفية علي المآذن الجزائرية فلقد رأينا أن

الزخرفة النباتية لم تكن تستعمل علي نطاق واسع، فقد كانت تقتصر علي بعض الفروع والأغصان المتموجة وبعض المراوح النخيلية البسيطة وهي إن كانت قد مرت بمرحلة انتعاش في عصر بني مرين، إلا إنها اضمحلت تماما في العصر العثماني،وأصبحت تتمثل ممتزجة مع بعض الزخارف الهندسية.

أما الزخارف الهندسية فقد سارت منذ عصر بني حماد حتى العصر الزياني فالمريني، وتميزت بظهور أشكال جديدة، وطريقة جديدة في الزخرفة أعطت للمآذن الجزائرية طابعا مميزا لها في العصور الوسطي، بينما شهدت اضمحلالا واضح المعالم في العصر العثماني.

ونستنتج مما سبق أن العصرين الزياني والمريني يمثلان المرحلة التي بلغت فيها المئذنة الجزائرية أوج تطورها من حيث التكوين المعماري والزخرفي والمظهر الجمالي.

أما عن الزخرفة الكتابية فلقد تمثلت في بعض العبارات الدعائية المتكررة علي أوجه بعض المآذن وكذلك في عبارات تضرع لله وكتابة تأسيسية كما هو الحال في مئذنة جامع المنصورة، ولقد سجل أغلبها بالخط النسخ ماعدا كتابة واحدة بالخط الكوفي.

أما عن المقرنصات فقد انفردت بها مئذنة جامع المنصورة بتلمسان إذ ظهرت في شكل صف تتفاوت فيه الحطات واحدة كبيرة وأخري صغيرة بالتناوب، وربما كان لغلبة الزخرفة الهندسية أعظم الأثر في الإيحاء للباحثين في زخارف المآذن بالمغرب الأوسط بأن الزخرفة الهندسية كانت العنصر الرئيسي في تنميق المآذن.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	١١
الدراسة التمهيدية	١٧
١- التعريف بالمئذنة	١٧
٢- أشكال المآذن	٢٠
٣- المآذن الأولى في الإسلام ومصادرها	٢١
٤ - المآذن المبكرة في المغرب والأندلس	٢٥
أ- مئذنة جامع القيروان	٢٥
ب- مئذنة جامع صفاقس	٢٧
ج - مئذنة جامع قرطبة	٢٧

الفصل الأول

المئذنة في عهد بني حماد

تمهيد	٣١
١ - الطابع العام لمآذن بني حماد	٣٢
٢ - مئذنة جامع قلعة بني حماد	٣٤
٣- مئذنة المسجد الجامع بقسنطينة	٤٢

الفصل الثاني

المئذنة في عهد بني زيان

تمهيد	٤٩
١ - الطابع العام للمئذنة في عهد بني زيان	٥٠

الموضـــــــوع	الصفحة

٢ – مئذنة المسجد الجامع بتلمسان ٥٣

٣ – مئذنة جامع ندرومة ٥٦

٤– مئذنة جامع سيدي أبي الحسن........................ ٥٨

٥– مئذنة جامع المشور ٦١

٦– مآذن زيانية أخرى ٦٣

الفصل الثالث

المئذنة في عهد بني مرين

تمهيد ٦٩

١ – الطابع العام للمئذنة في عهد بني مرين........................ ٧٠

٢ – مئذنة جامع المنصورة بتلمسان........................ ٧٢

٣– مئذنة جامع سيدي أبي مدين........................ ٨٢

الفصل الرابع

المئذنة في عهد العثمانيين

تمهيد ٨٩

١– الطابع العام للمئذنة في عهد العثمانيين ٩٠

٣– مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة........................ ٩٢

٣– مئذنة جامع الجيش بقصر الداي بالجزائر العاصمة........................ ٩٤

٤– مئذنة جامع الحواتين (الجامع الجديد) بالجزائر العاصمة........................ ٩٦

٥– مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي........................ ١٠٠

٦– مئذنة جامع الباشا بوهران........................ ١٠٢

الفصل الخامس

مقومات الزخرفة علي أوجه المآذن

في المغرب الأوسط

١ - عناصر الزخرفة النباتية ١١١

٢ - الزخرفة الهندسية ١١٣

٣ - النقوش الكتابية ١١٩

٤ - المقرنصات ١٢١

الخاتمة ١٢٣

فهرس الأشكال ١٢٩

فهرس الموضوعات ....

ثبت الأشكال واللوحات

أولاً: الاشـــكـــال

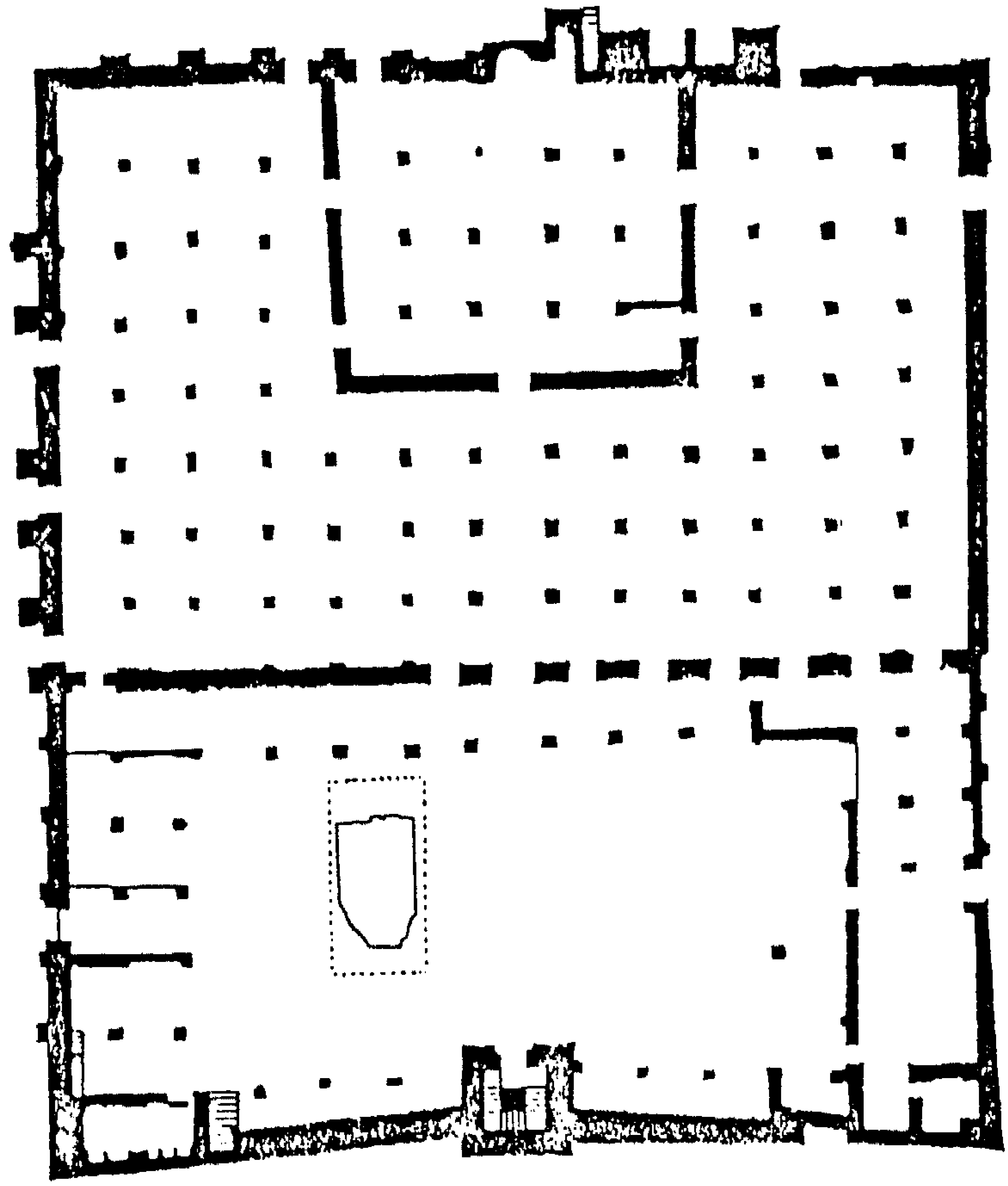

شكل (١) : جامع قلعة بنى حماد . (عن بورويبة)

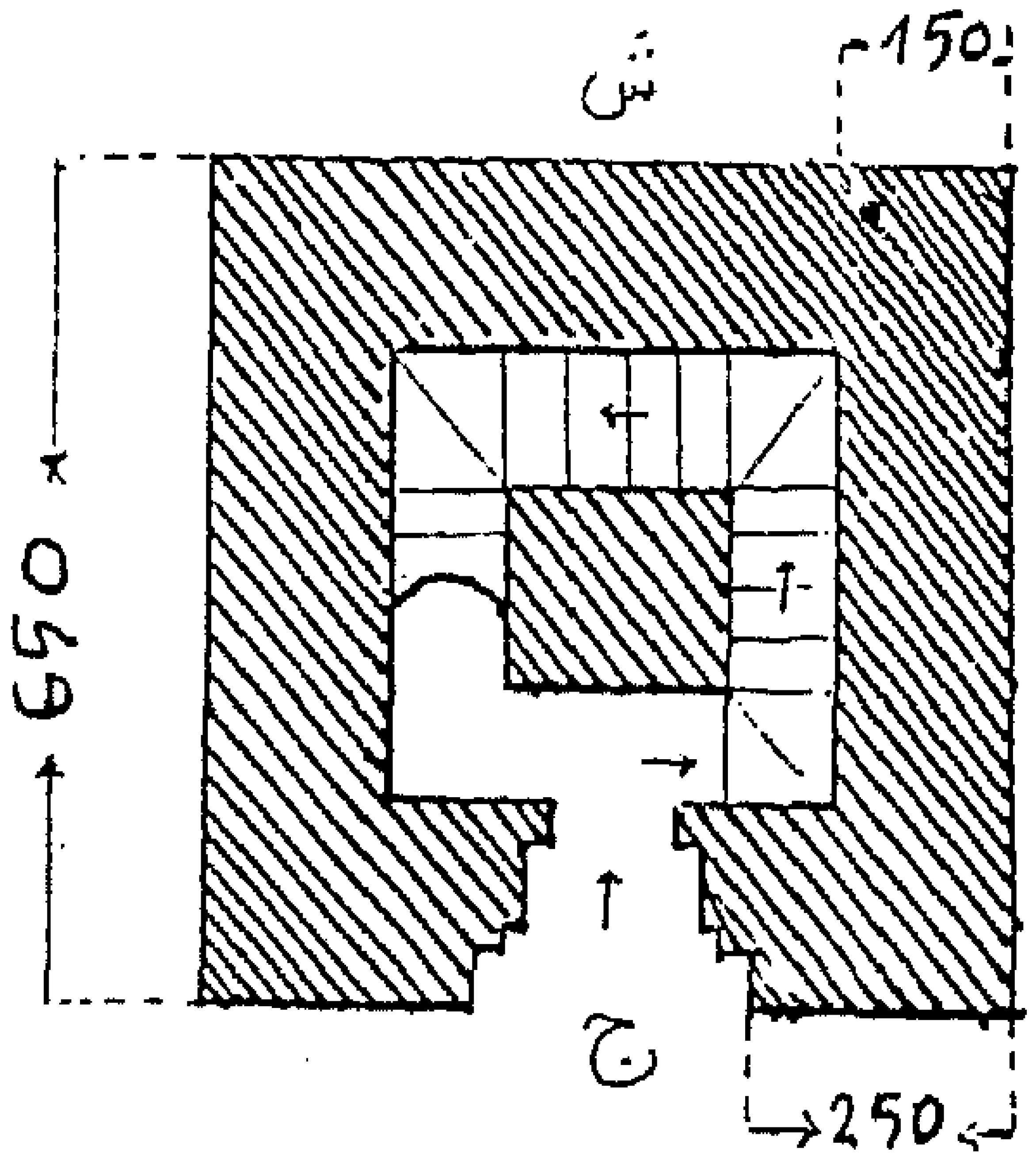

شكل (٢) : مقطع عرضى لمئذنة
مسجد قلعة بنى حماد
بسلم ١ : ١٢٥

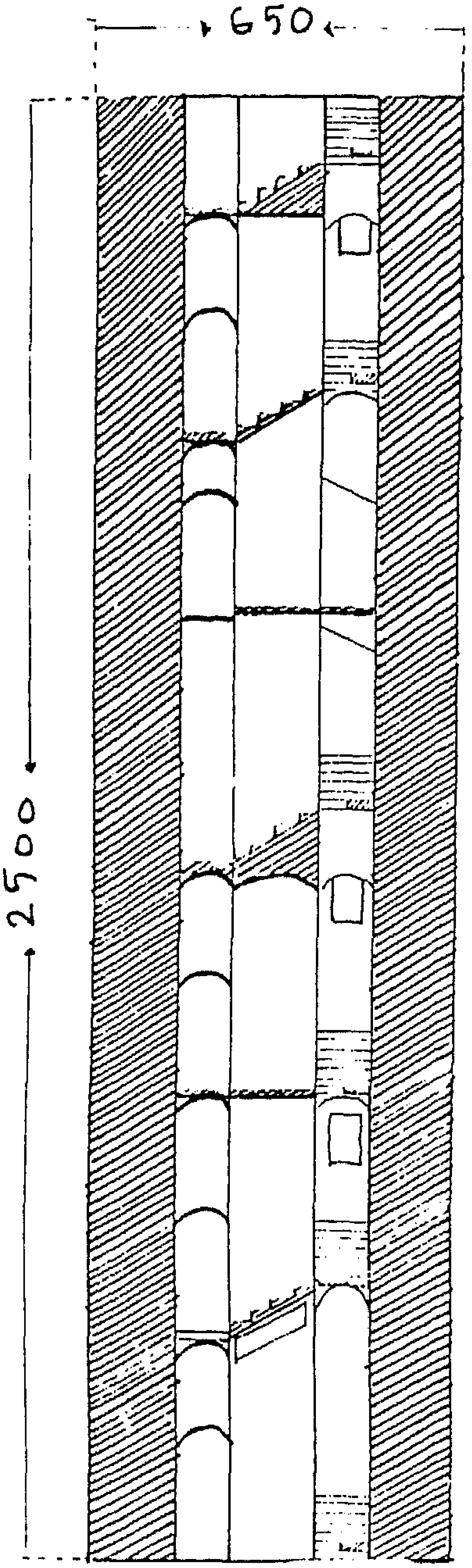

شكل (٣) : مقطع طولى لمئذنة مسجد قلعة بنى حماد
بسلم ١ : ١٢٥

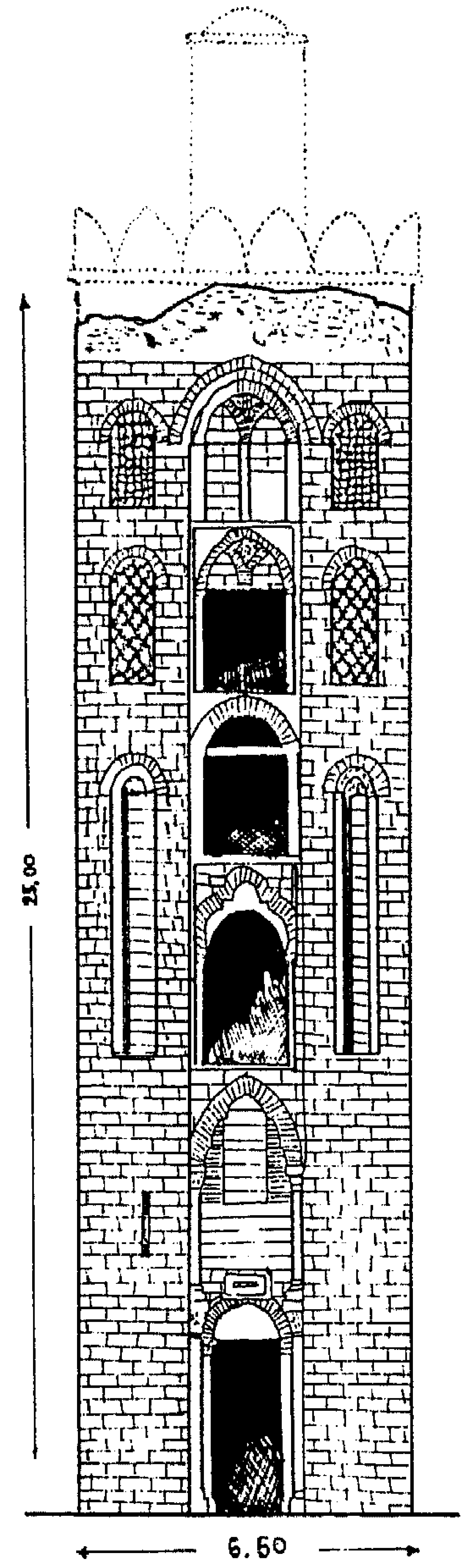

شكل (٤) : رسم تخيلى لجوسق مئذنة مسجد قلعة بنى حماد
(الجزء العلوى) "" عن مارسيه "" .

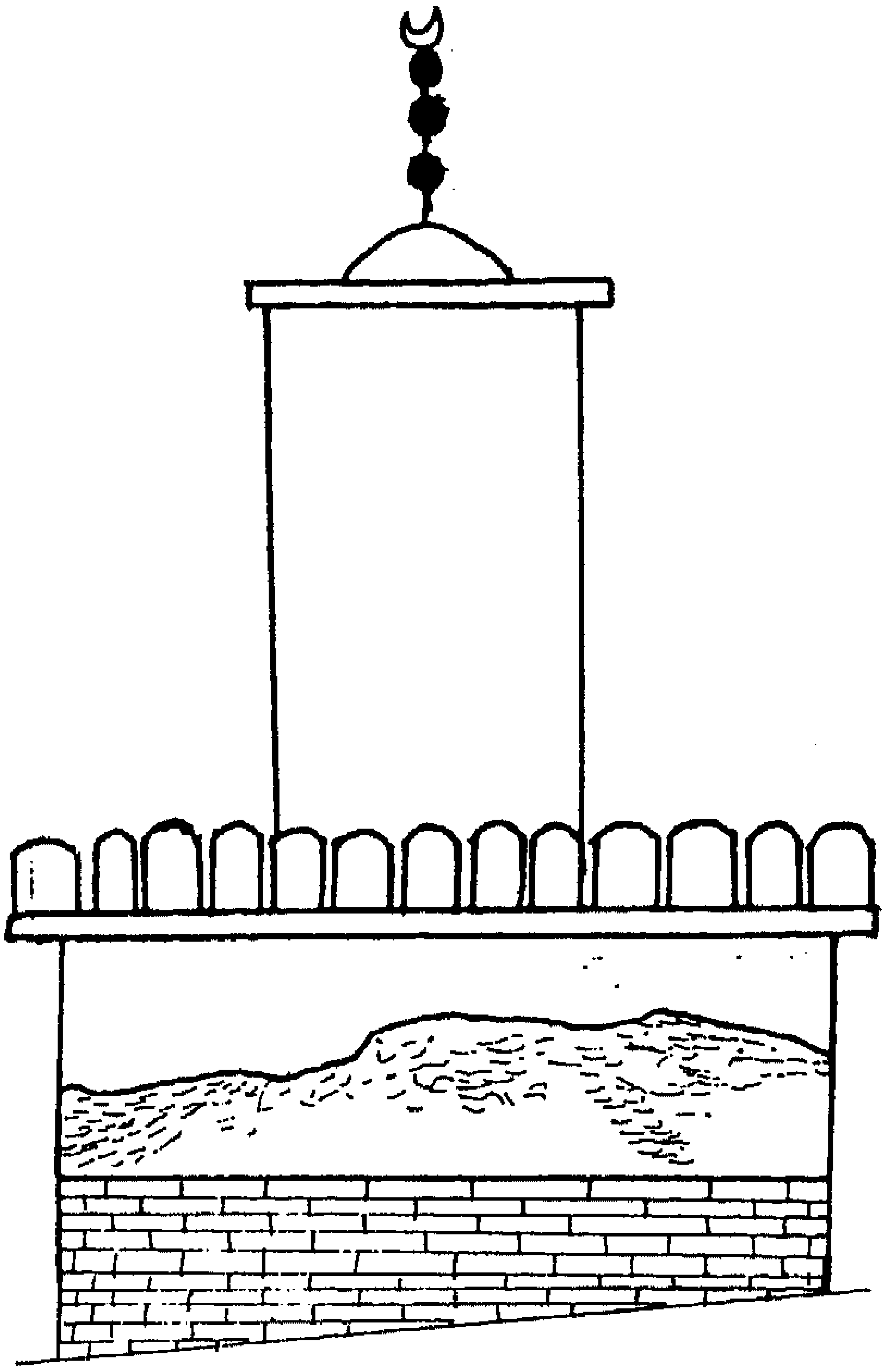

شكل (٥) :جوسق مئذنة مسجد قلعة بنى حماد
من تصور الباحـــث

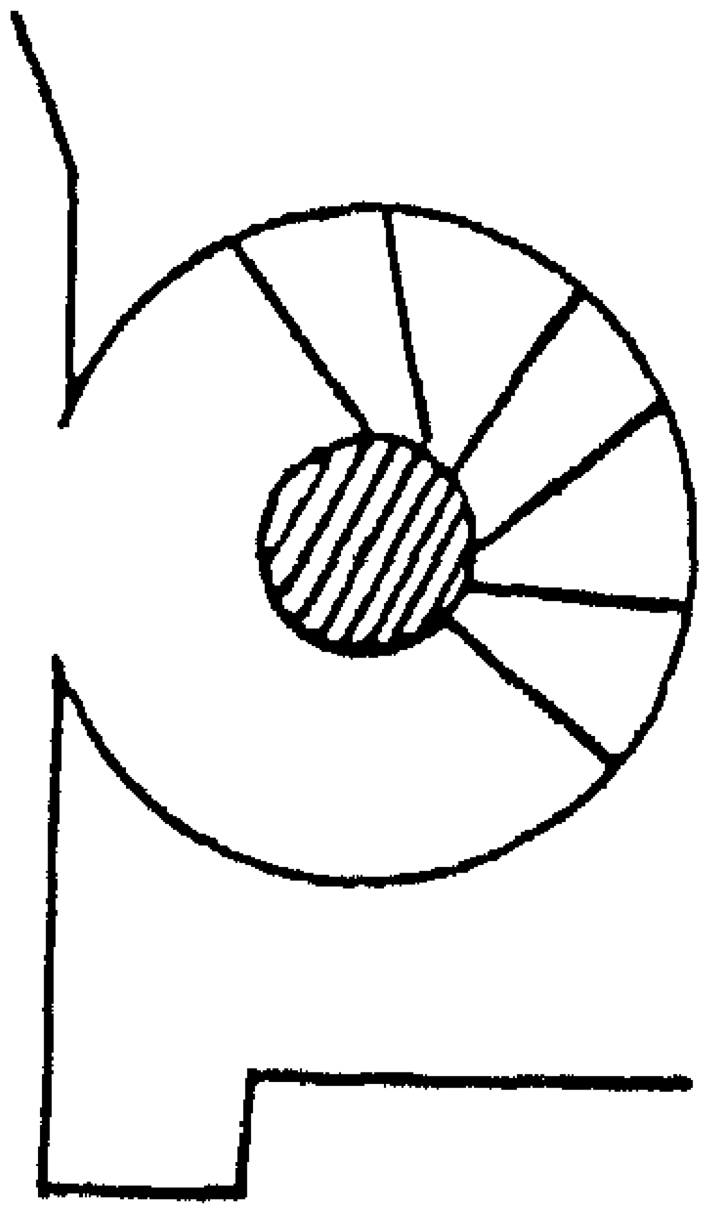

١ - القاعـــدة

شكل (٦) : مقطع عرضى لمئذنة المسجد الجامع بقسنطينـــة
مقياس : ١ : ٥٠

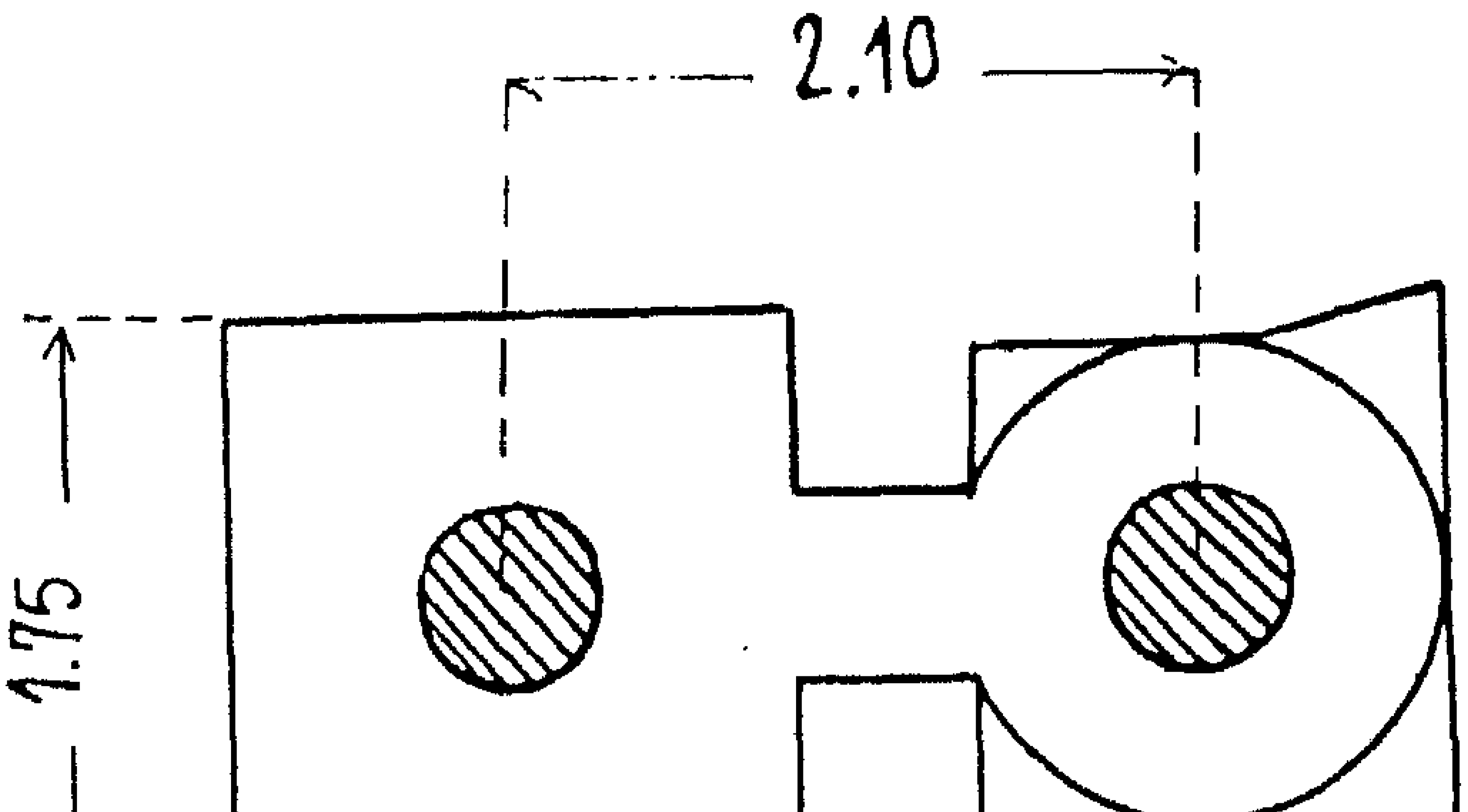

شكل (٦) ب : المخطط الأفقى الأول .

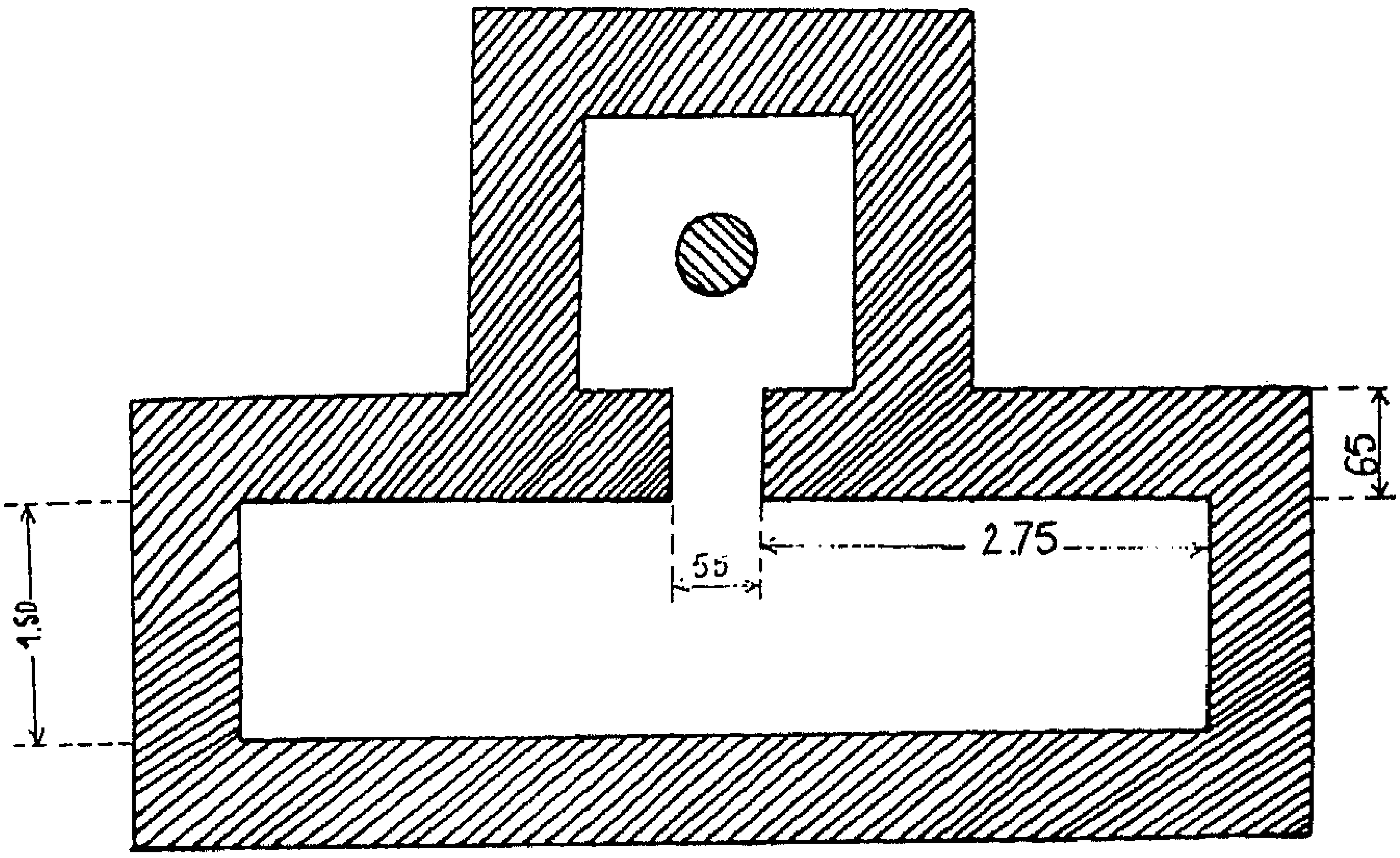

شكل (٦) جـ : المساحة المسطحة .

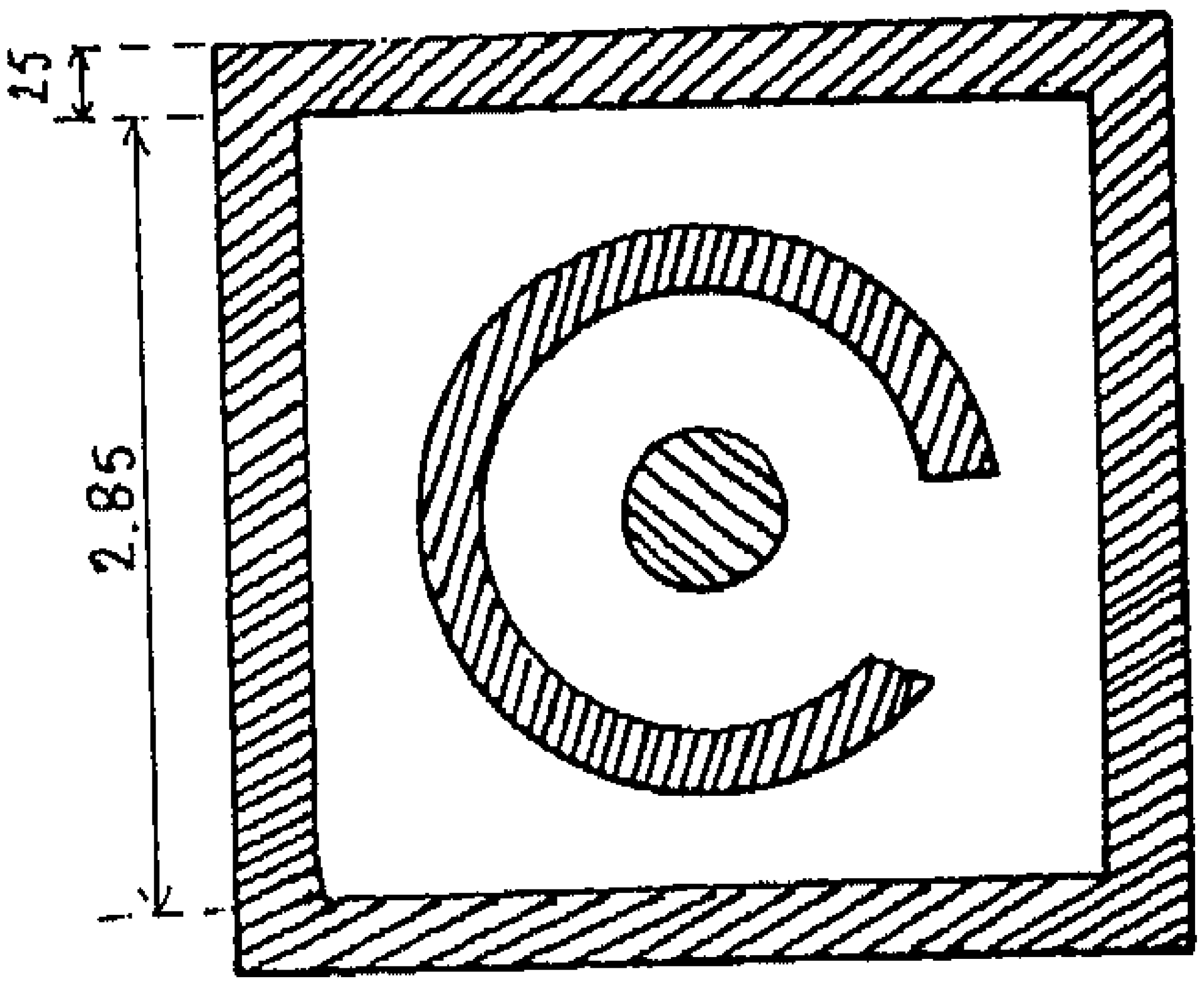

شكل (٦) د : المقطع الافقى العلـــوي .
مقياس : ١ : ٥٠ .

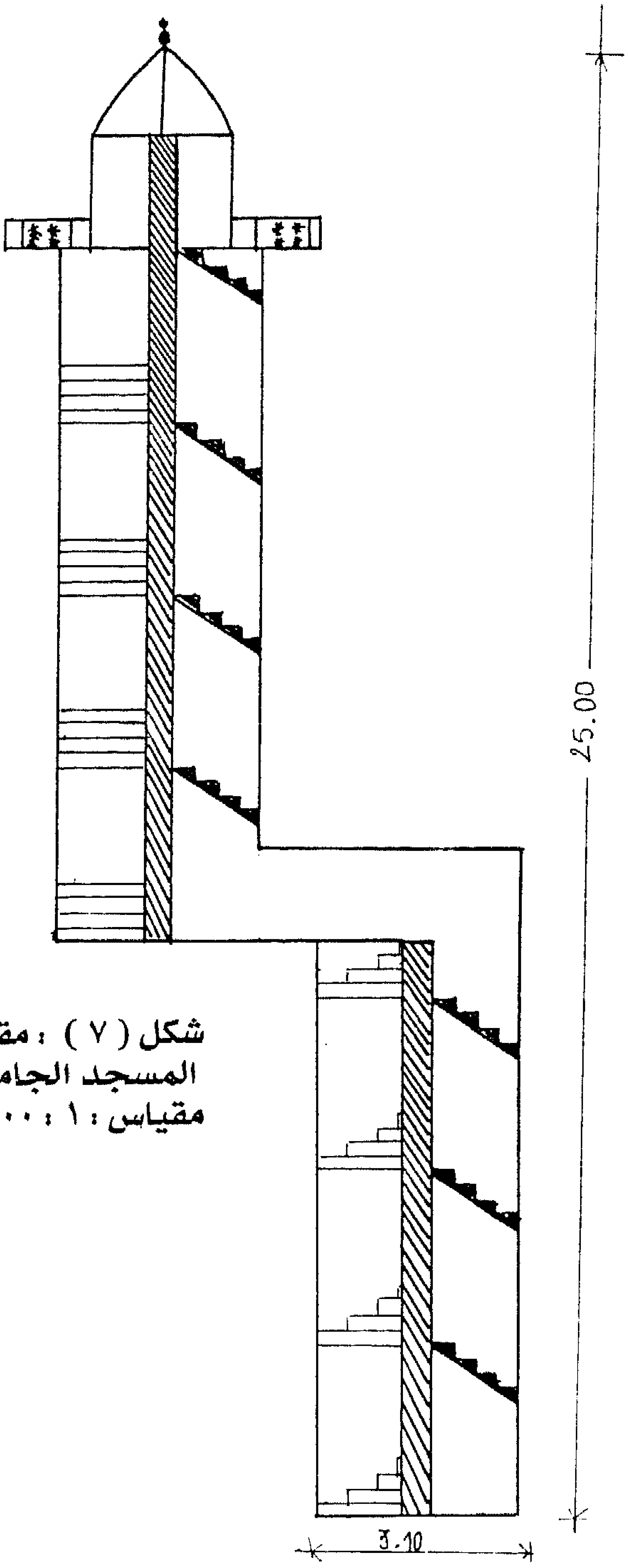

شكل (٧) : مقطع طولى لمئذنة
المسجد الجامع بقسنطينـــة .
مقياس : ١ : ١٠٠ .

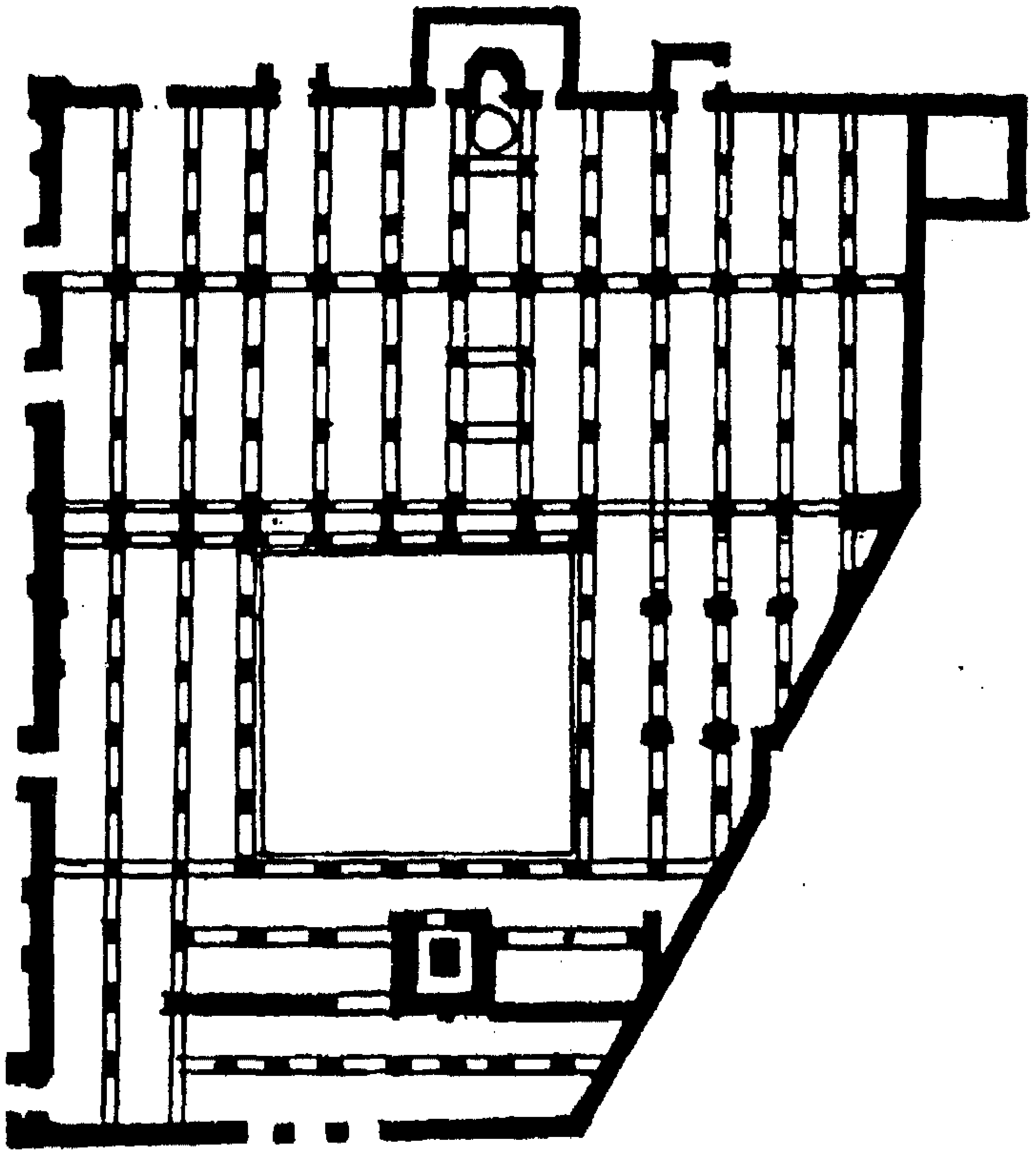

شكل (٨) : جامع تلمسان (عن مارسيـــة) .

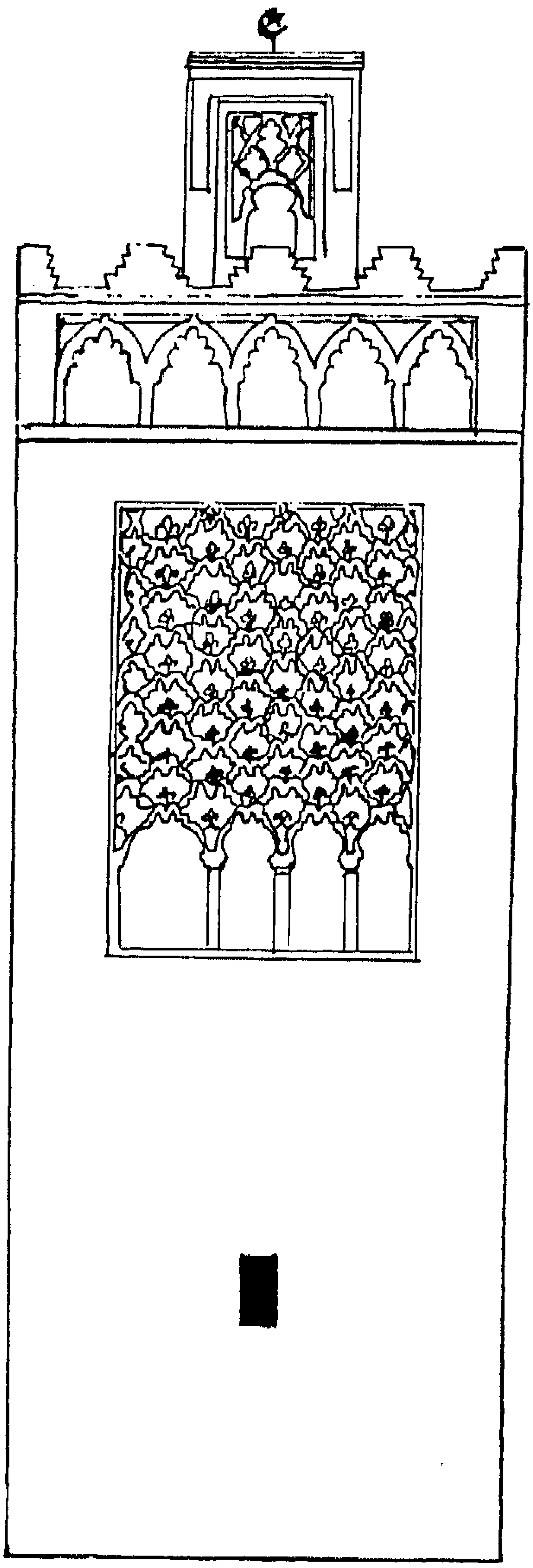

شكل (٩) : الواجهة الجنوبية لمئذنة المسجد الجامع بتلمسان . (عن بورويبـــــة) .

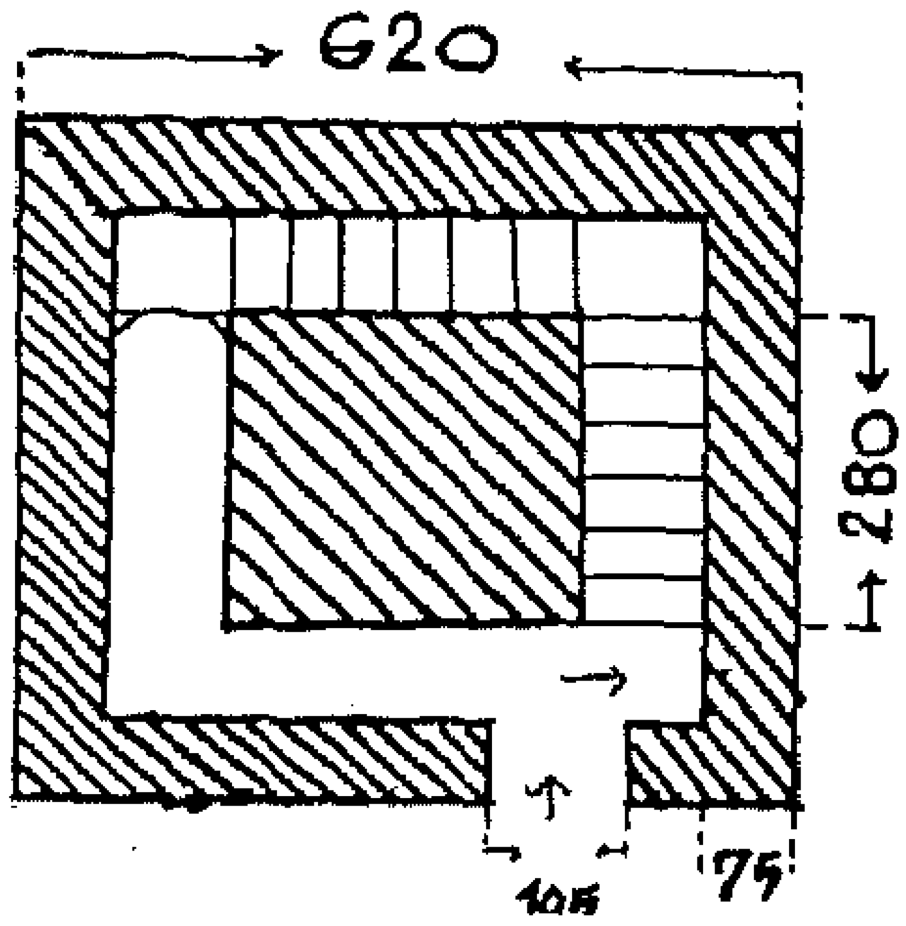

شكل (١٠) : مقطع عرضى لمئذنة المسجد الجامع بتلمسان

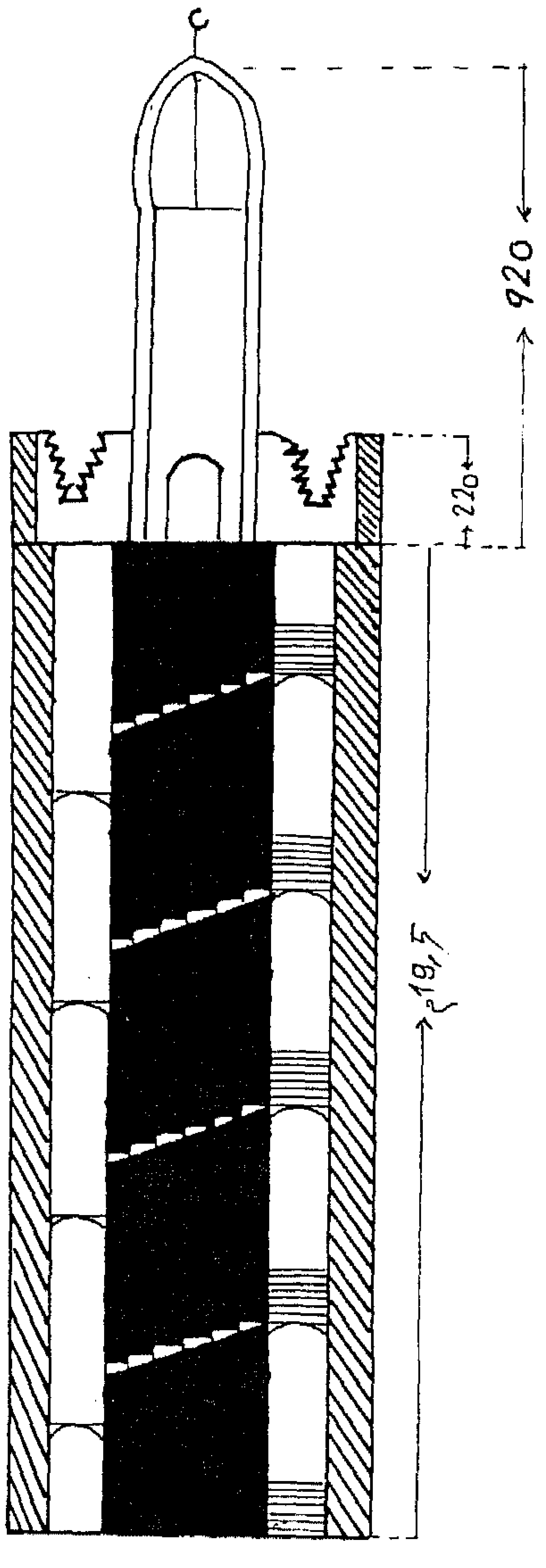

شكل (١١) : مقطع طولى لمئذنة المسجد الجامع بتلمسان

مقاس ١ : ١٢٥

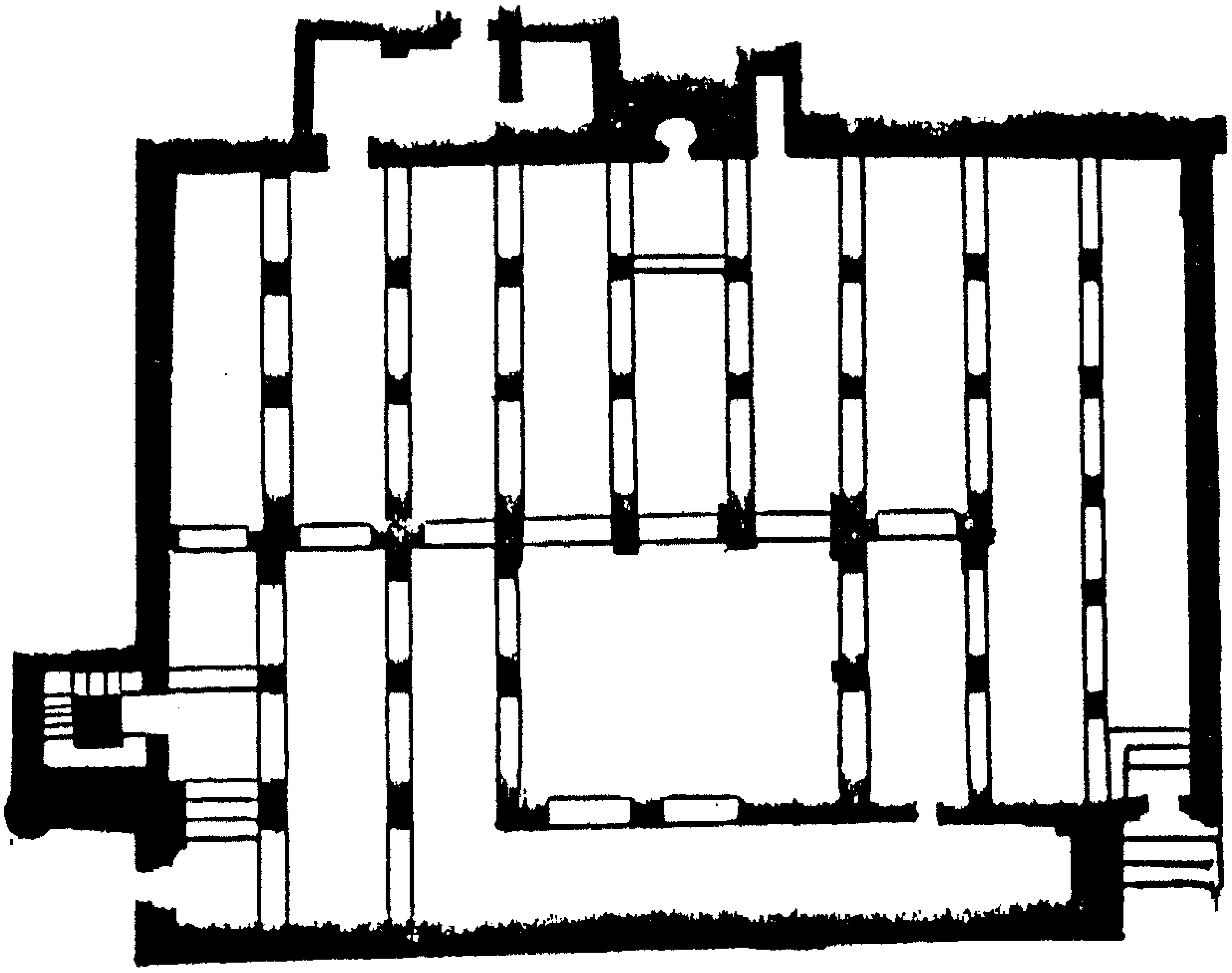

شكل (١٢) : جامع ندرومة (عن بورويبة)

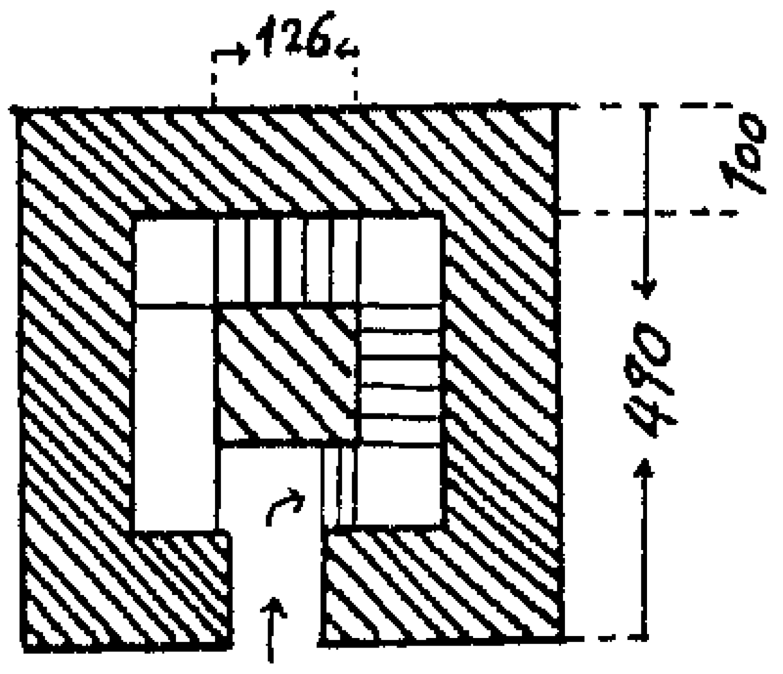

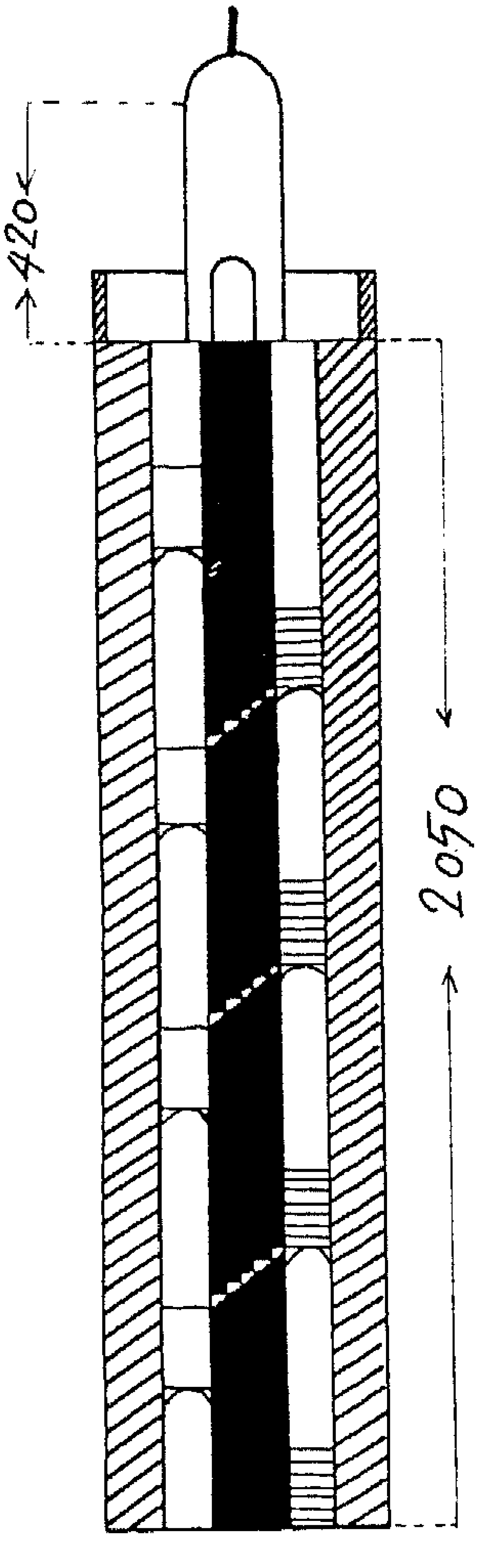

شكل (١٣) : مقطع عرضى لمئذنة المسجد الجامع بندرومة

شكل (١٤) : مقطع طولى لمئذنة المسجد الجامع بندرومة

مقياس ١ : ١٢٥

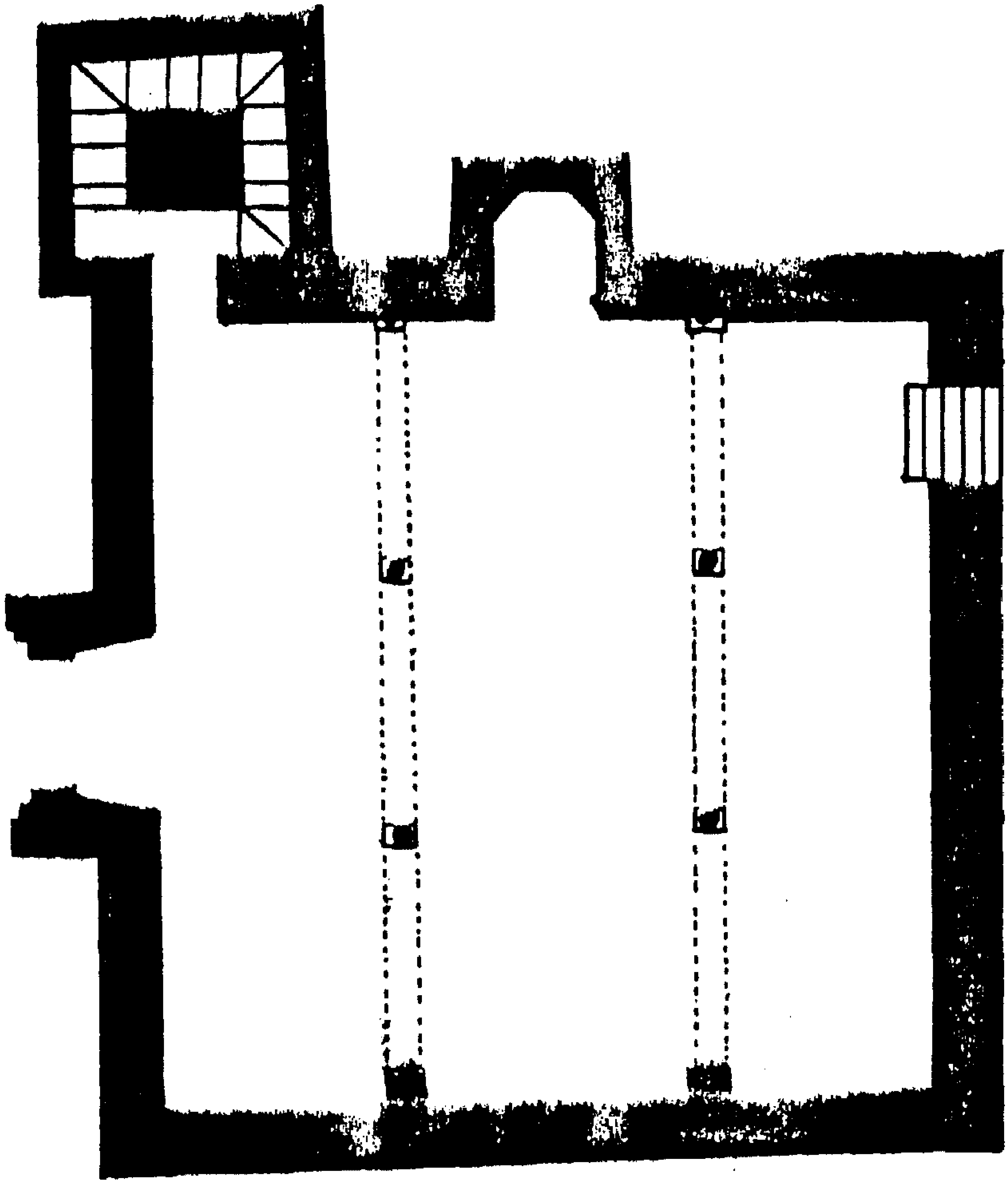

شكل (١٥) : جامع أبى الحسن بتلمسان
(عن بورويبة)

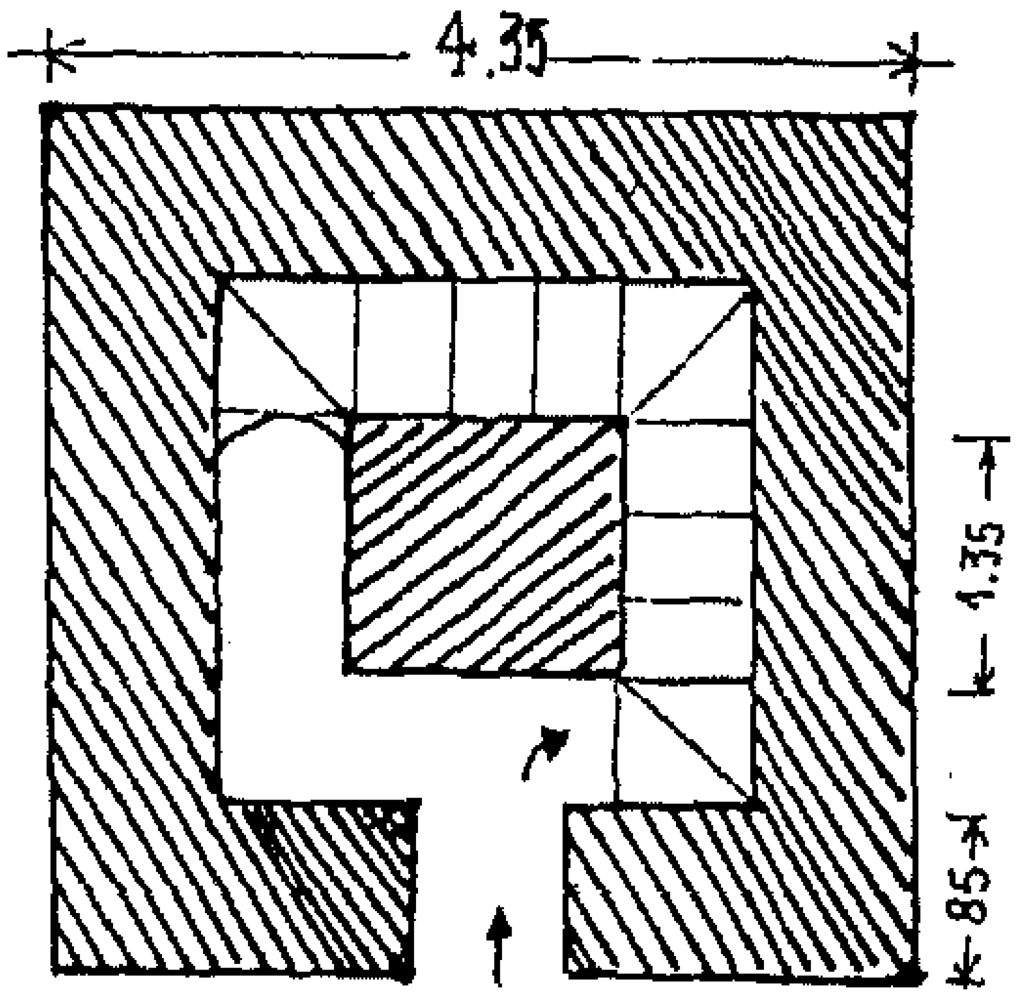

شكل (١٦) : مقطع عرضى لمئذنة جامع أبى الحسن بتلمسان

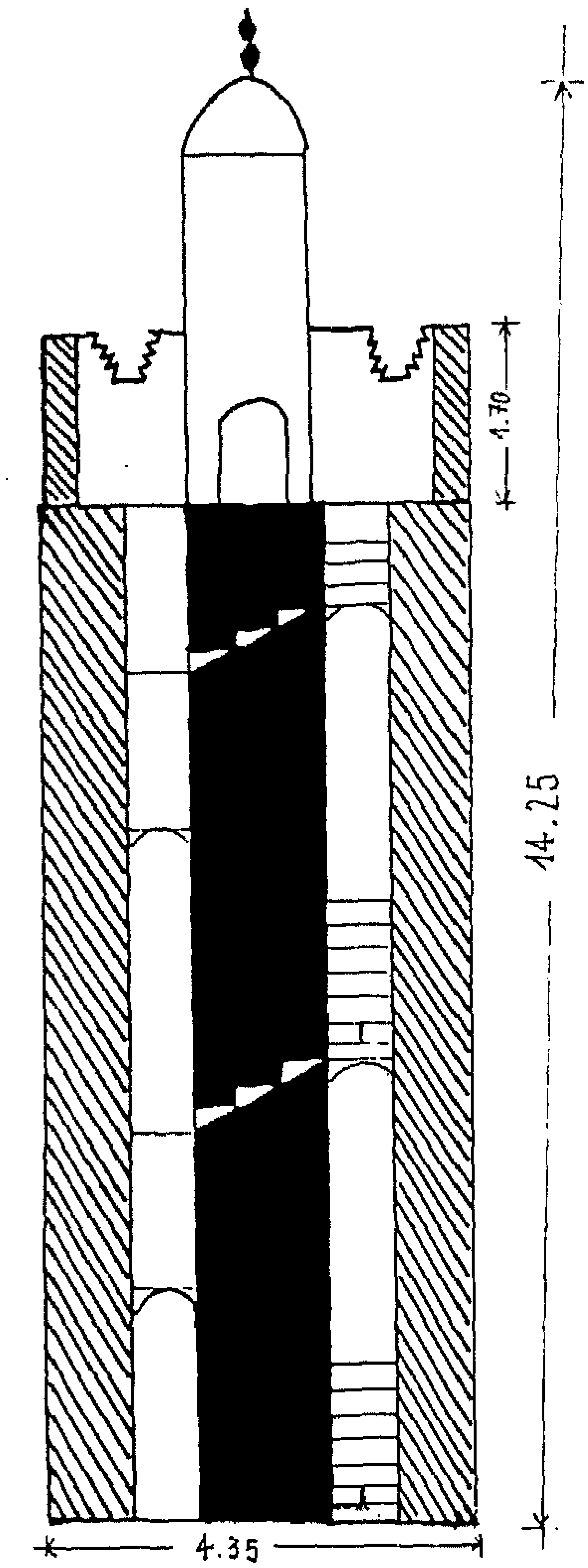

شكل (١٧) : مقطع طولى لمئذنة جامع أبى الحسن بتلمسان

مقياس ١ : ٧٥

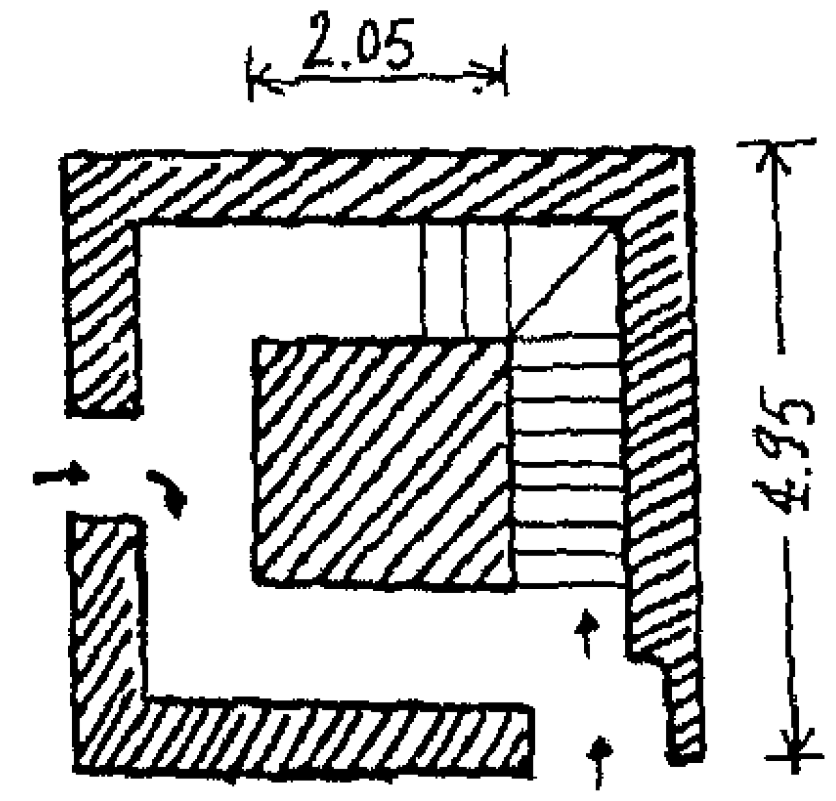

باب مؤدي للخارج

باب مؤدي للمسجد

شكل (١٨) مقطع عرضى لمئذنة
جامع المشور (تلمسان)

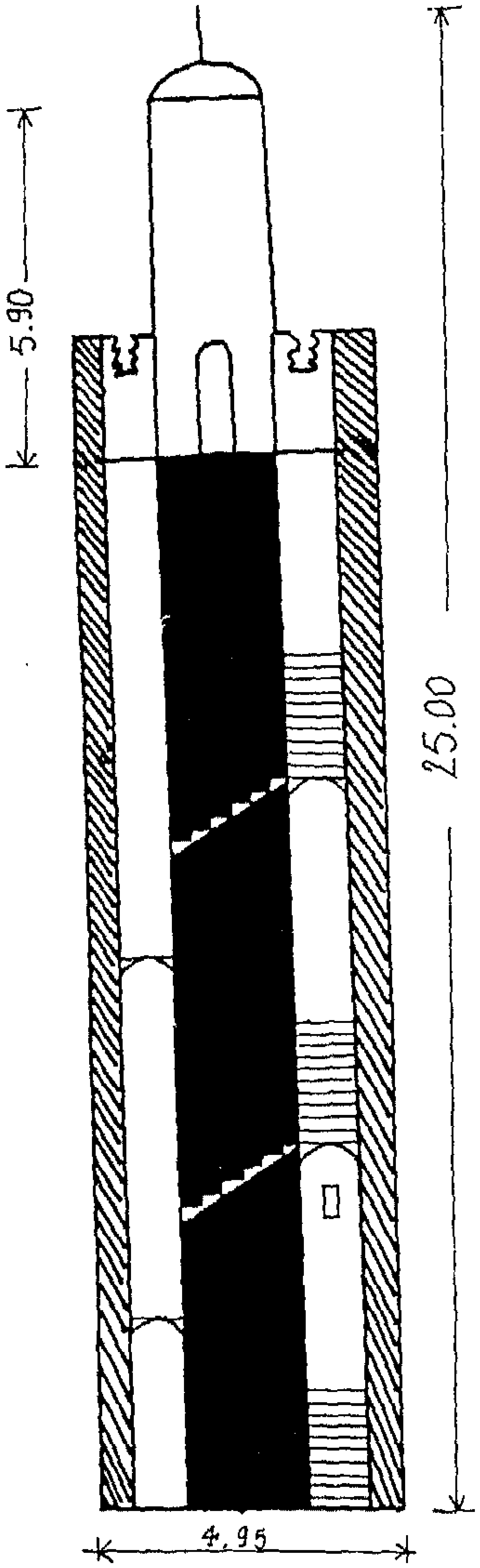

شكل (١٩) مقطع طولى لمئذنة
جامع المشور (تلمسان)

مقياس ١ : ١٢٥

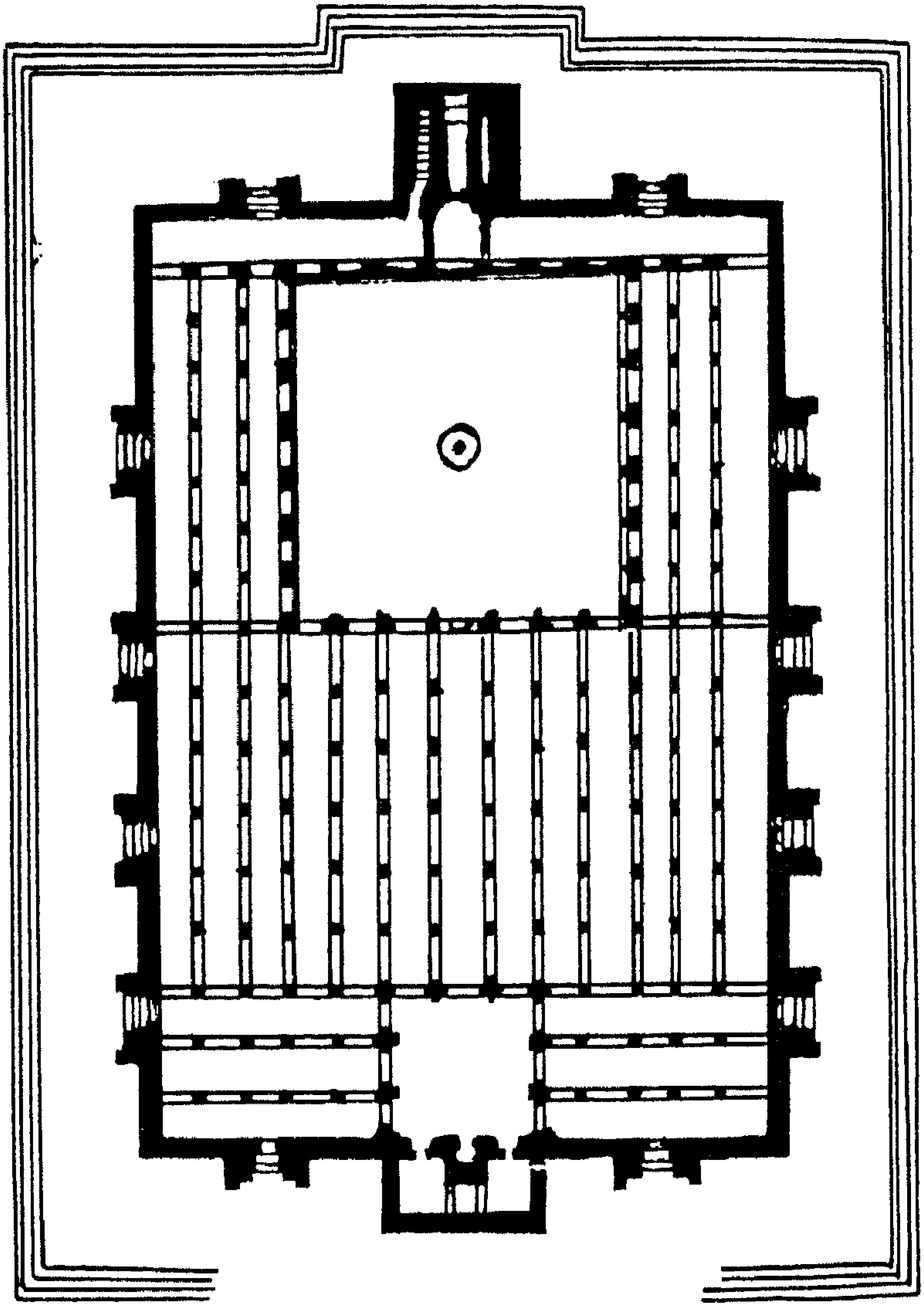

شكل (٢٠) : جامع المنصورة بتلمســـــان (عن مارسية) .

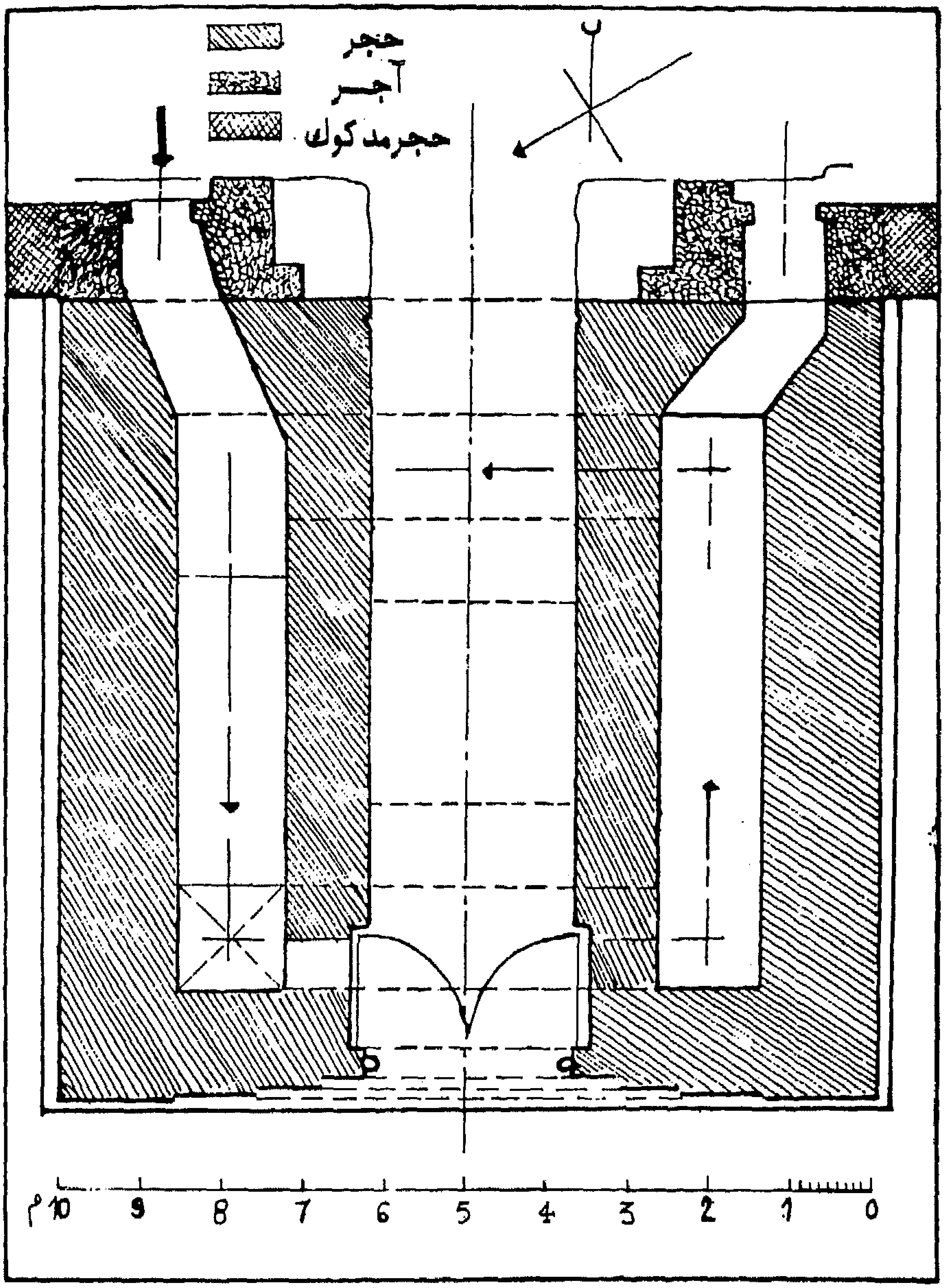

شكل (٢١) : مقطع عرضى لمئذنة جامع المنصـــورة بتلمســـان
(عن ليزيـن) بعد التحقيــق
مقيـــاس ١ : ١٠٠

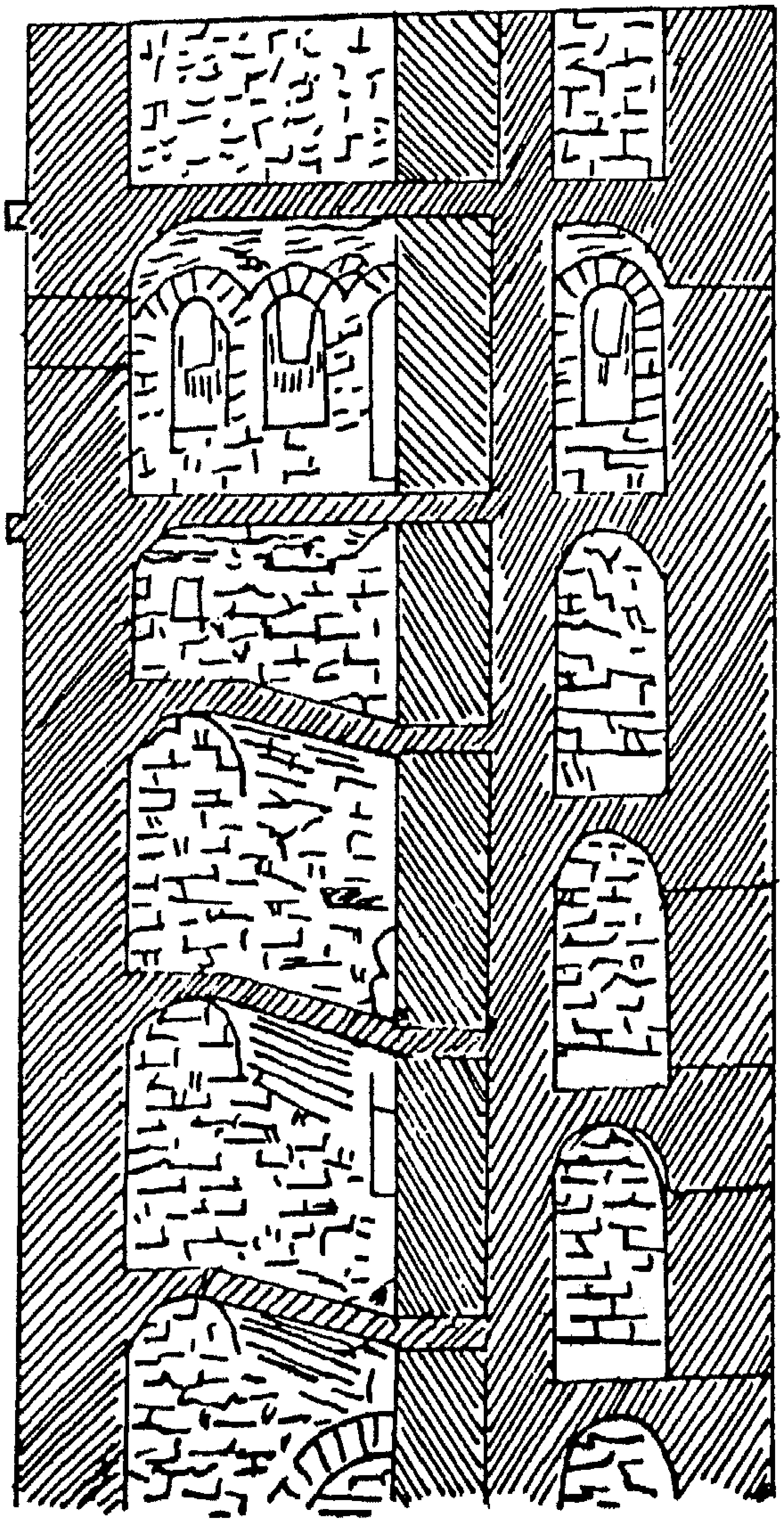

شكل (٢٢) : مقطع طولي لمئذنة جامع المنصورة بتلمســـان
(عن مارسيــــه)

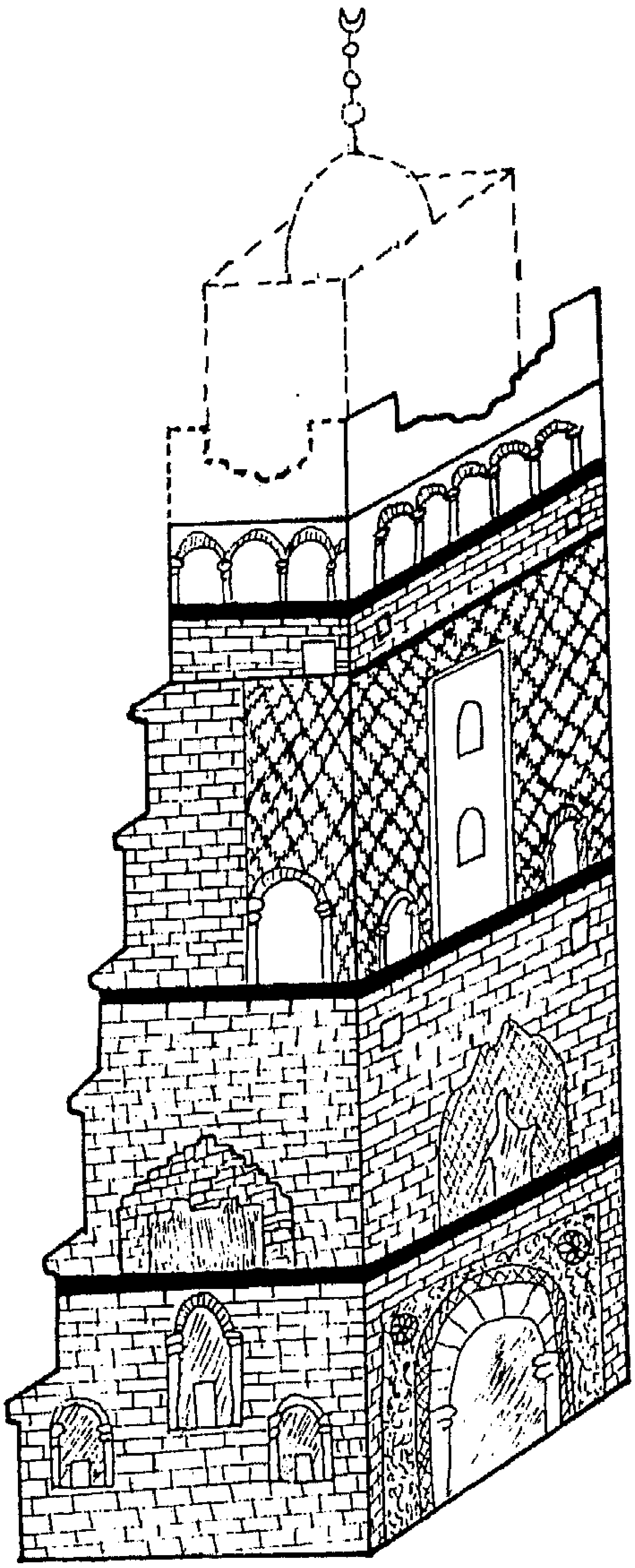

شكل (٢٣) : رسم تخطيطى لمئذنة جامع المنصورة بتلمسان مع اعـــادة تصور للجوســق من تخيل الباحـــث .

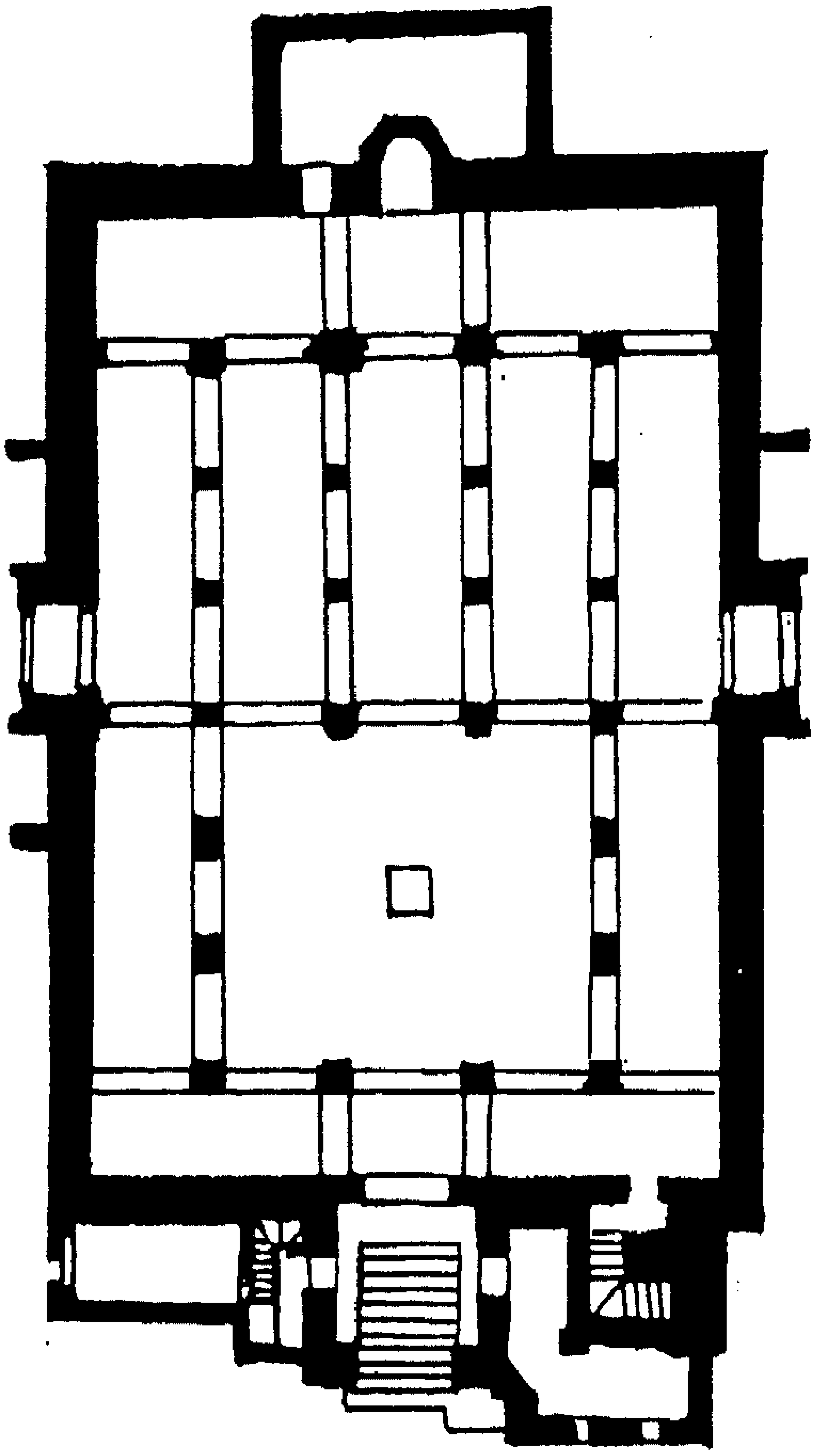

شكل (٢٤) : جامع سيدى أبى مدين بتلمسان (عن بورويبـــة) .

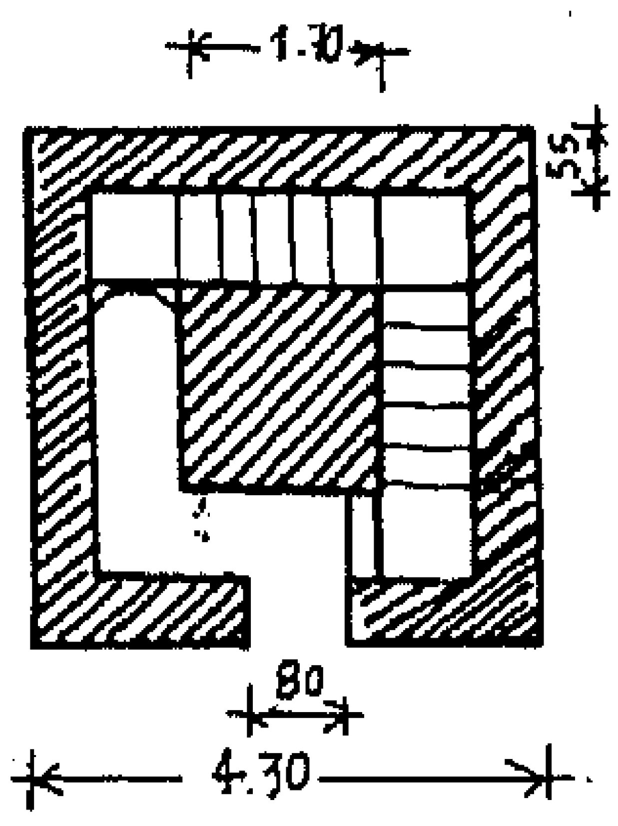

شكل (٢٥) : مقطع عرضى لمئذنة
مسجد سيدى ابى مدين بتلمسان

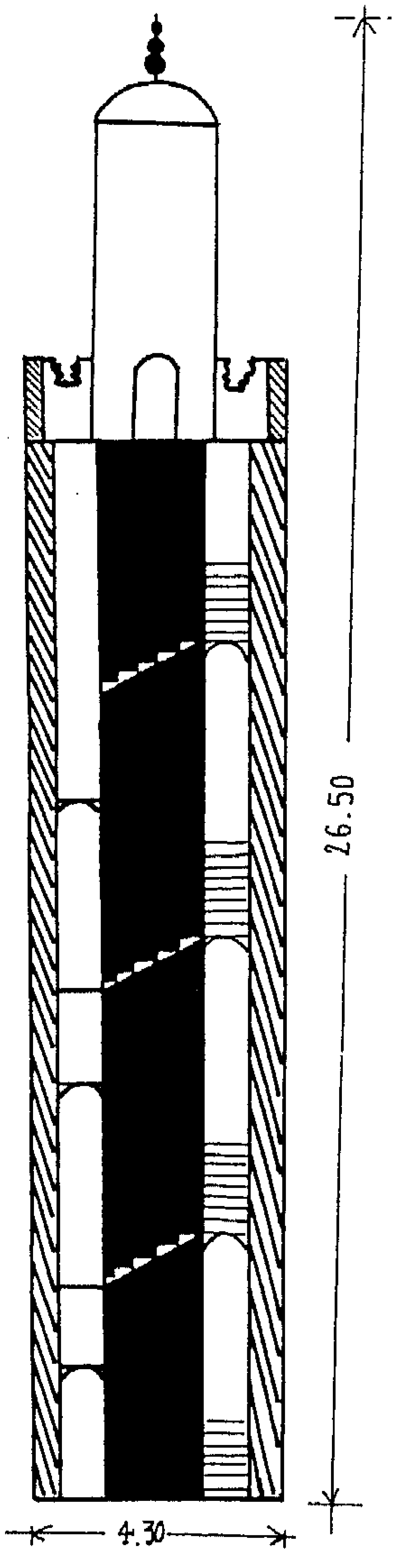

شكل (٢٦) : مقطع طولى لمئذنة
مسجد سيدى ابى مدين بتلمسان

مقياس : ١ : ١٢٥

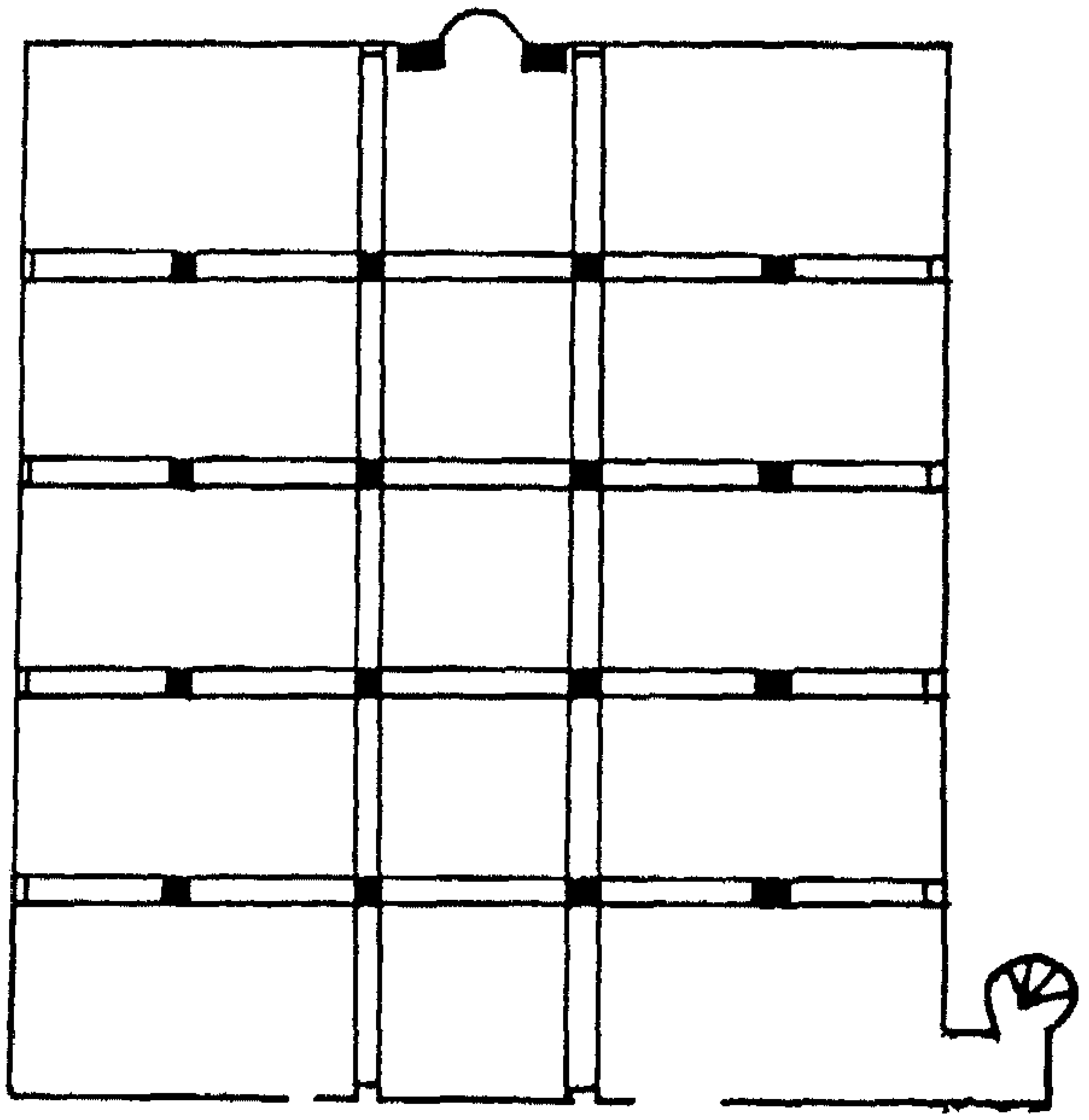

شكل (٢٧) : جامع سيدي لخضر بقسنطينة
(عن بورويبة)

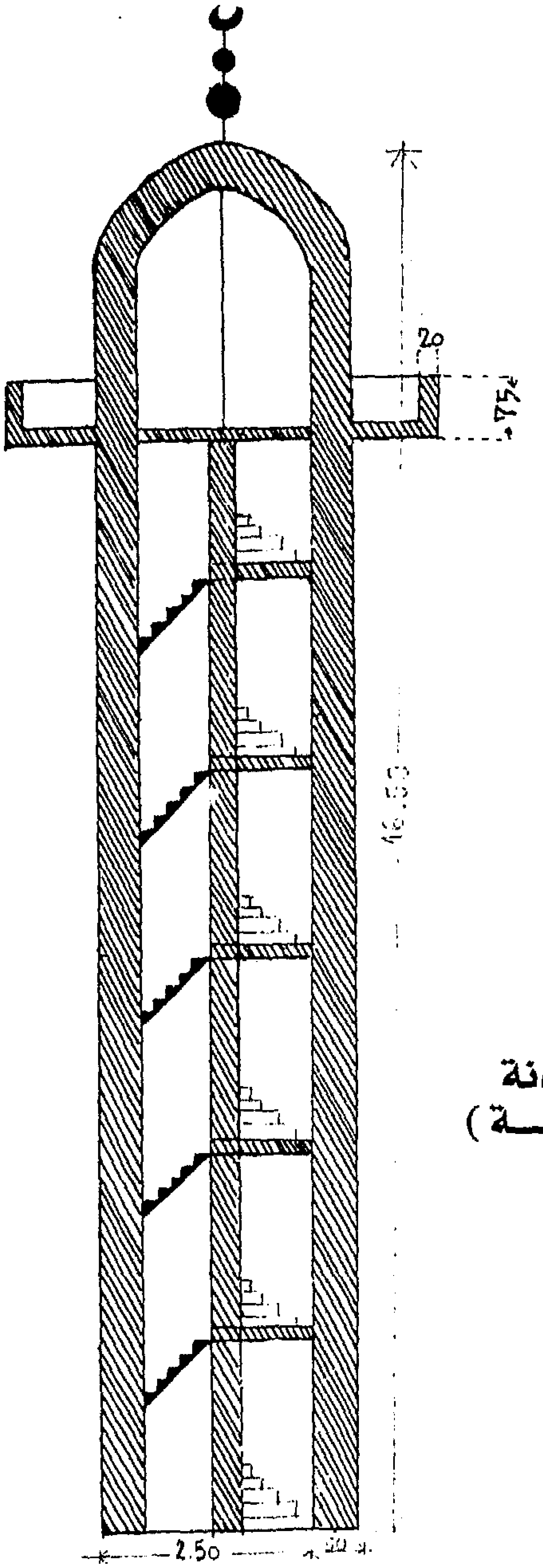

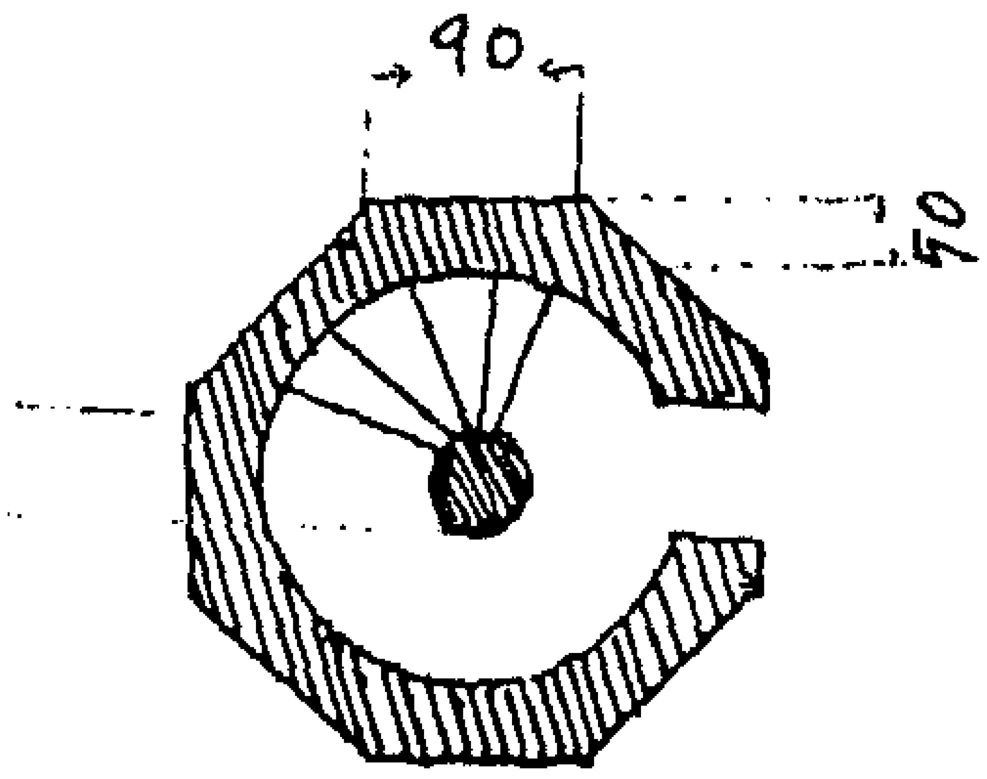

شكل (٢٨) : مقطع عرضى لمئذنة
مسجد سيدي لخضر (قسنطينـــــة)
مقياس : ١ : ٧٥

شكل (٣٠) : مقطع طولى لمئذنة
مسجد سيدي لخضر (قسنطينة)
مقياس : ١ : ٧٥

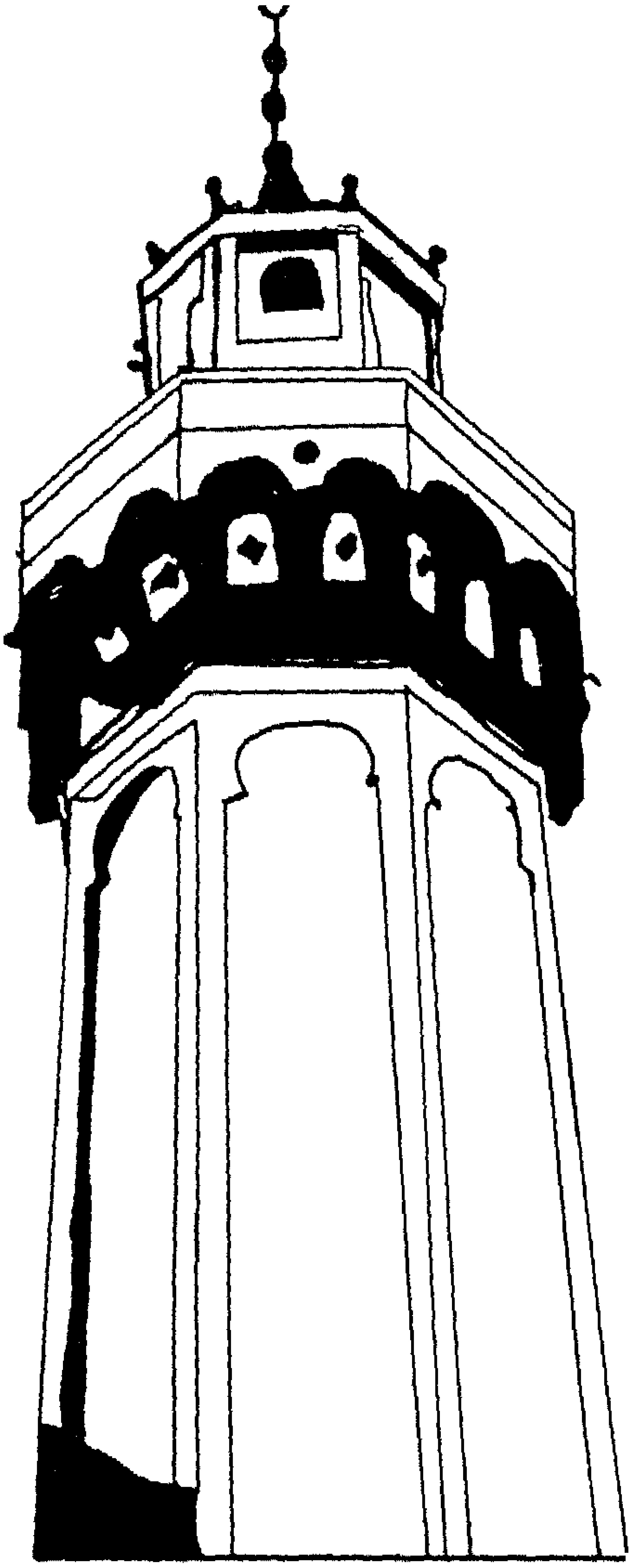

شكل (٢٩) : واجهة مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينـــة (عن بورويبــــة) .

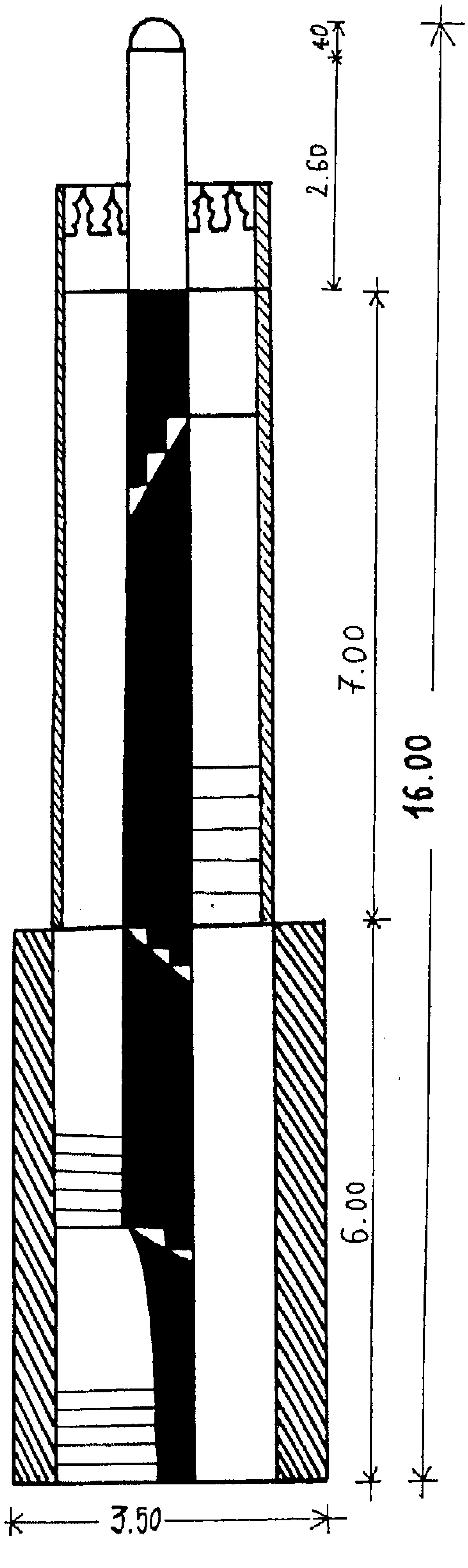

شكل (٣٢) :
مقطع طولى لمئذنة جامع الجيش
(الجزائر العاصمة)

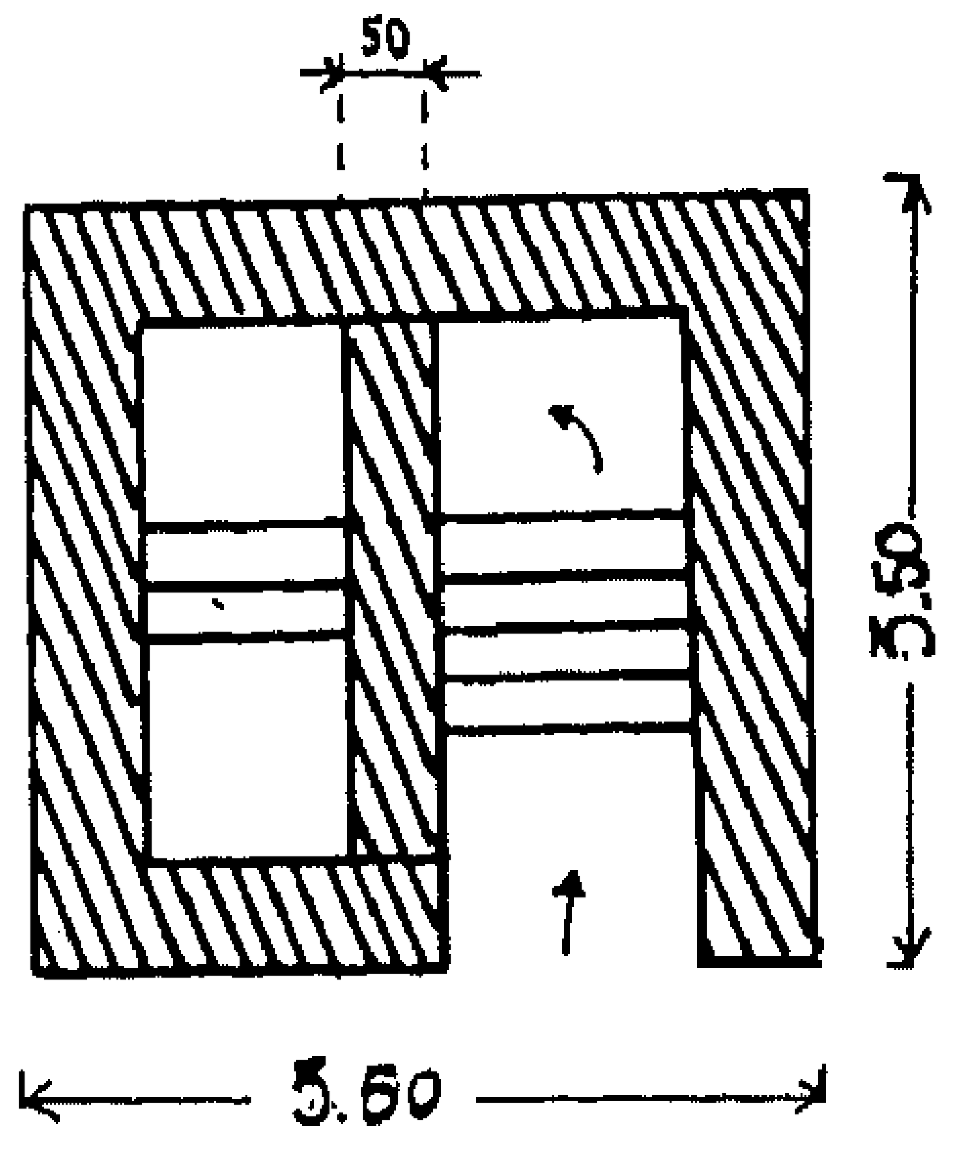

شكل (٣١) : مقطع عرضى لمئذنة
جامع الجيش (الجزائر العاصمة)

مقياس ١ : ٧٥

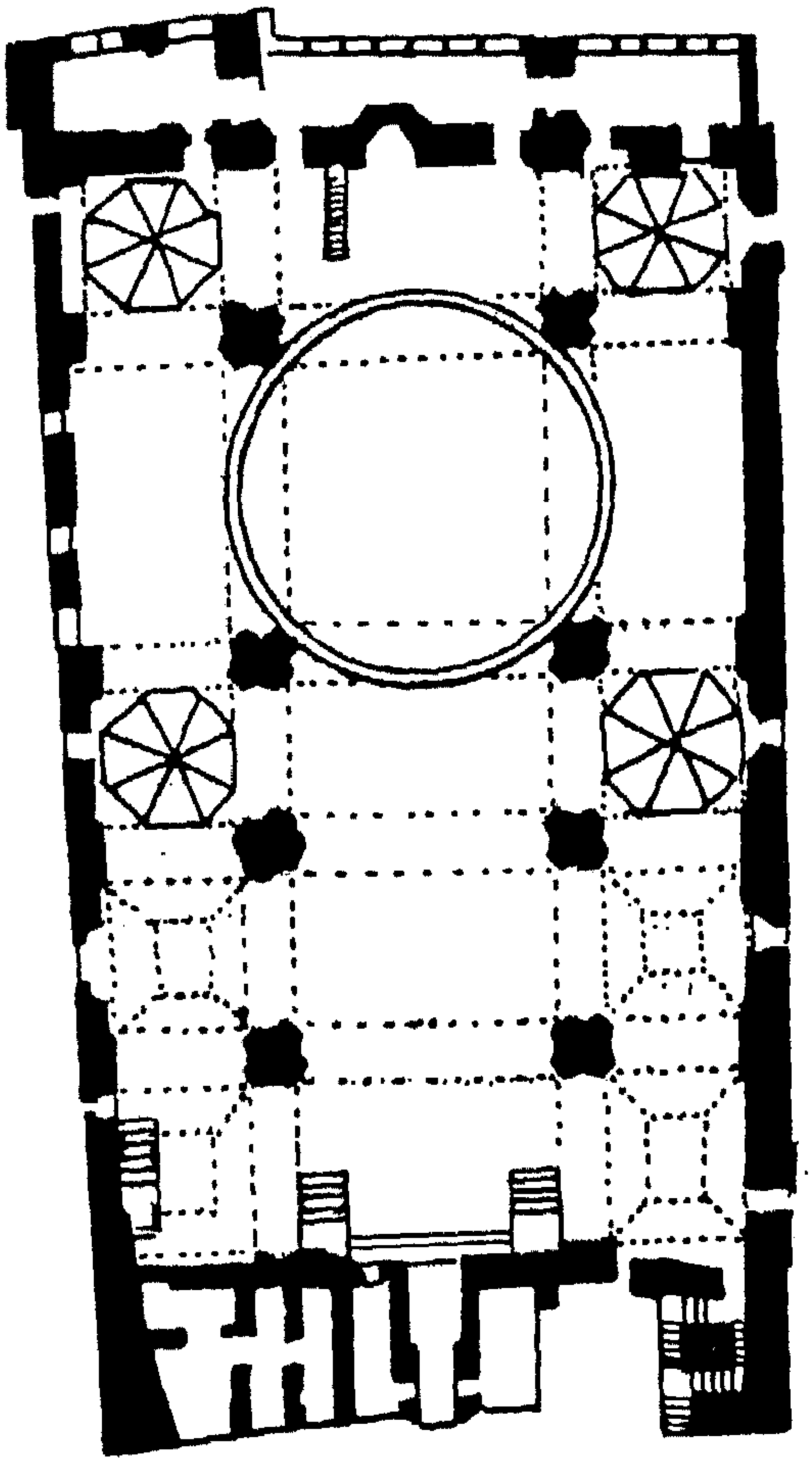

شكل (٣٣) : الجامع الجديد (الحواتين) بالجزائر العاصمة
(عن دوكالي)

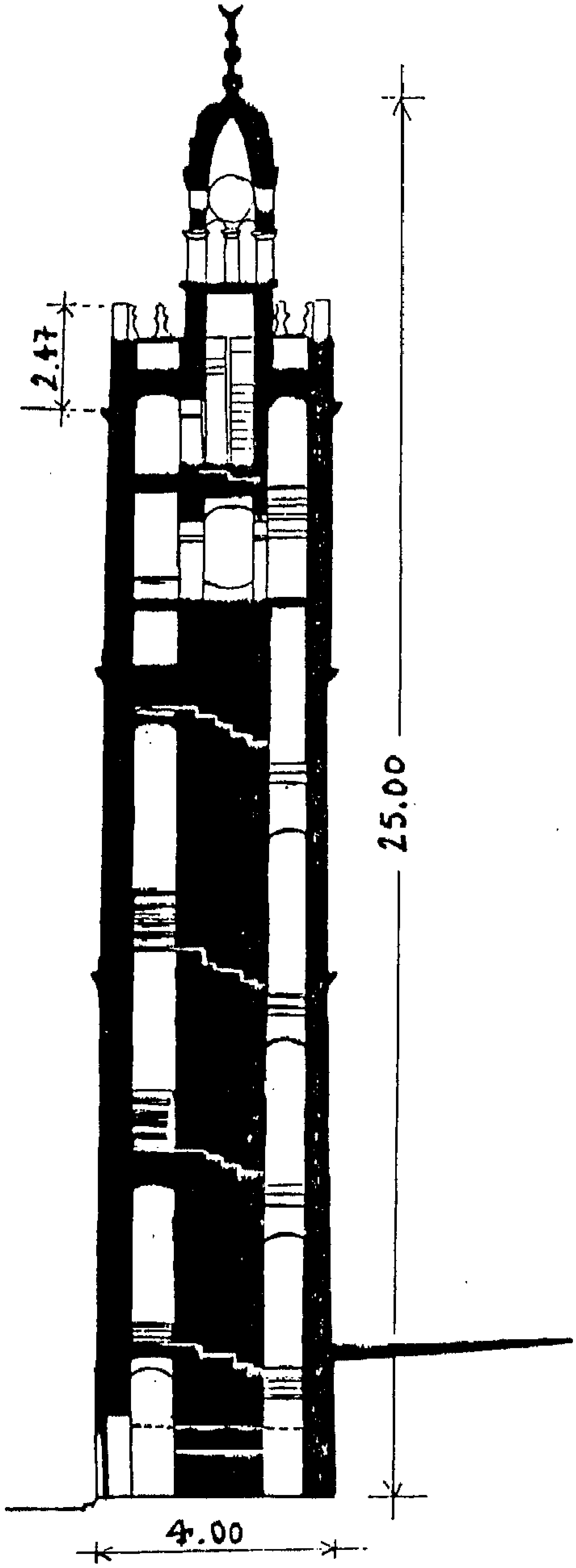

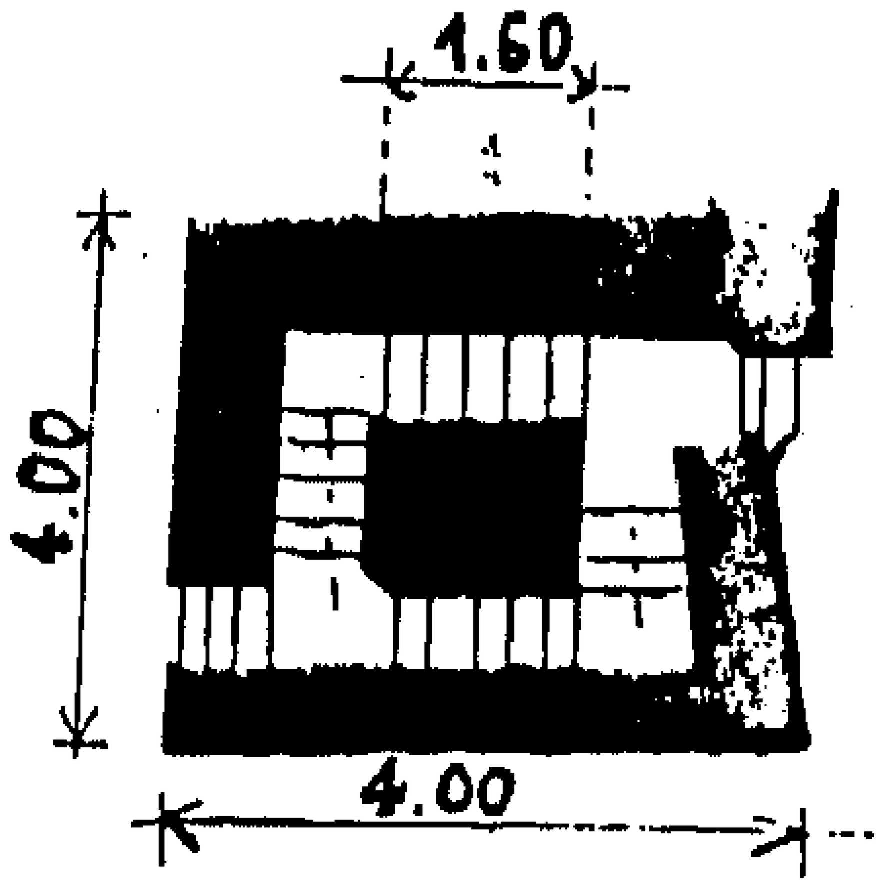

شكل (٣٤) : مقطع عرضى لمئذنة جامع (الحواتين) بالجزائر العاصمة عن (دوكالى) بعد التحقيق .

شكل (٣٥) : مقطع طولى لمئذنة جامع (الحواتين) بالجزائر العاصمة عن (دوكالى) بعد التحقيق .

مقياس : ١ : ١٢٥

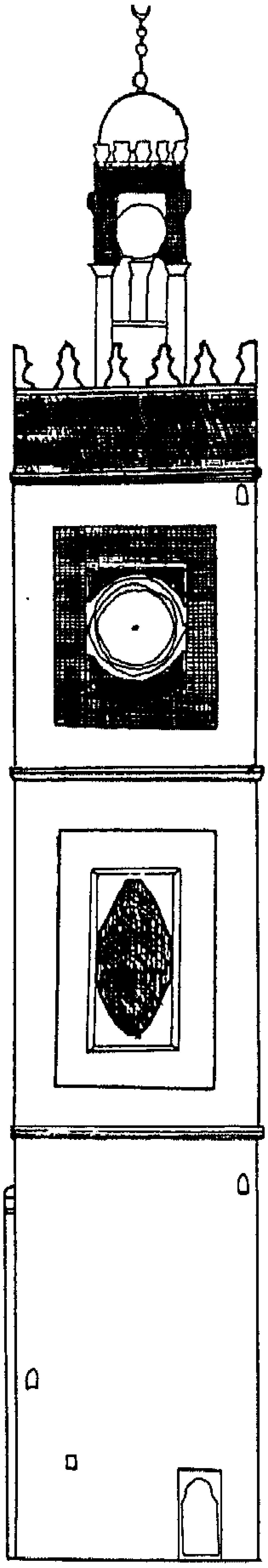

شكل (٣٦) : واجهة مئذنة جامع (الحواتين) بالجزائر (عن دوكالـــى)

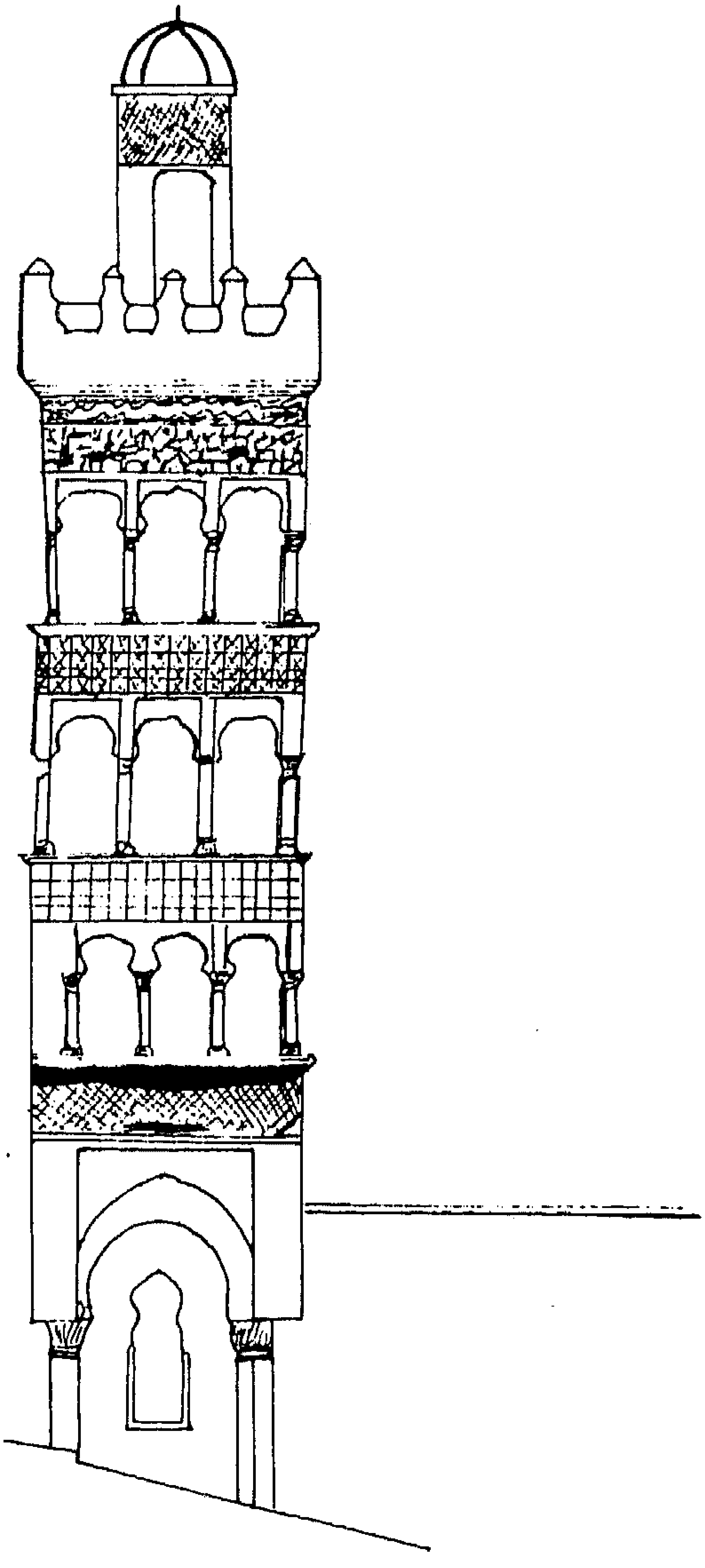

شكل (٣٧) : واجهة مئذنة مسجد سيدى عبد الرحمن الثعالبى (الجزائر)
عن (دوكالـــــى)

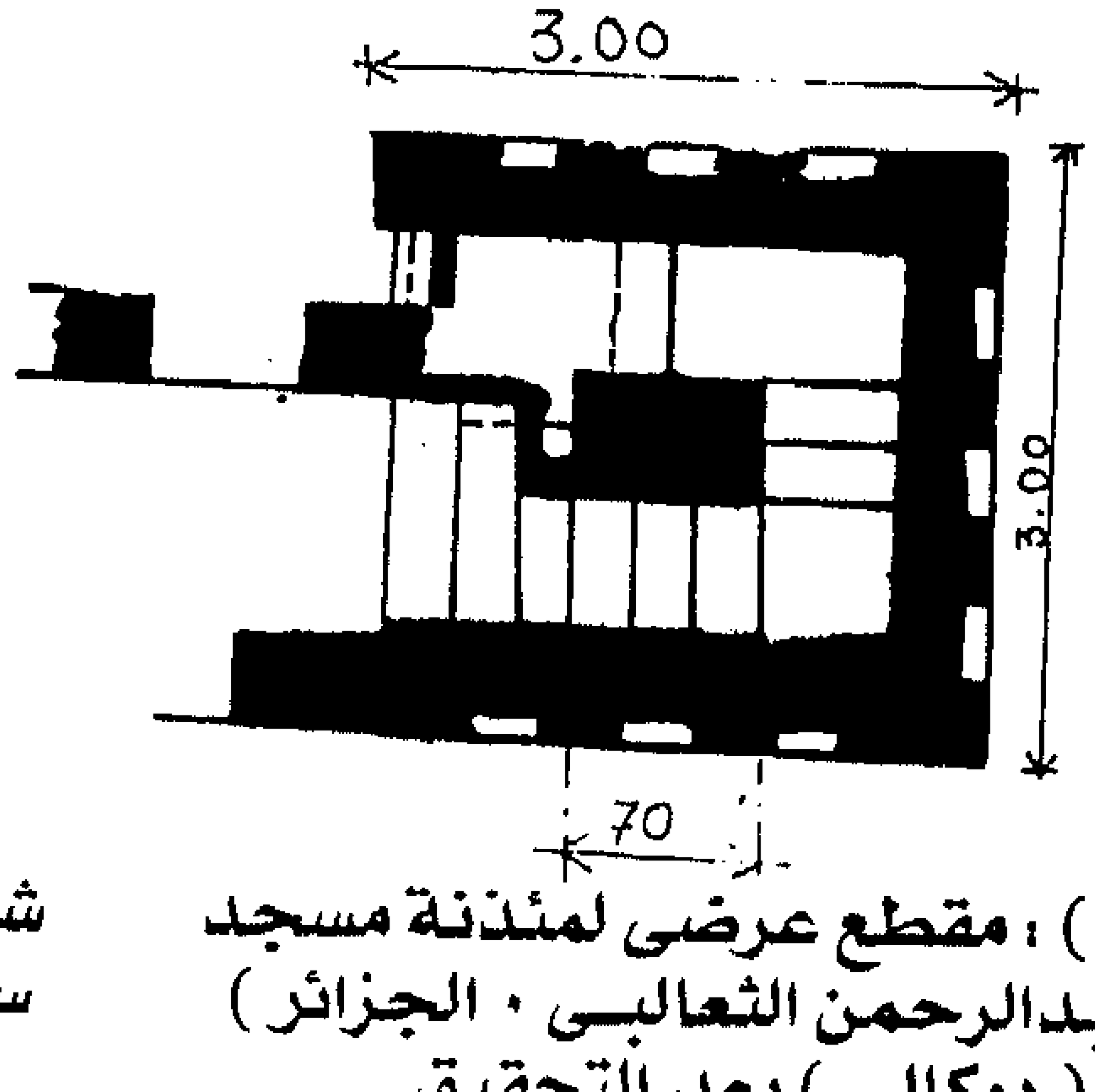

شكل (٣٨) : مقطع عرضى لمئذنة مسجد سيدى عبدالرحمن الثعالبـى · الجزائر) عن (دوكالى) بعد التحقيق .

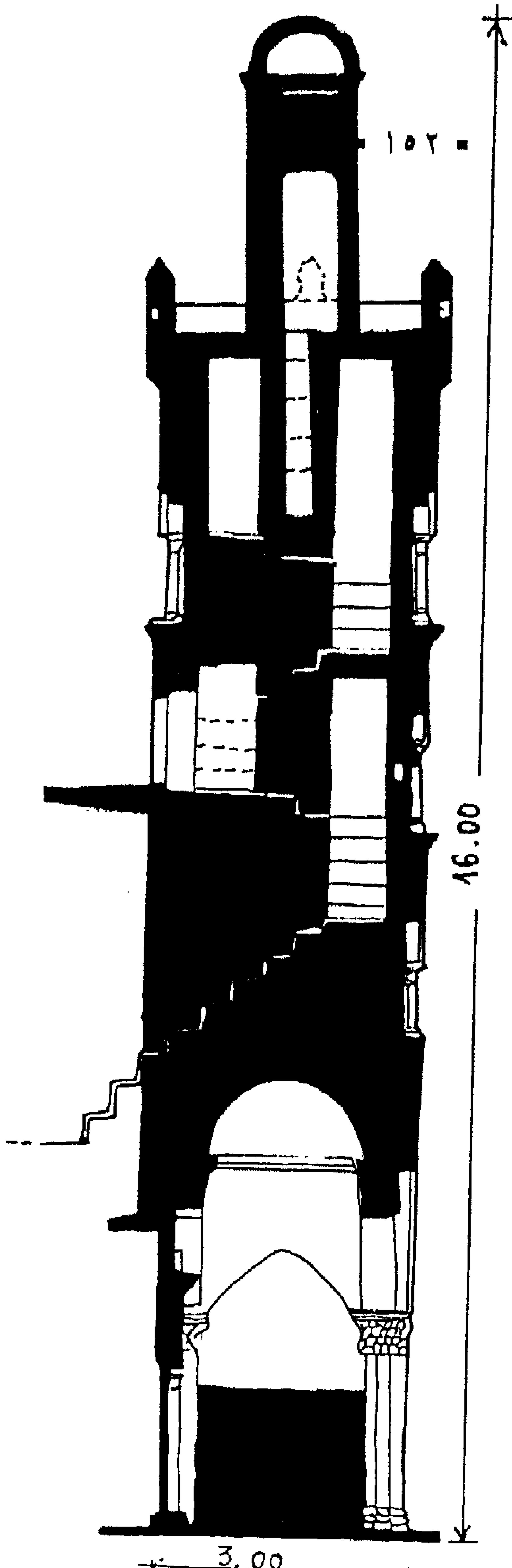

شكل (٣٩) : مقطع طولى لمئذنة مسجد سيدى عبدالرحمن الثعالبـى · الجزائر) عن (دوكالى) بعد التحقيق .

مقياس ١ : ٧٥

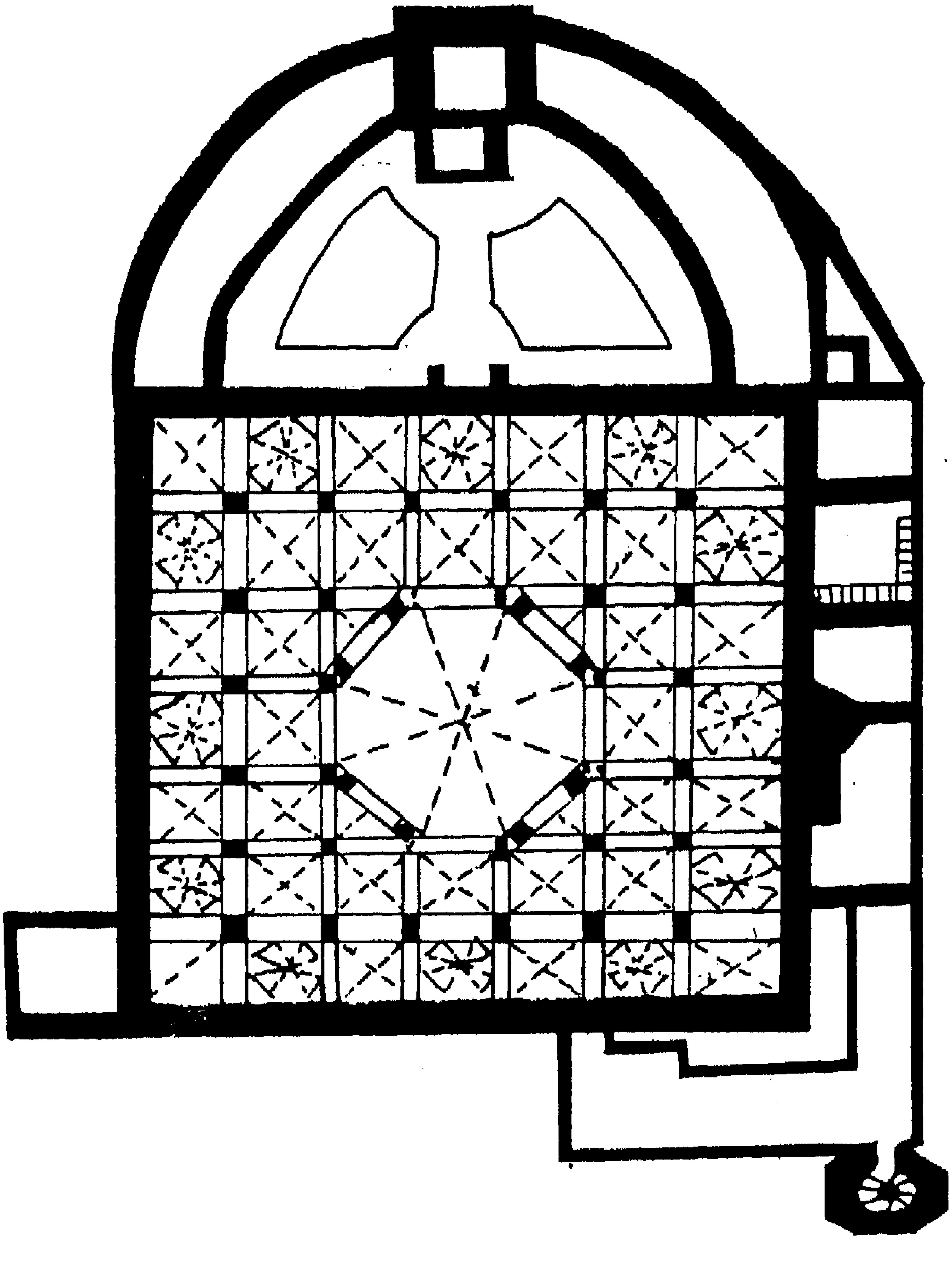

شكل (٤٠) : جامع الباشا بوهـــران (عن مهيريـــس)

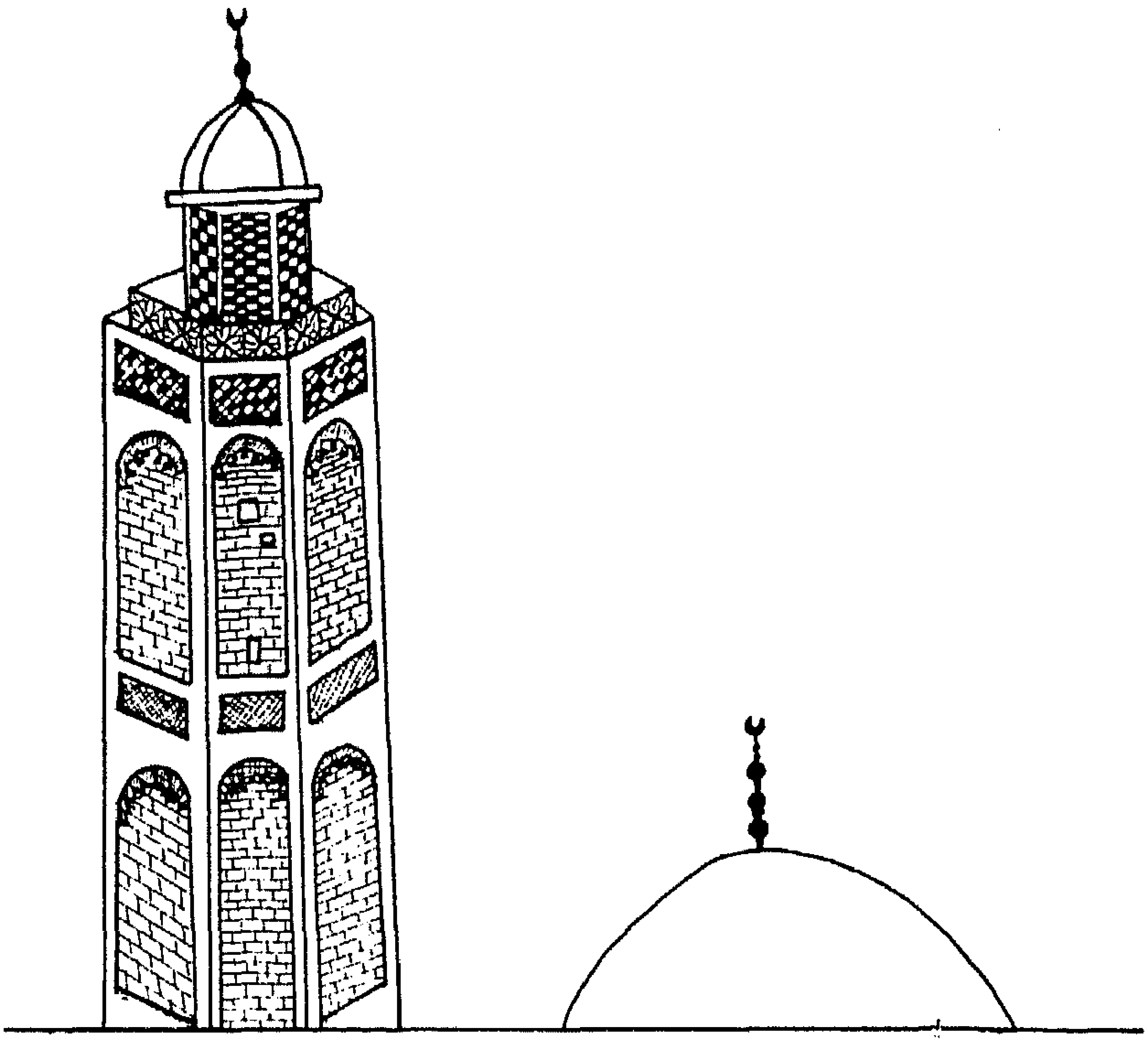

شكل (٤١) : رسم تخطيطي لمئذنة مسجد حسن باشا بوهـــران

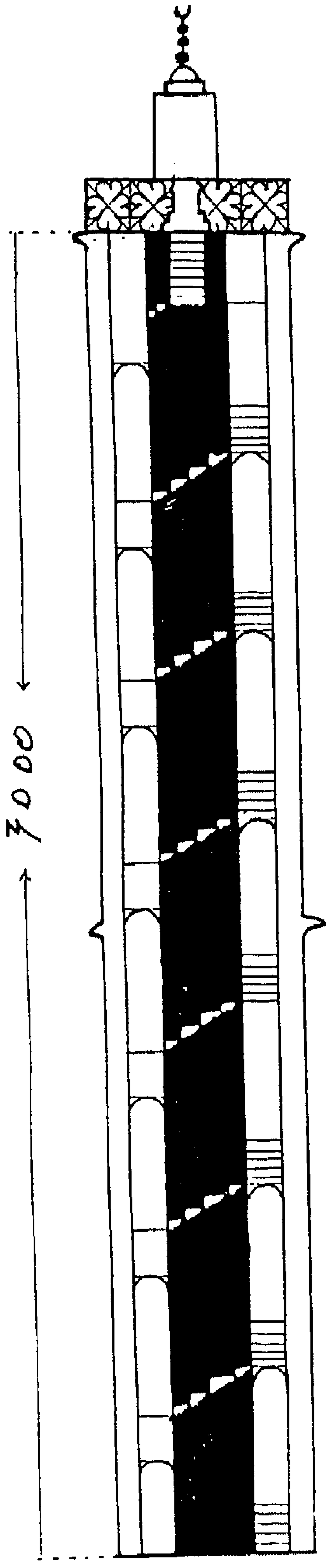

شكل (٤٣) : مقطع طولى لمئذنة
مسجد حسن باشا (وهران) .

شكل (٤٢) : مقطع عرضى لمئذنة
مسجد حسن باشا (وهران) .

مقياس : ١ : ١٢٥

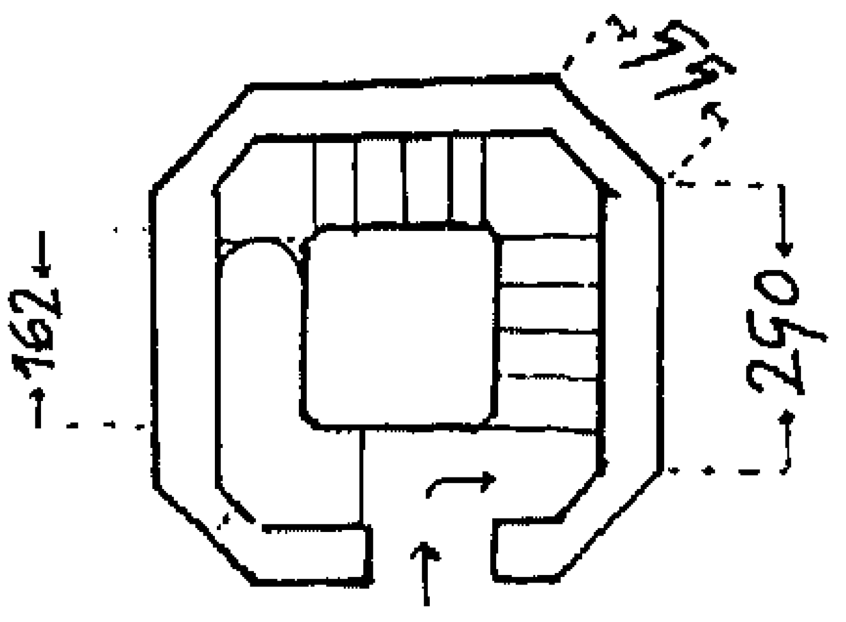

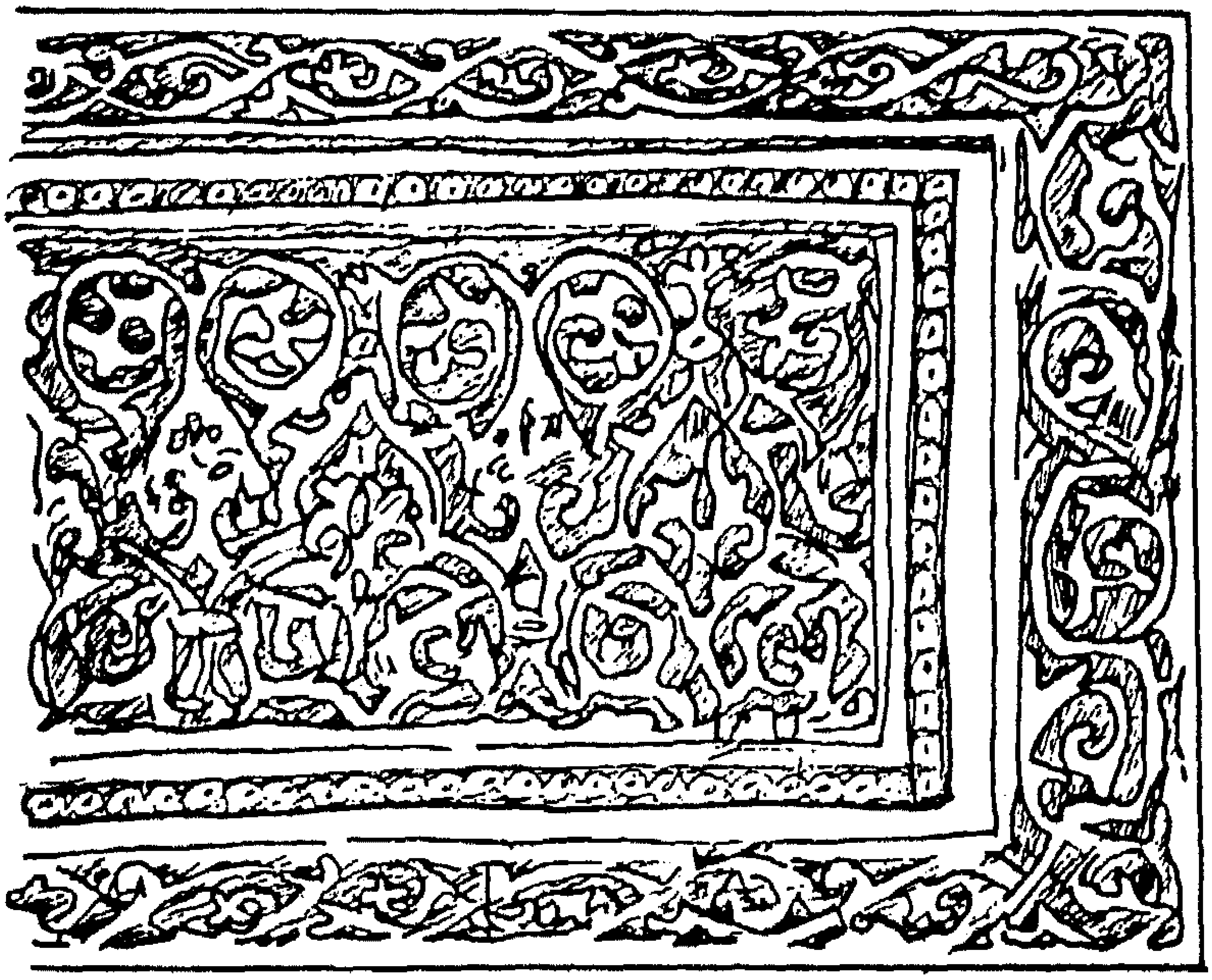

شكل (٤٤) : حشـــوة من الحجر المنحـوت تعلو باب مئذنة مسجـــد
قلعـــة بنى حماد . (عن دوبيلـــــى) .

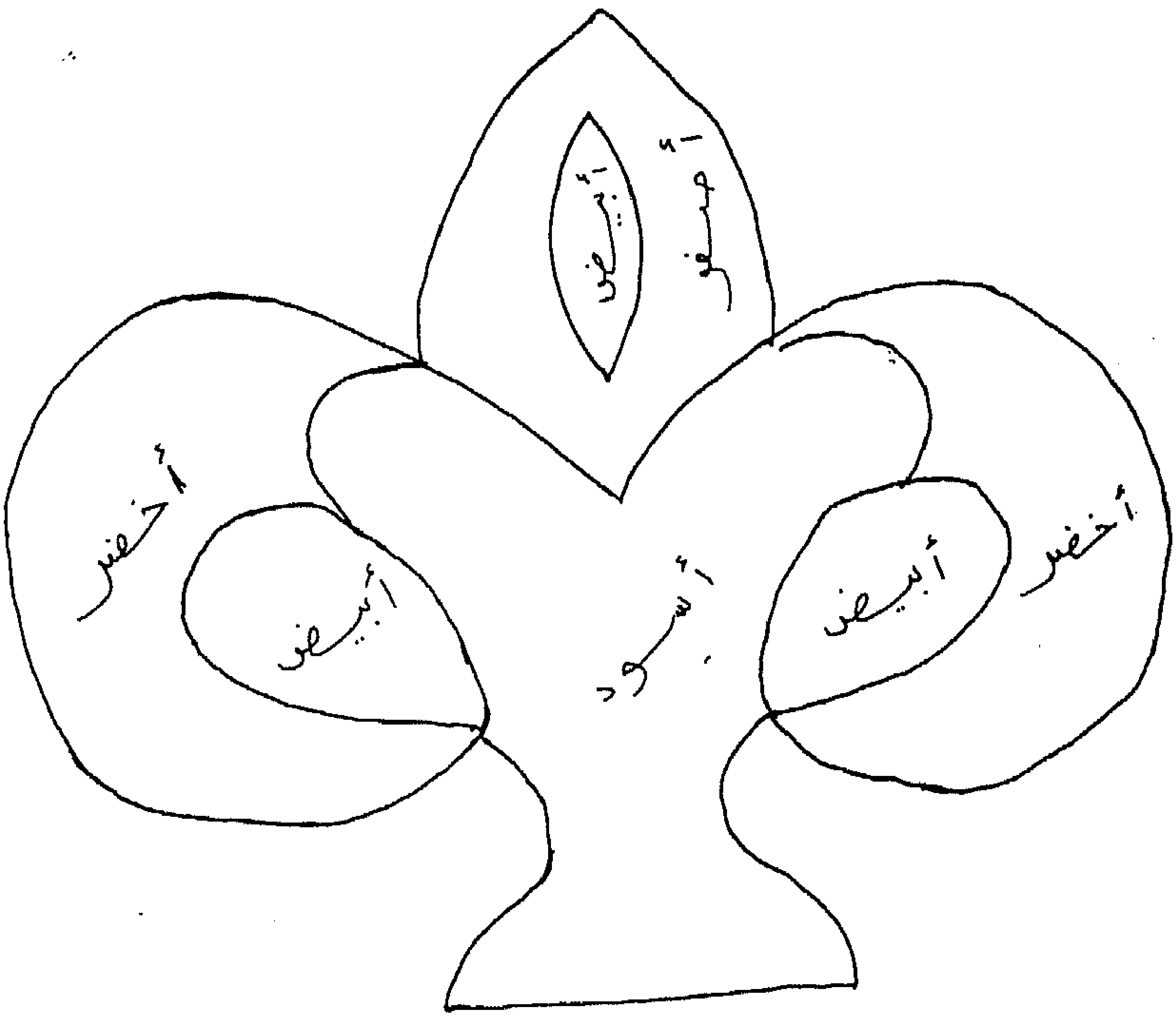

شكل (٤٥) : زخرفة نباتيـة فى جامع سيدى ابى مديـــــن .

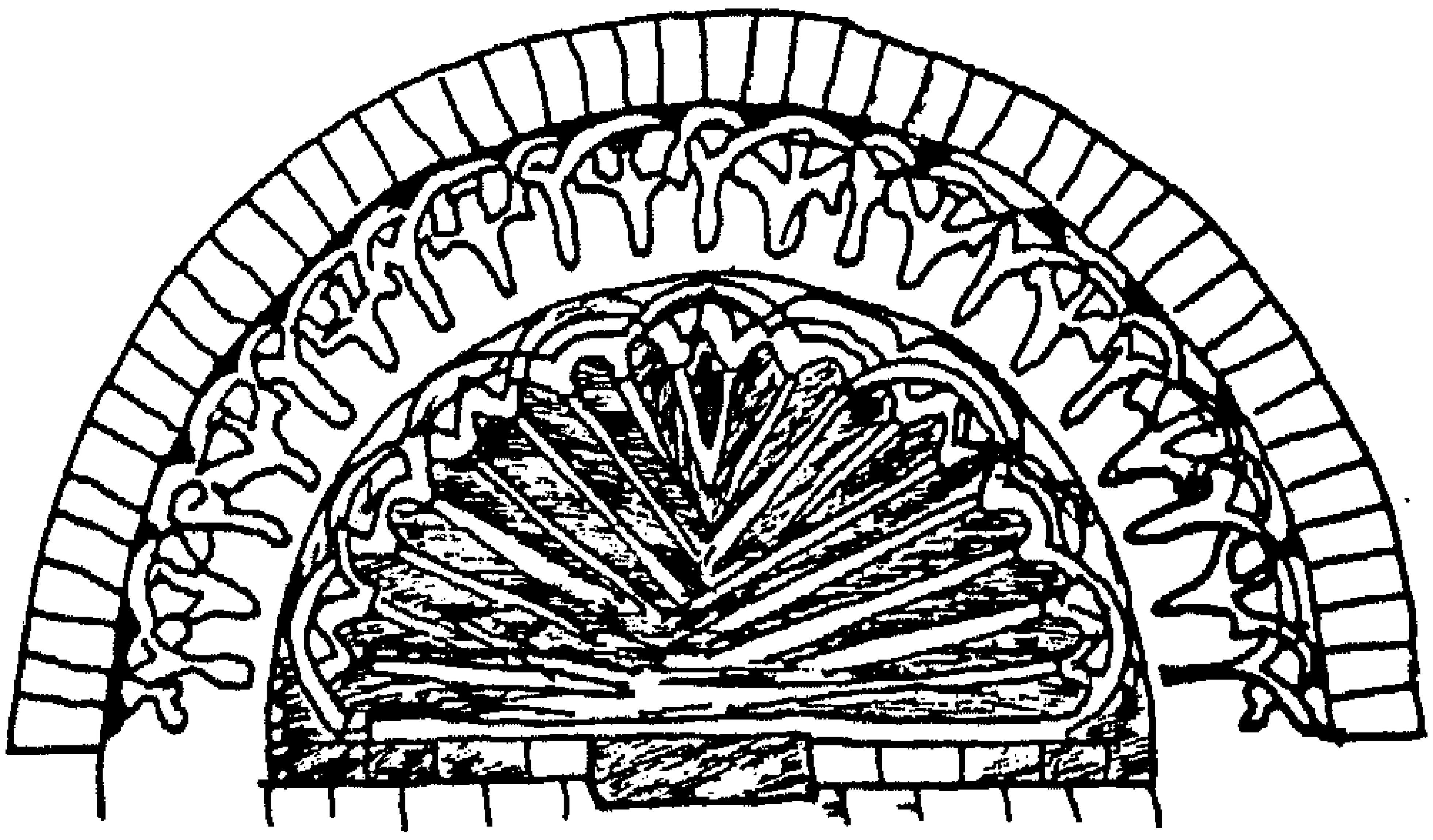

شكل (٤٦) : صدفة مطلية بالجص فى الحنايا الجانبية لمئذنة جامع قلعة بنى حماد (عن دوبيلى)

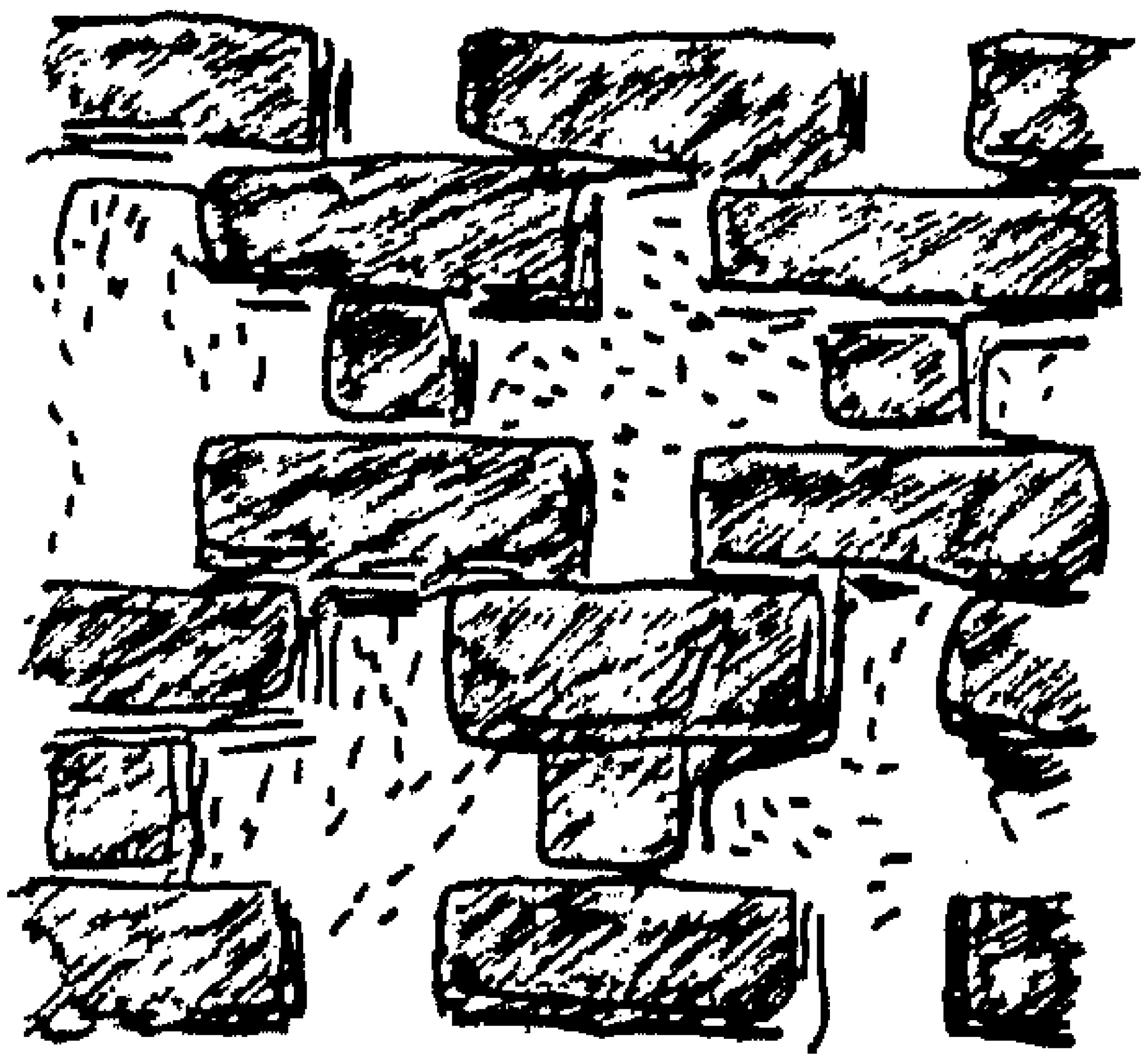

شكل (٤٧) : آجر مطلى بالمينـاء

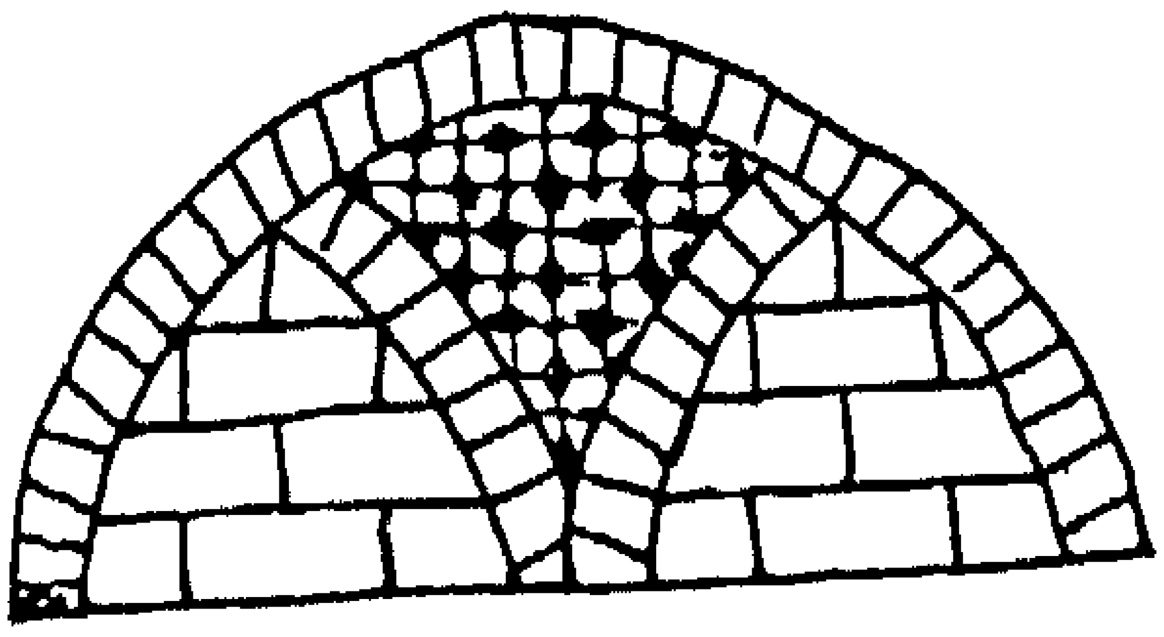

شكل (٤٨) : أطار النا فذة الصماء فى الطابق الأخيـر (عن دوبيلى).

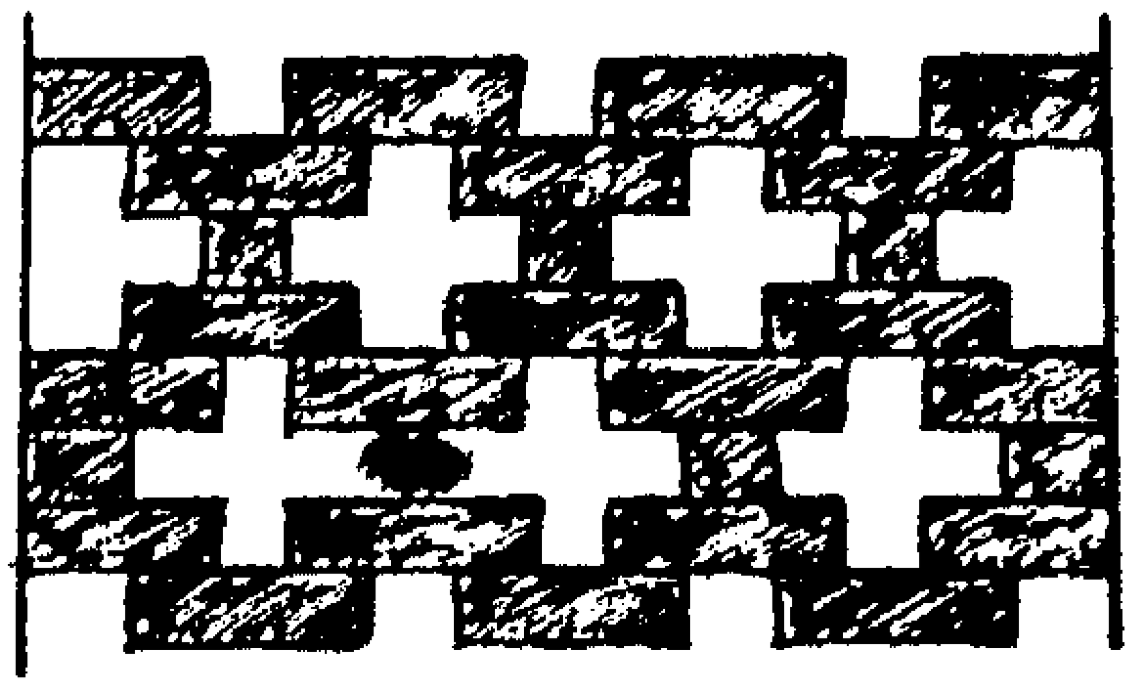

شكل (٤٩) : نوافذ صماء من الحجر فى الطابق الثالث واجر مطلـــى بالاخضر. (عن دوبيلـــى)

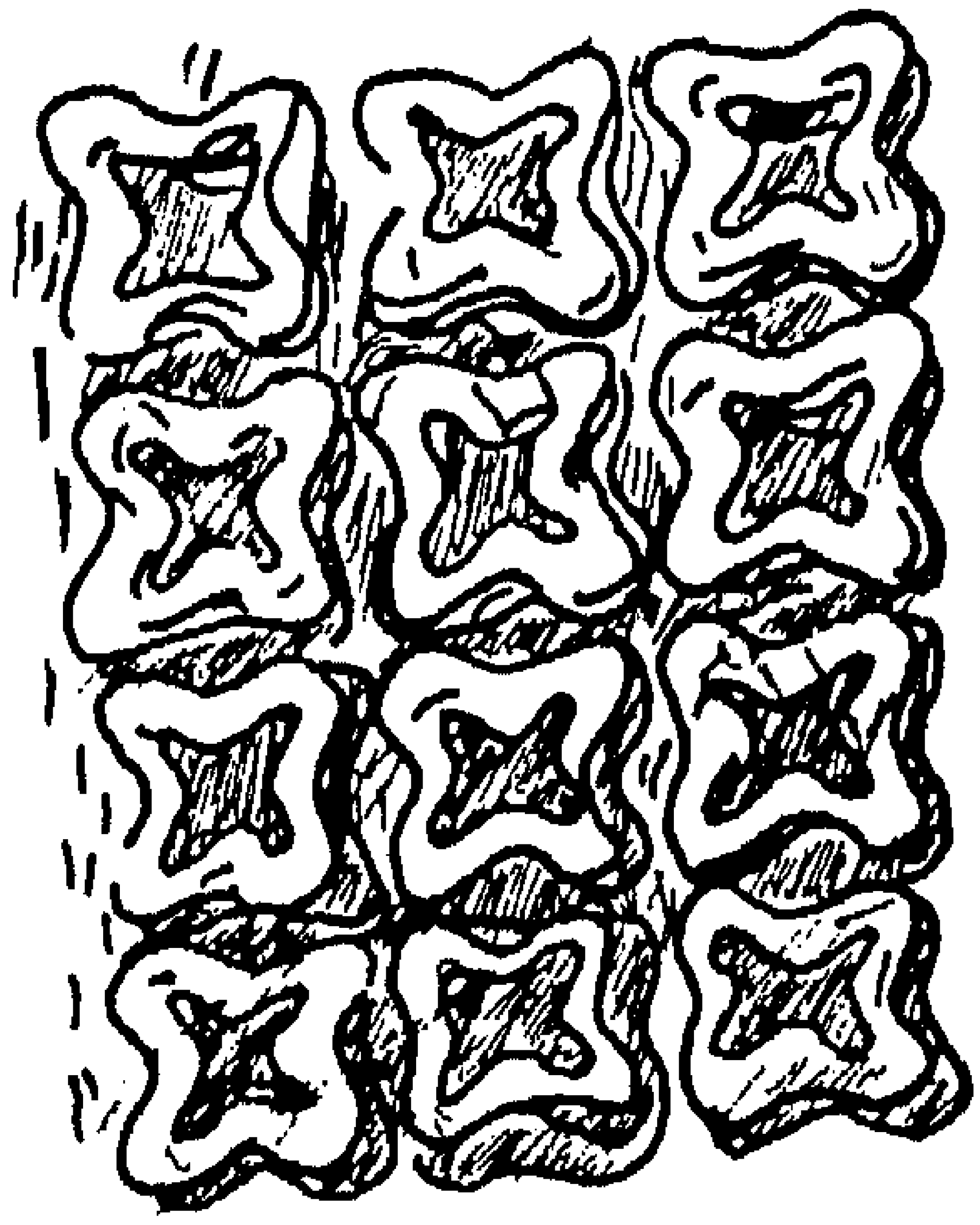

شكل (٥٠) : اشكال هندسية مرصعـــة

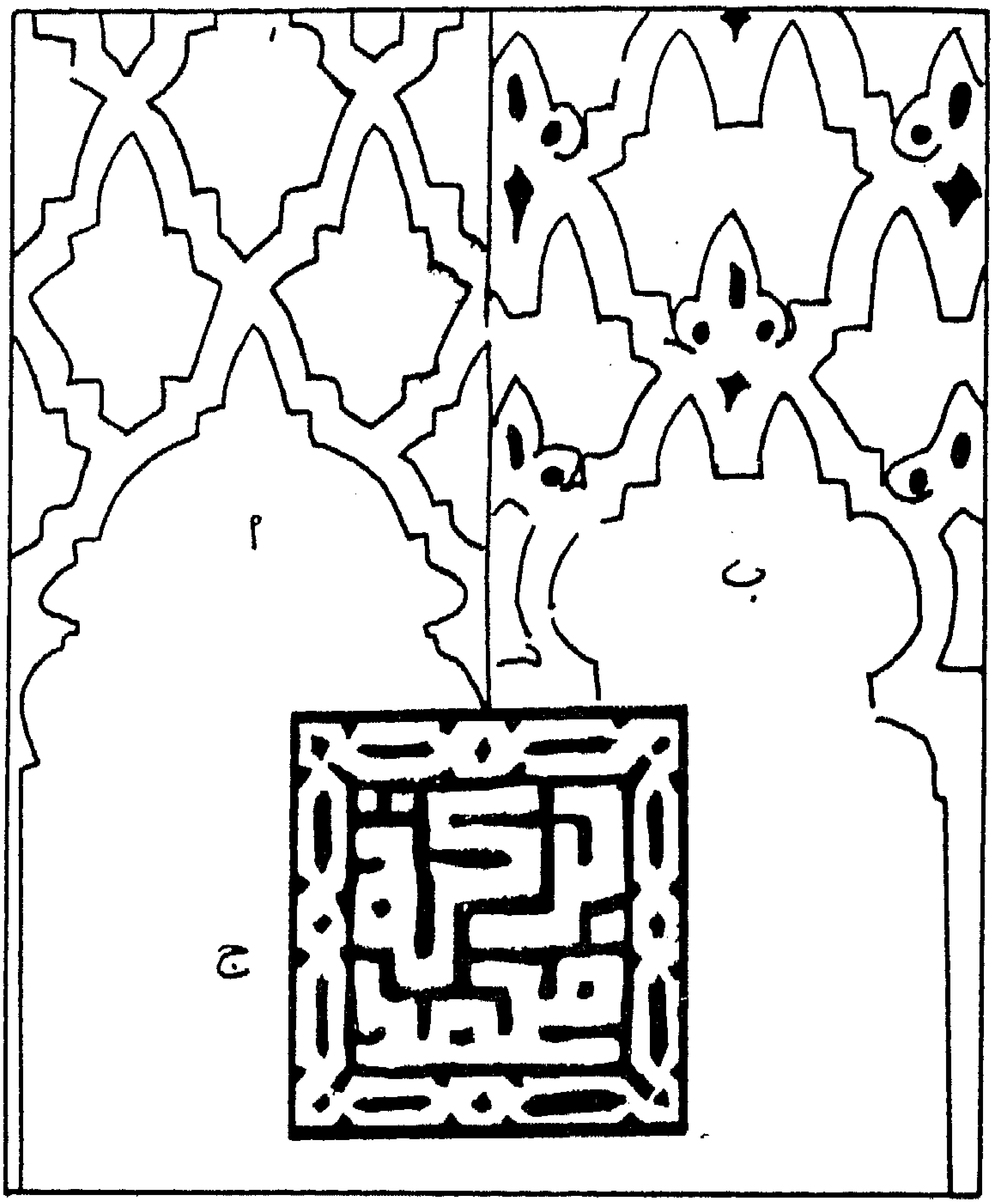

شكل (٥١) : أ - ب : نماذج تشبيكات زخرفية لجانب من المئذنة (سيدى أبى مدين)
جـ : كتابة بالخط الكوفى المربع الزوايـا .
(عن جورج ووليام مارسيـه) .

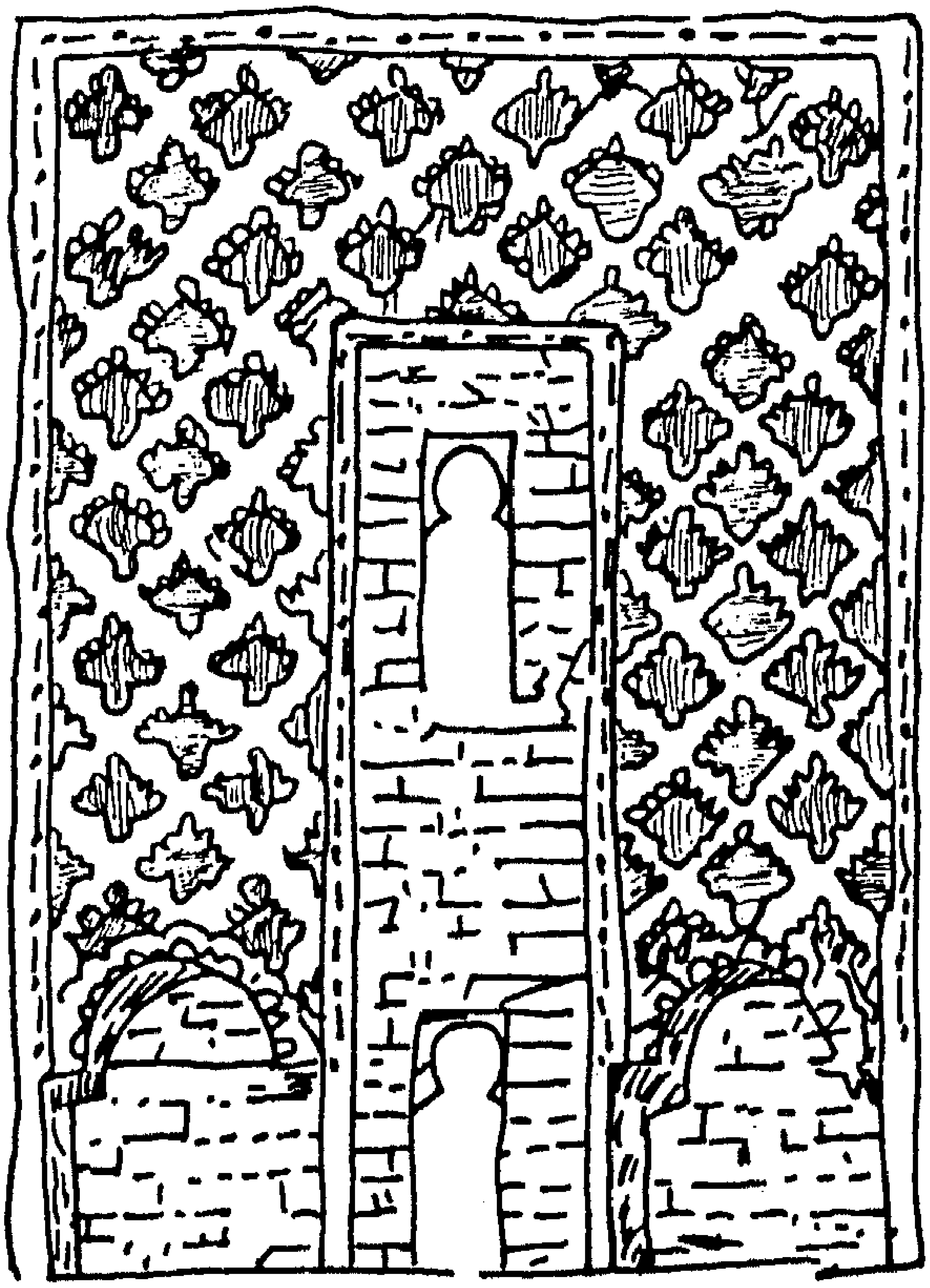

شكل (٥٢) : جانب من زخارف مئذنة المنصورة بتلمسان عن مارسيه

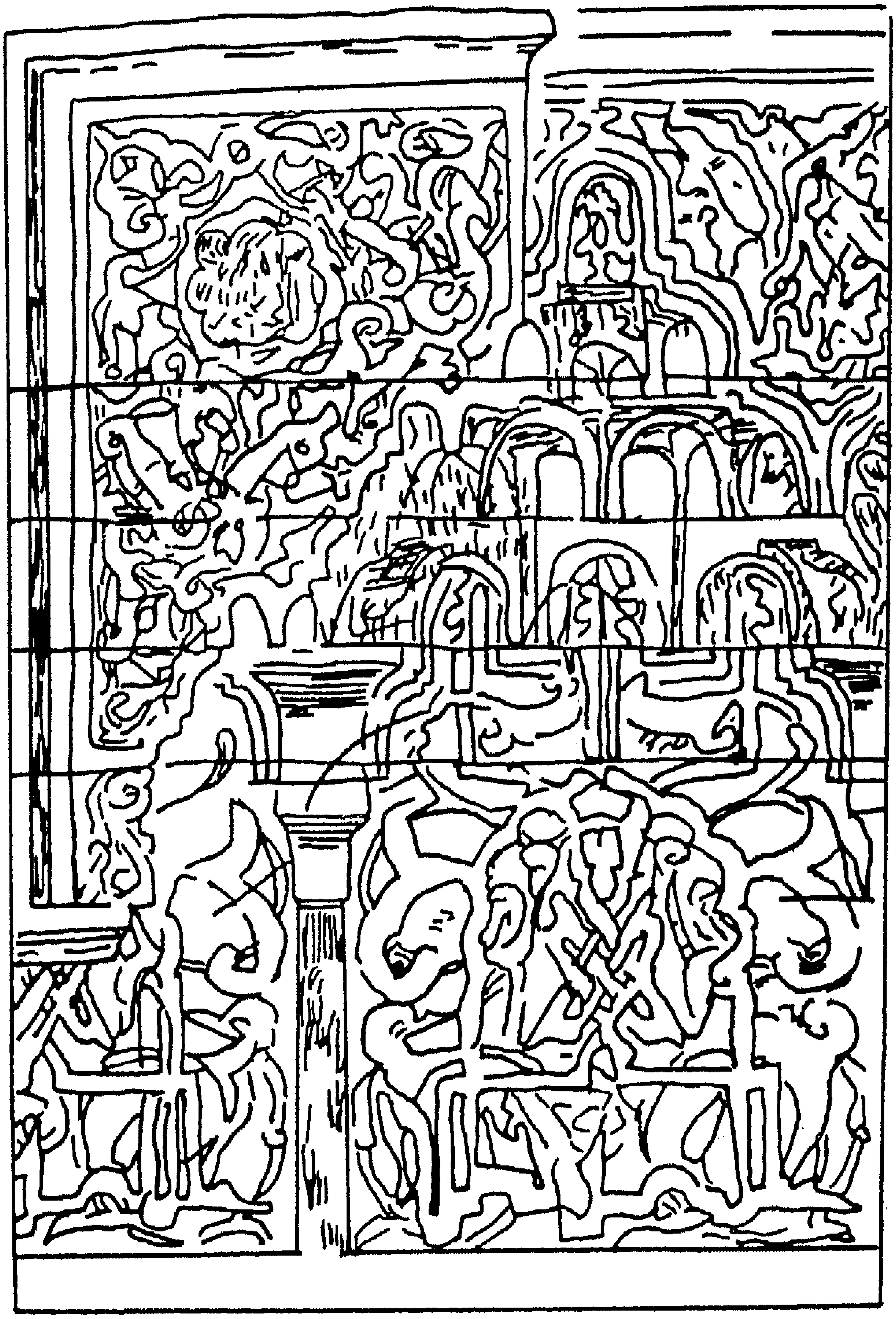

شكل (٥٣) : حشوات زخرفية لشرفة المئذنة ومنظر وجهى للمقرنصات ومنظر جانبى للدعائم الجانبية (المنصورة) . عن جورج ووليام مارسيه .

شكل (٥٤) : طوق نحاسى دائرى مجوف مزين بزخرفة كتابية كان يتوج مئذنة المسجد الجامع بتلمسان . (عن بورويبة) .

ثانياً: اللوحـــات

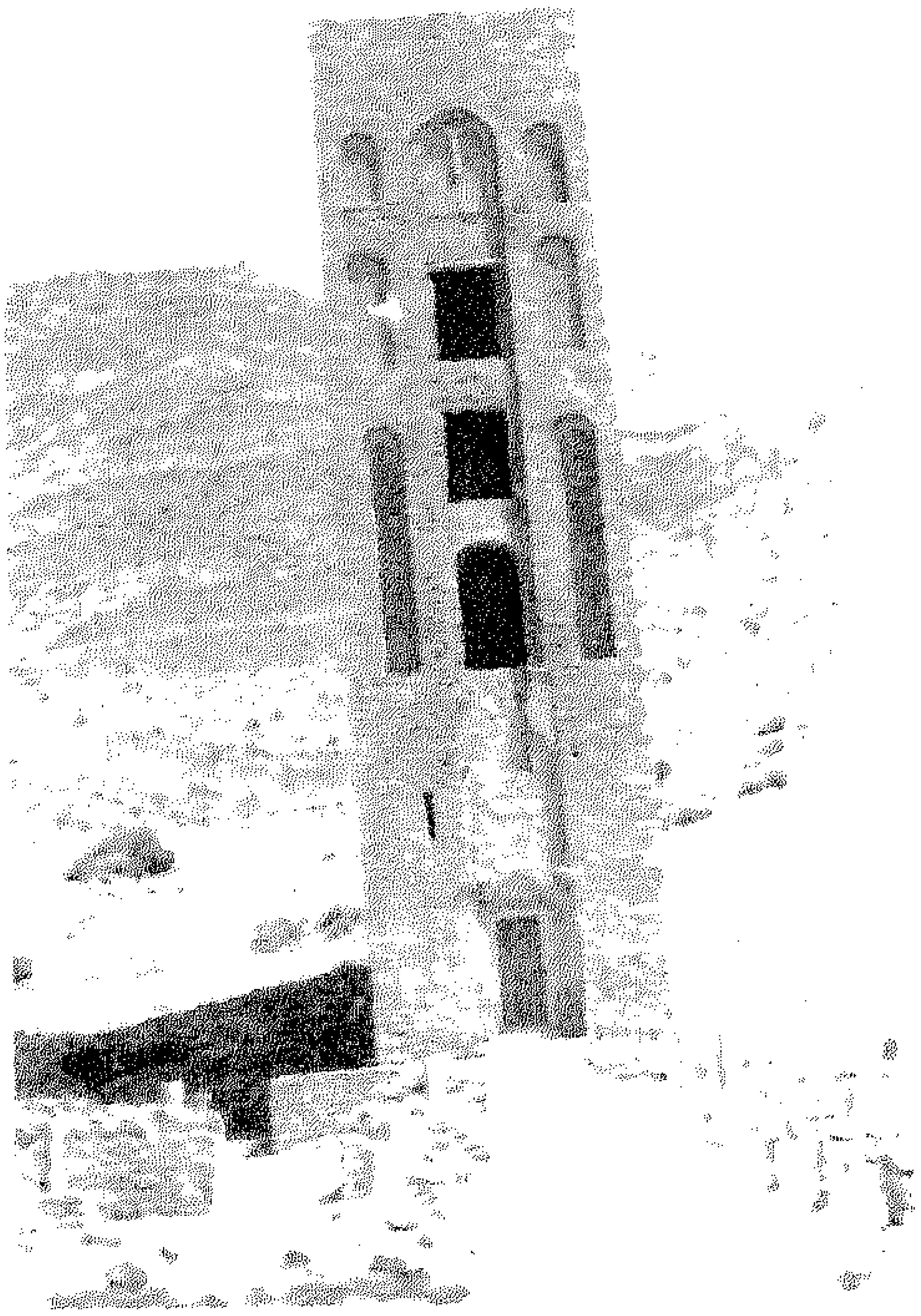

لوحة (١) : منظر لواجهة مئذنة قلعة بنى حماد - أول مئذنة فى الجزائر .

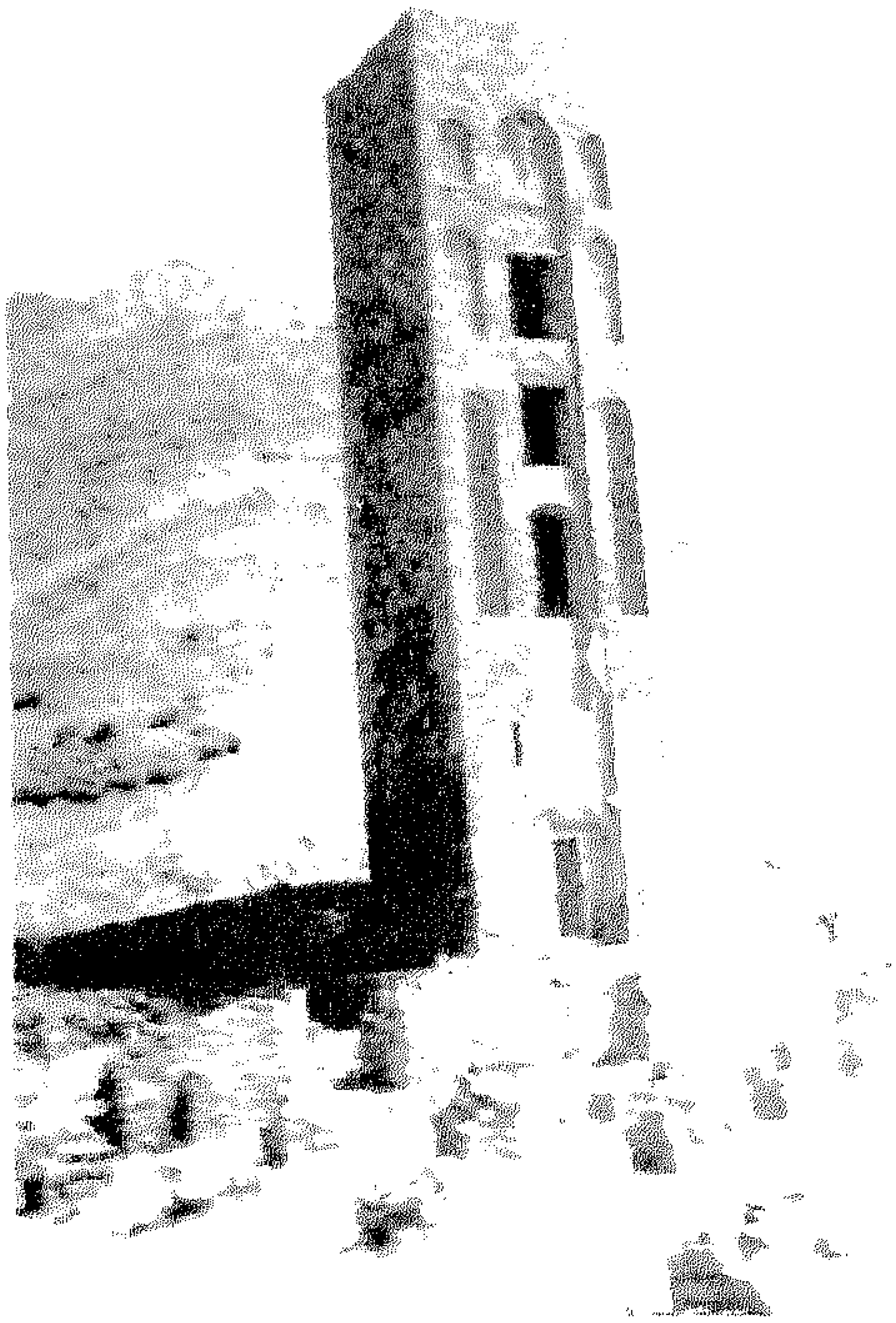

لوحة (٢) : منظر جانبى لمئذنة قلعة بنى حماد .

لوحة (٣) : فتحة على شكل مزغل للاضاءة والتهوية والمراقبـــة. (مئذنة قلعة بنى حماد)

لوحة (٤) : قبو متقاطـع يغطى سلم مئذنة قلعة بنى حماد من الداخل .

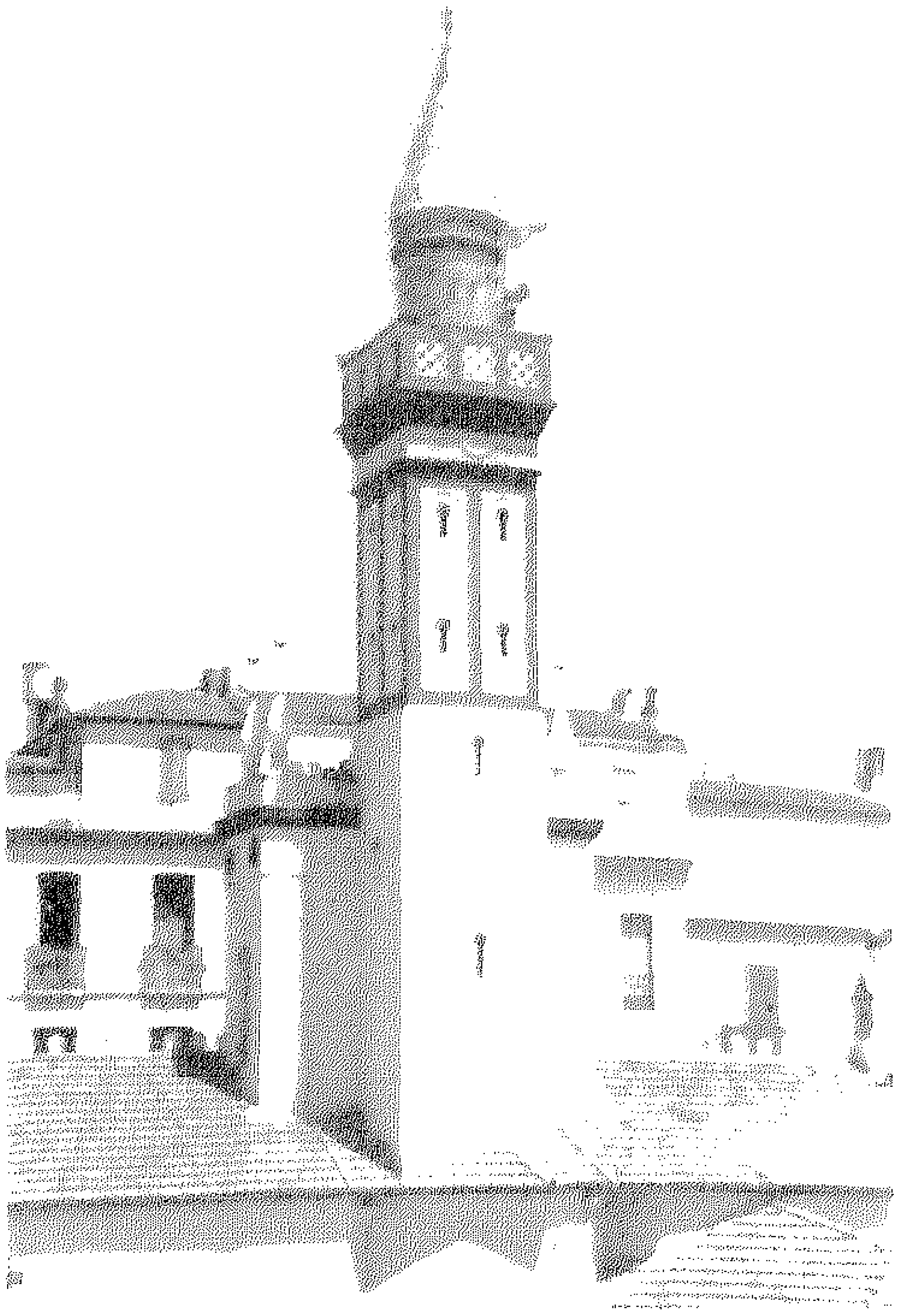

لوحة (٥) : منظر عام لمئذنة المسجد الجامع بقسنطينة .

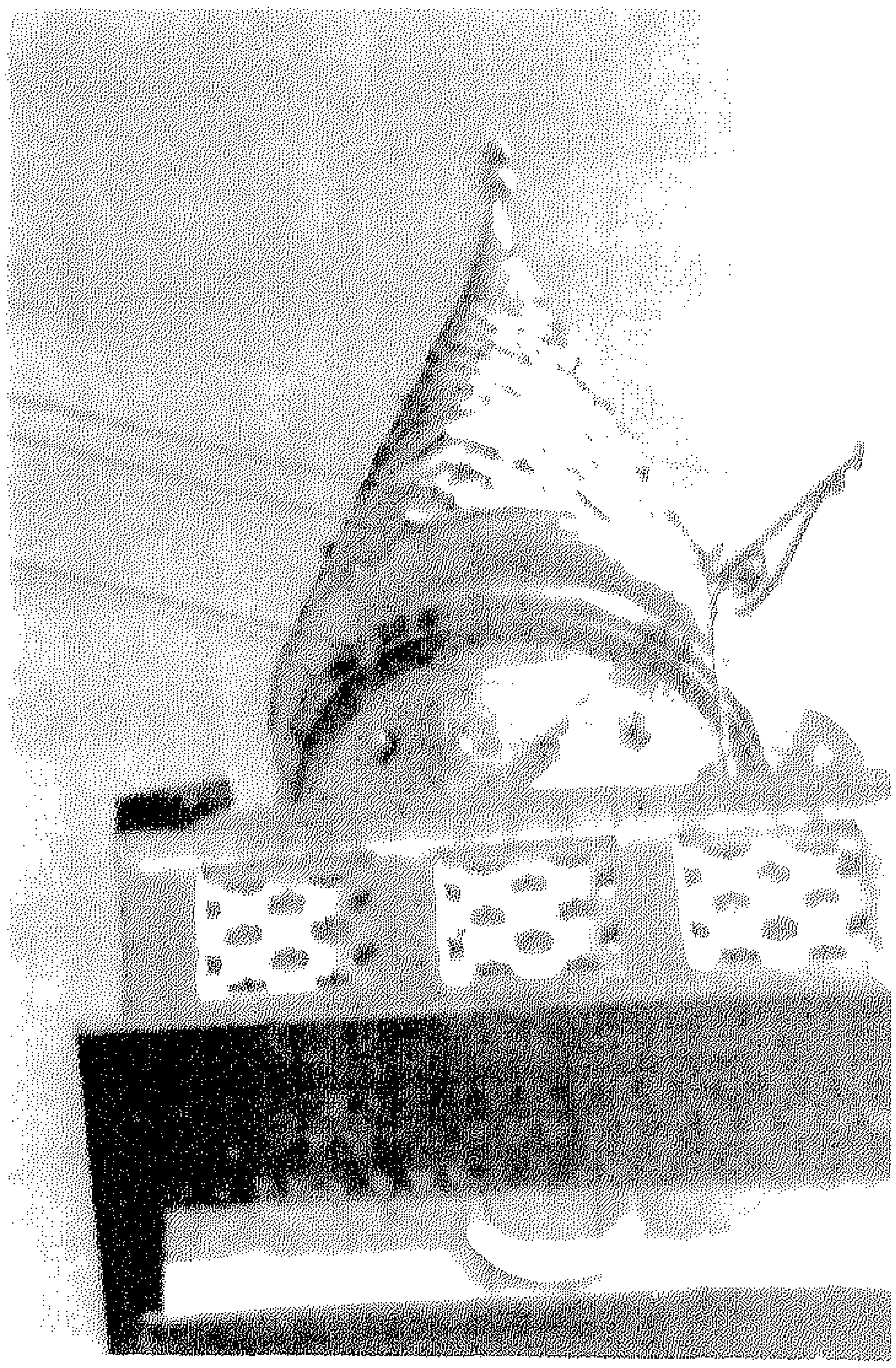

لوحة (٦) : جوسق مئذنة المسجد الجامع بقسنطينـــة .

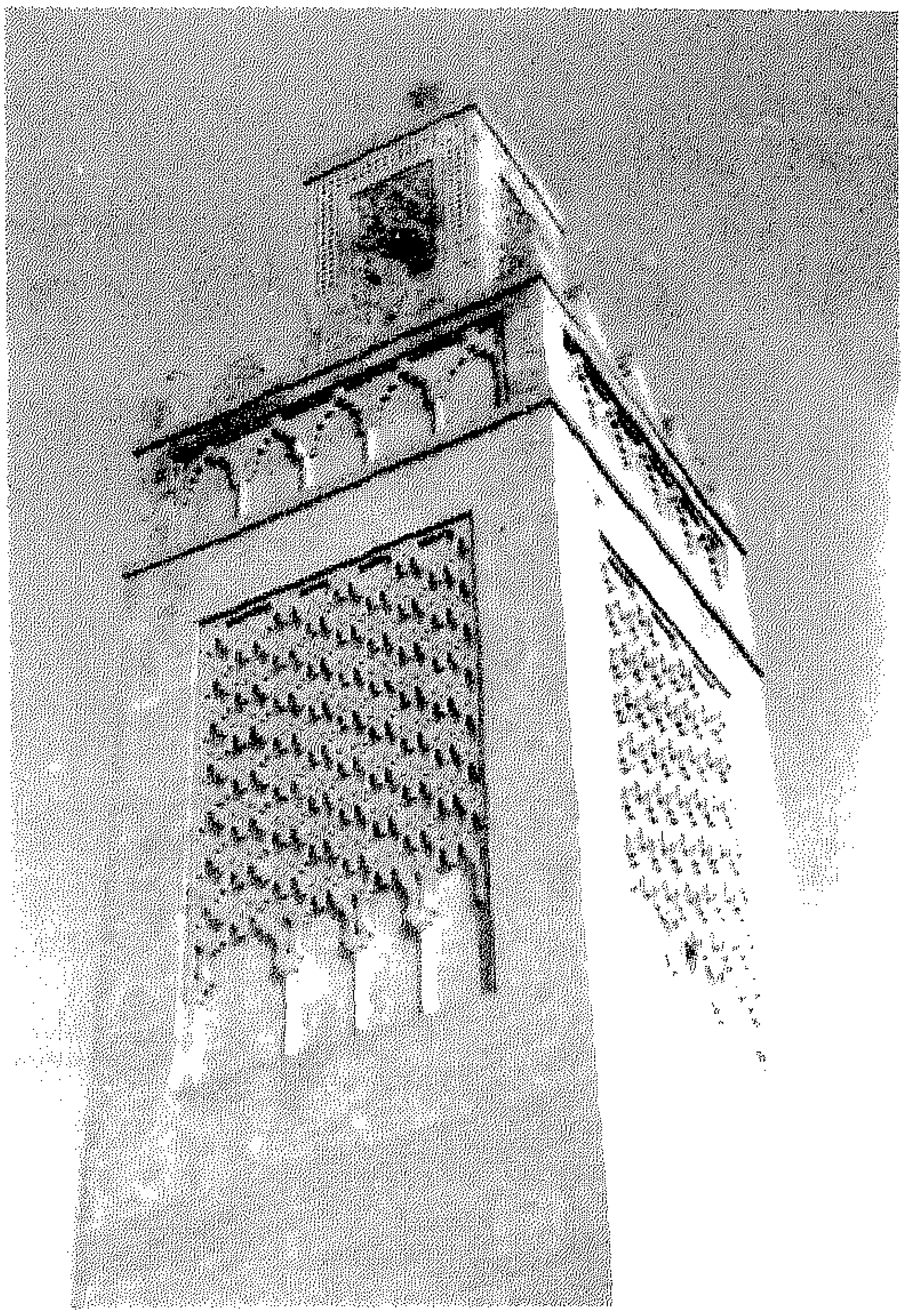

لوحة (٧) : مئذنة المسجد الجامع بتلمسان .

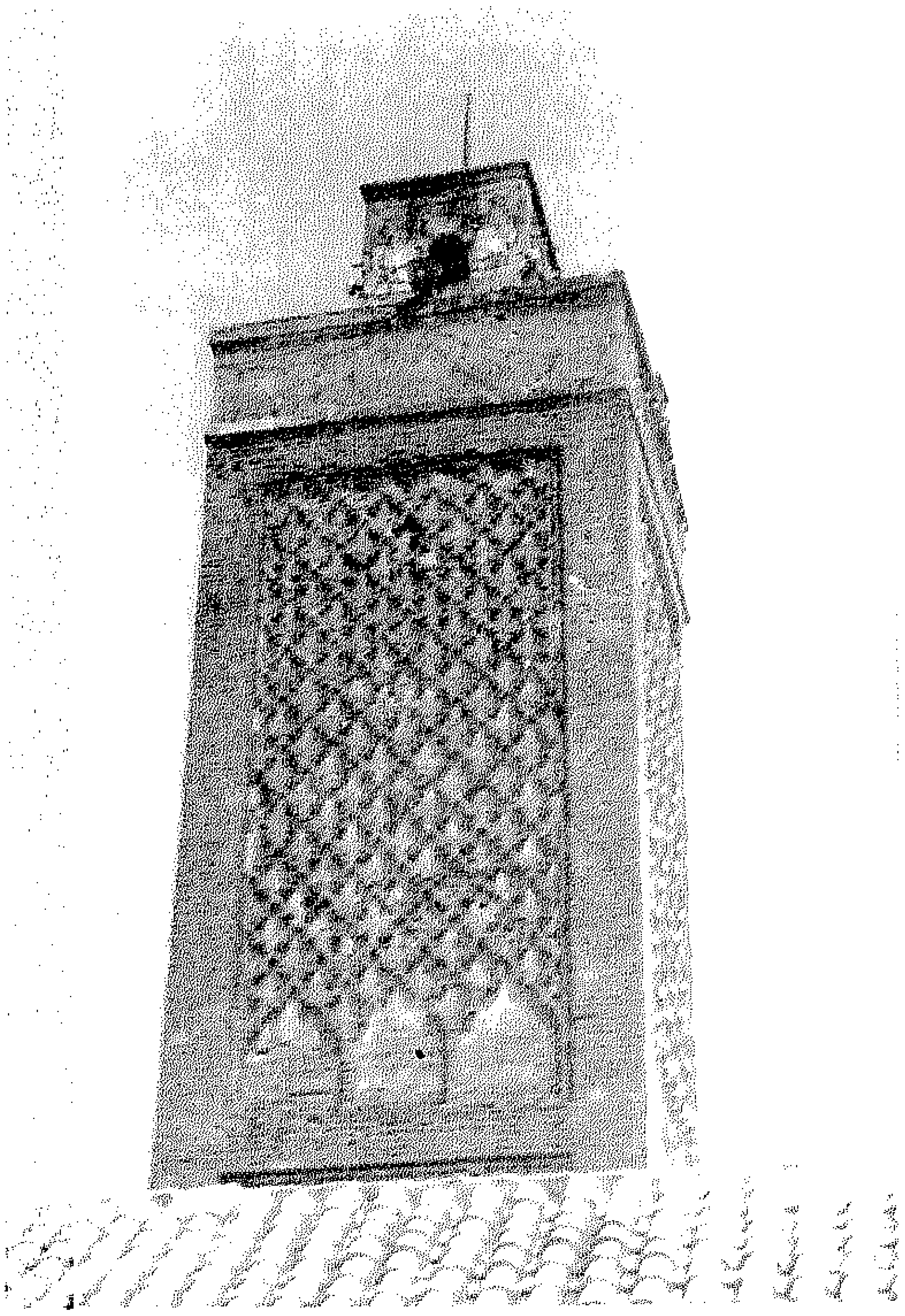

لوحة (٨) : مئذنة جامع ندروما

لوحة (٩) : مئذنة جامع سيدي ابى الحســن بتلمســـان .

لوحة (١٠) : الجزء العلوي لمئذنة جامع سيدى ابى الحسن (تلمسان)

لوحة (١١) : منظر عام لمئذنة جامع المشور. (تلمسان)

لوحة (١٢) : الجزء العلوى لمئذنة جامع المشـــور. (تلمسان).

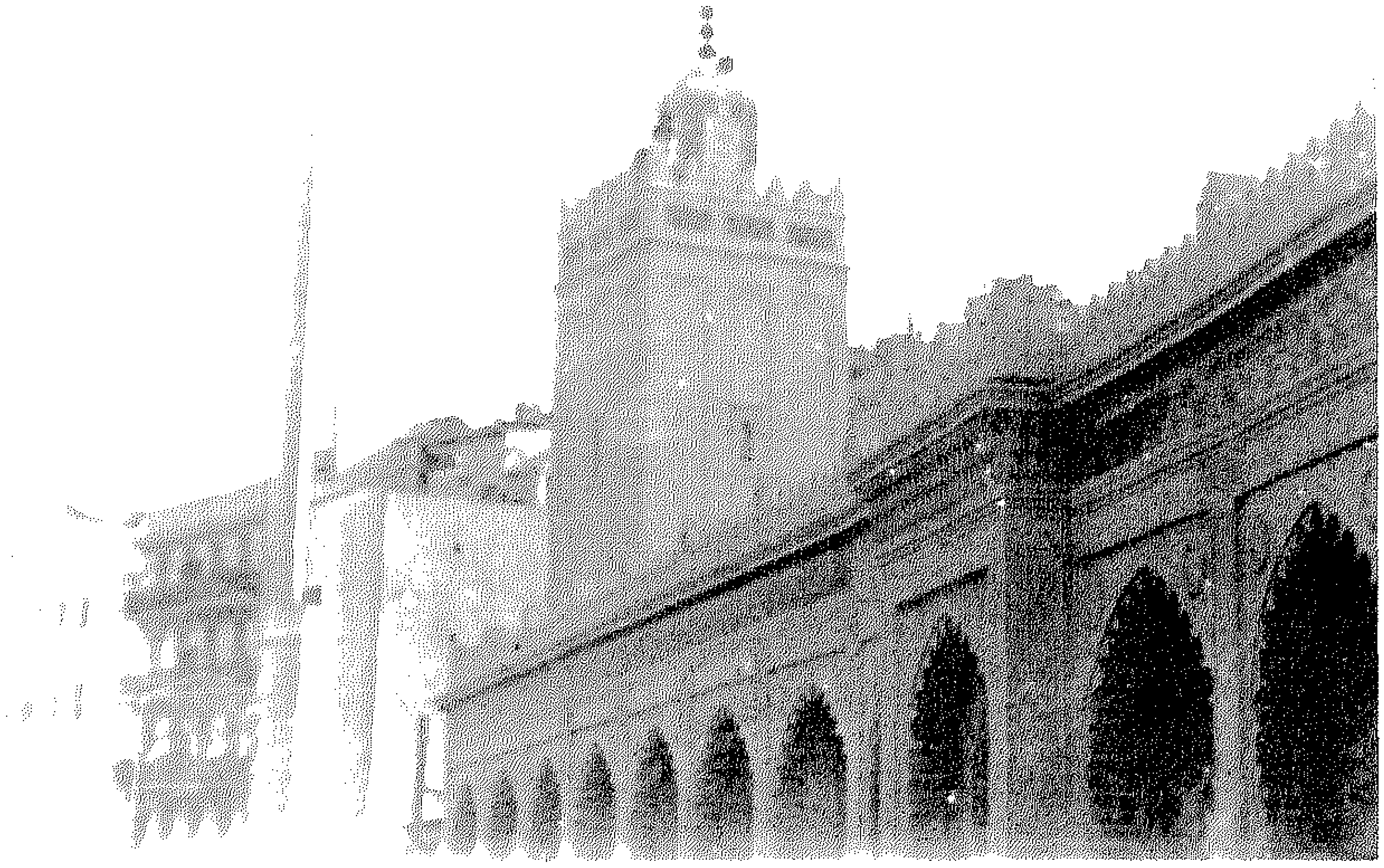

لوحة (١٣) : مئذنة جامع الجزائر العاصمــــة .

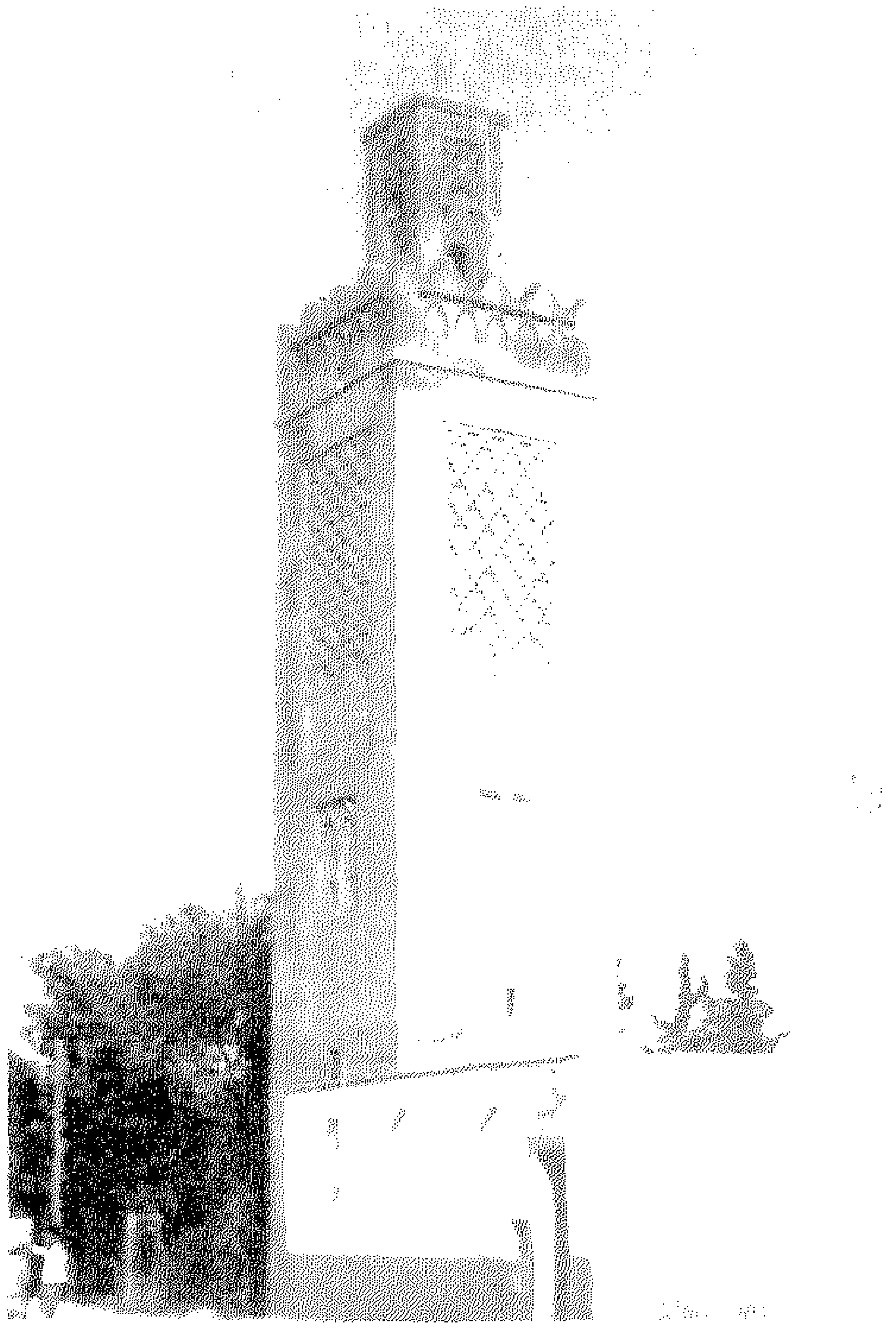

لوحة (١٤) : مئذنة جامع أغاديــــر (تلمســـــان) .

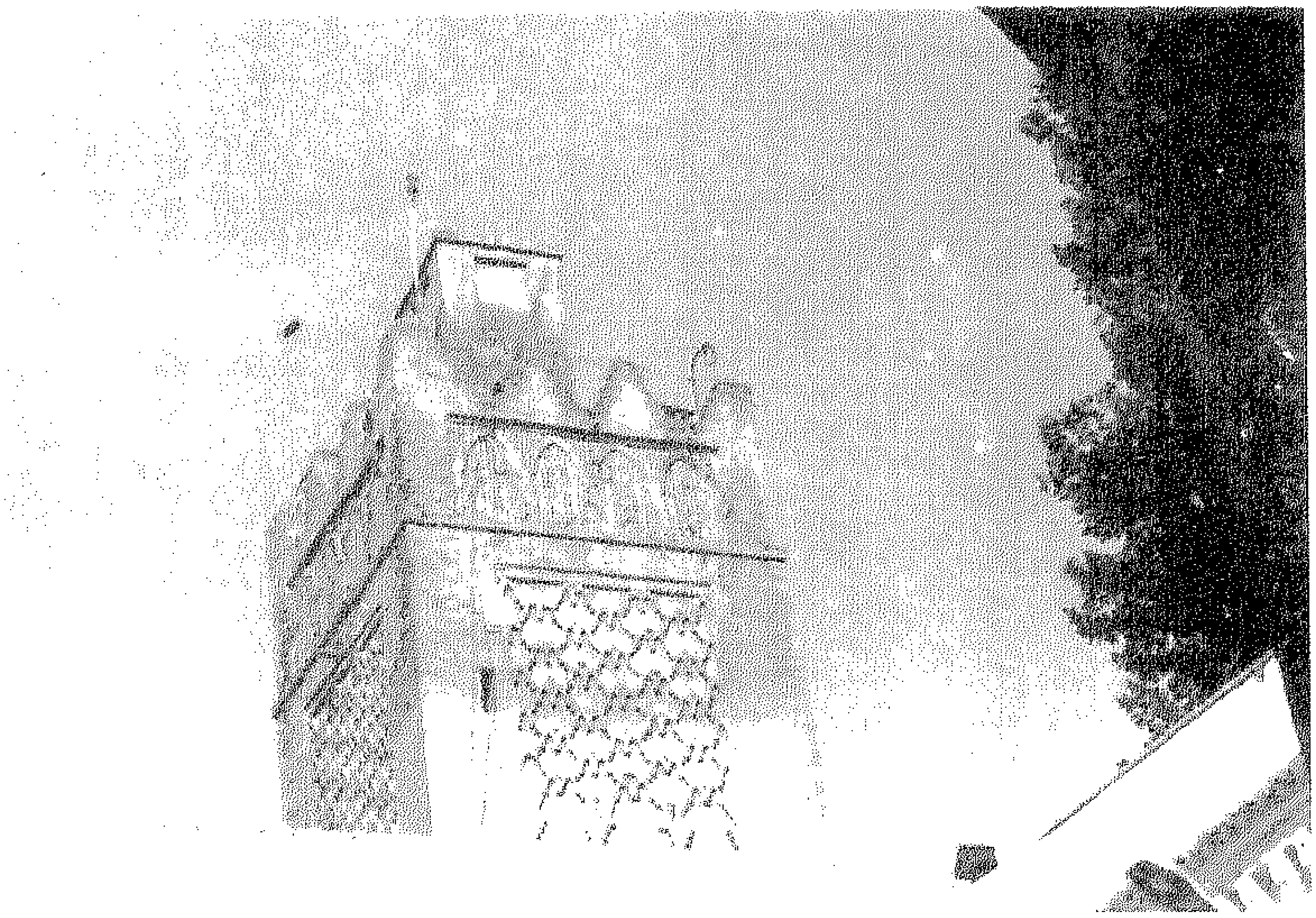

لوحة (١٥) : مئذنة جامع سيدي ابراهيـم (تلمســان) .

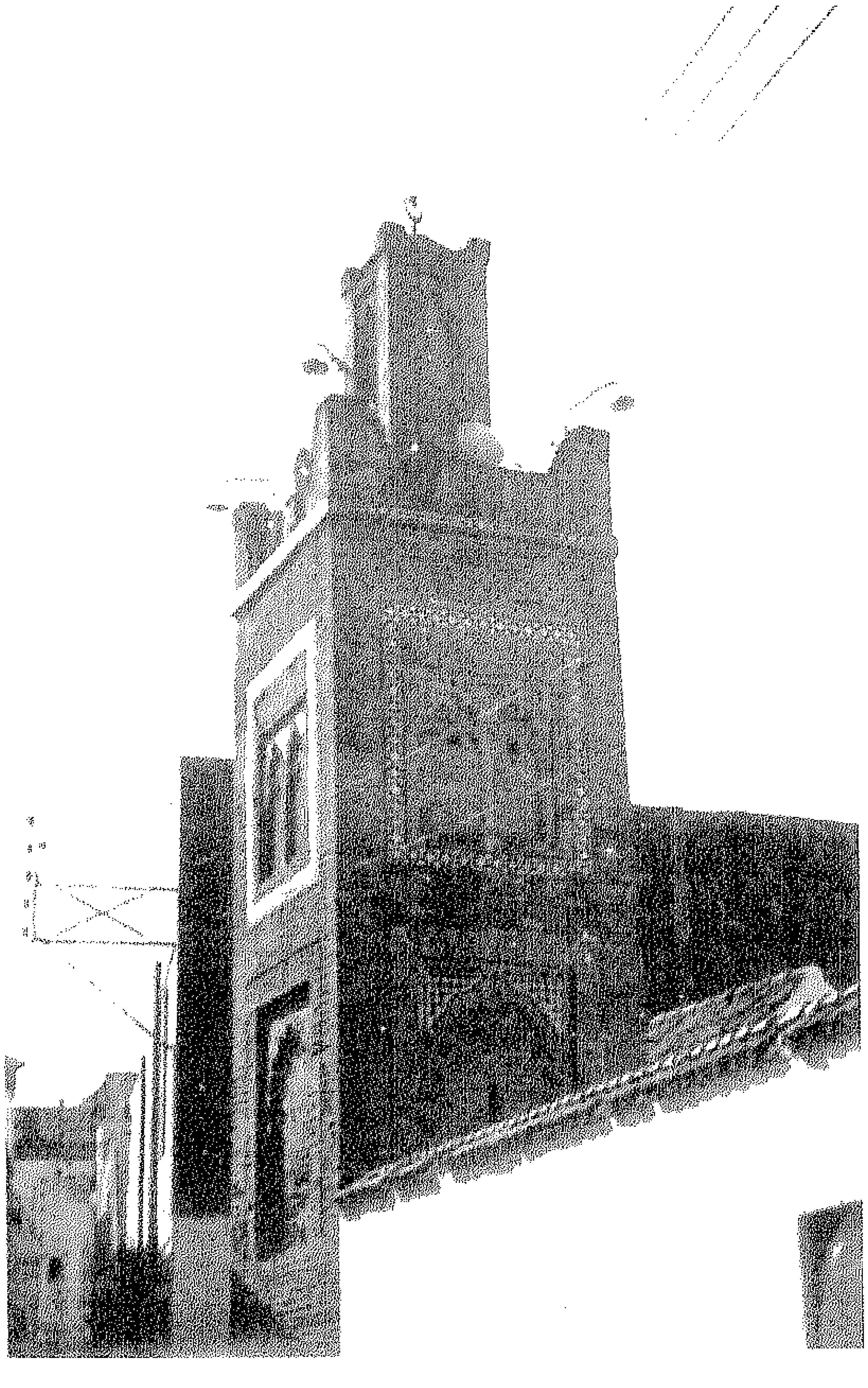

لوحة (١٦) : مئذنة جامع
اولاد الامام .
(تلمسان)

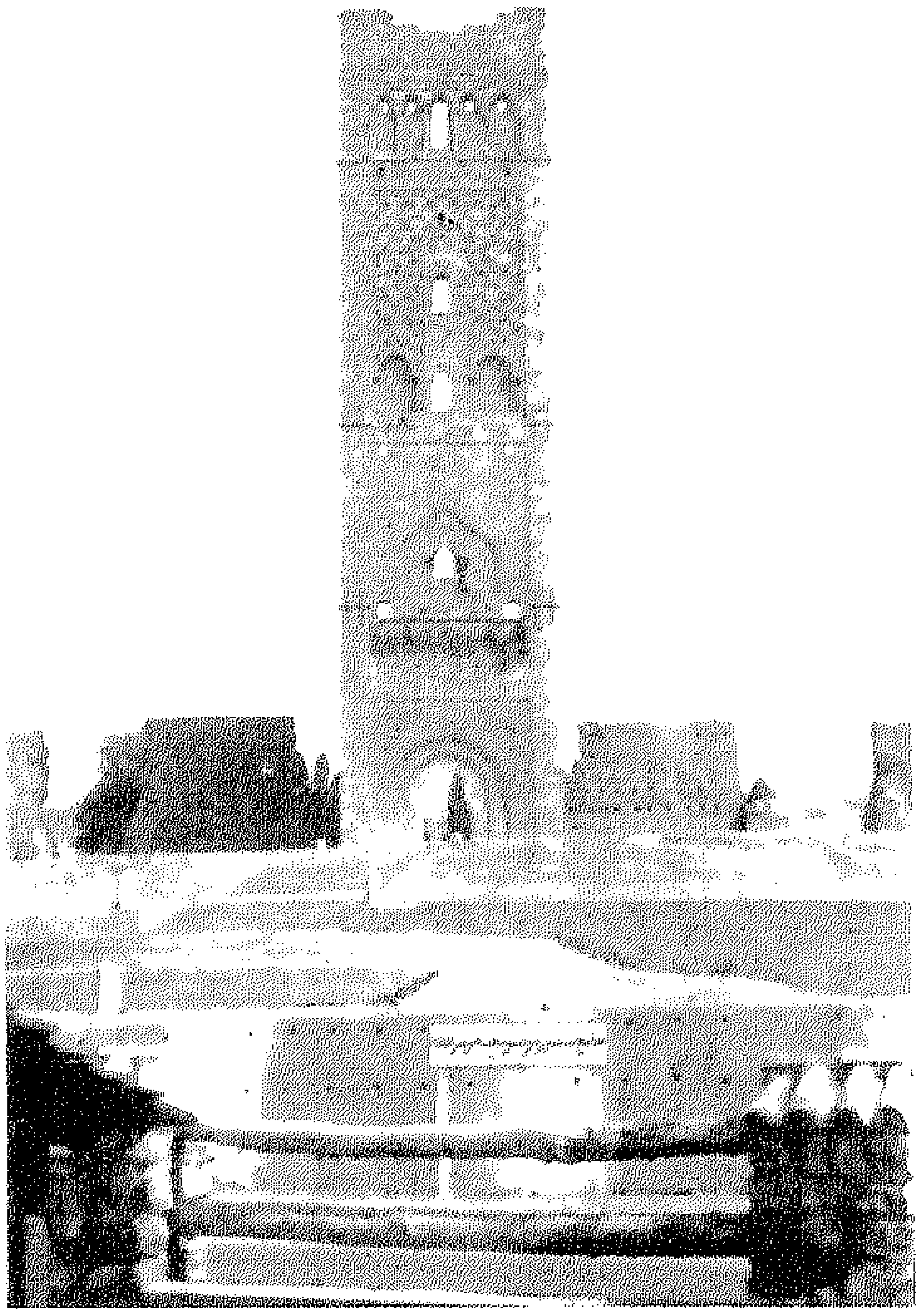

لوحة (١٧) : مئذنة جامع المنصورة، منظر للواجهـــة .

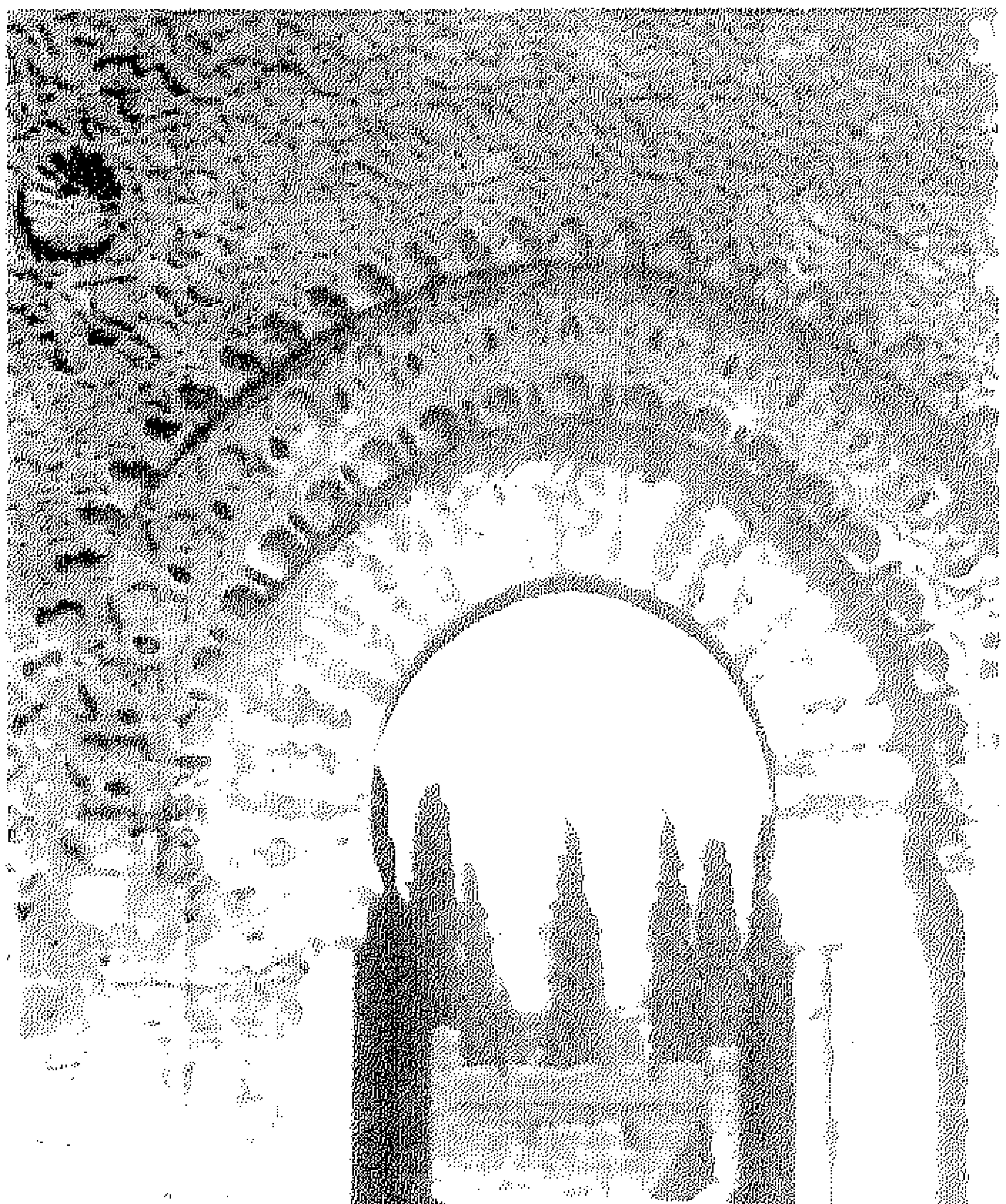

لوحة (١٨) : مدخل مئذنة جامع المنصورة والزخارف التى تعلـــوه.

لوحة (١٩) : الاطار الزخرفى الذى يعلو مدخل المئذنة (المنصورة) .

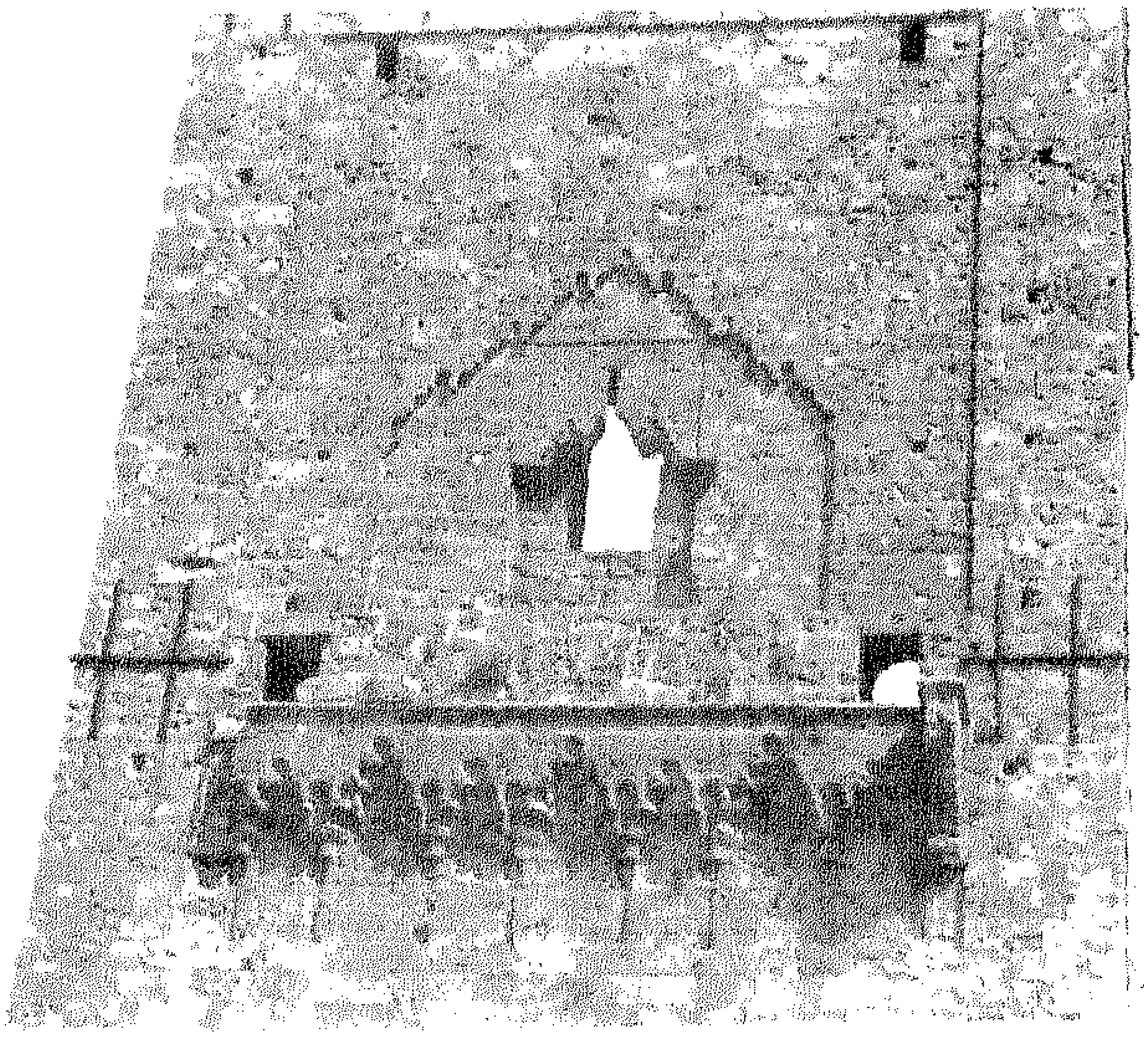

لوحة (٢٠) : الحشوة الثالثة التى تزخرف واجهة مئذنة المنصورة .

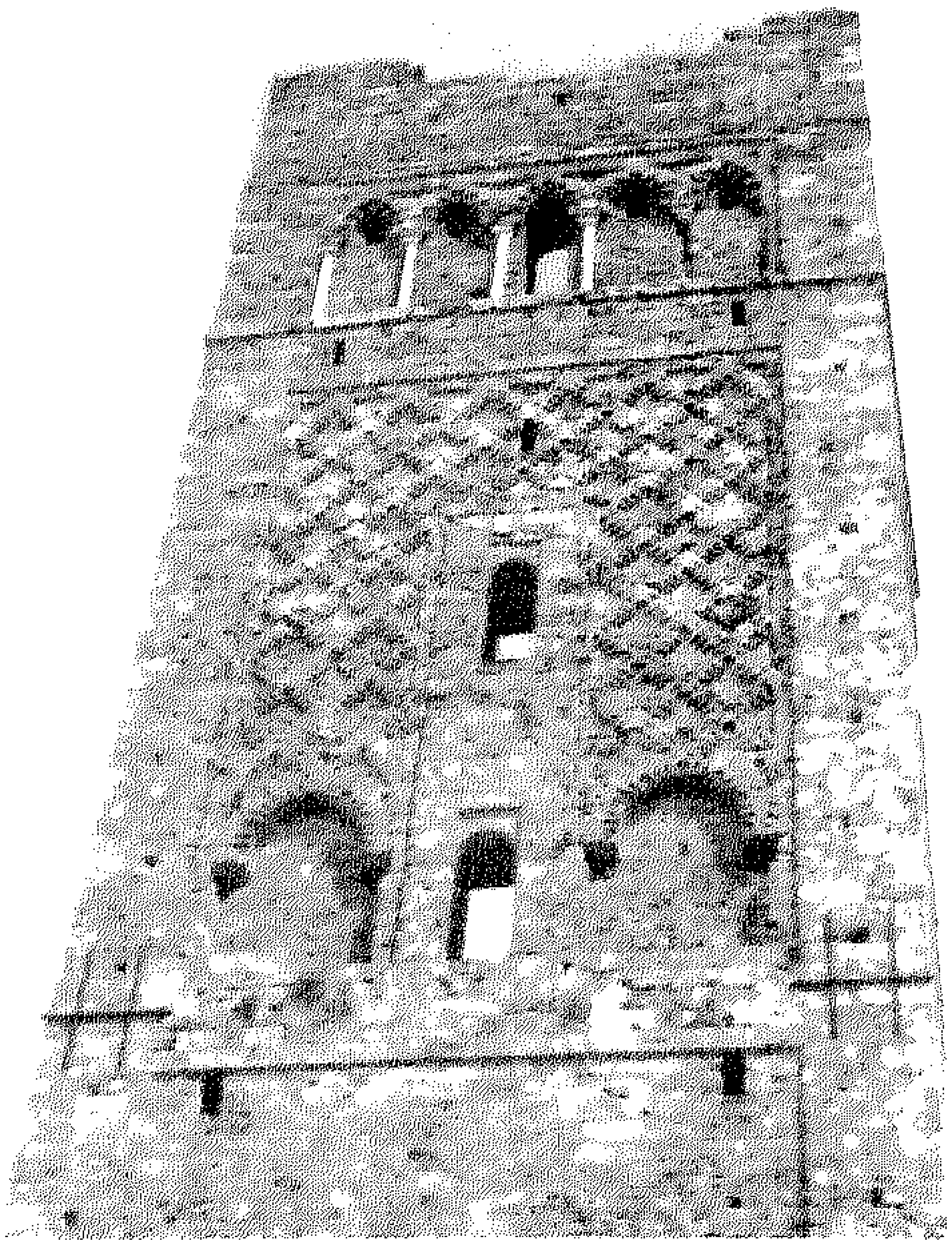

لوحة (٢١) : الجزء العلوي لمئذنـــة جامع المنصـــورة .

لوحة (٢٢) : منظر جانبى لمئذنة جامع المنصـــورة .

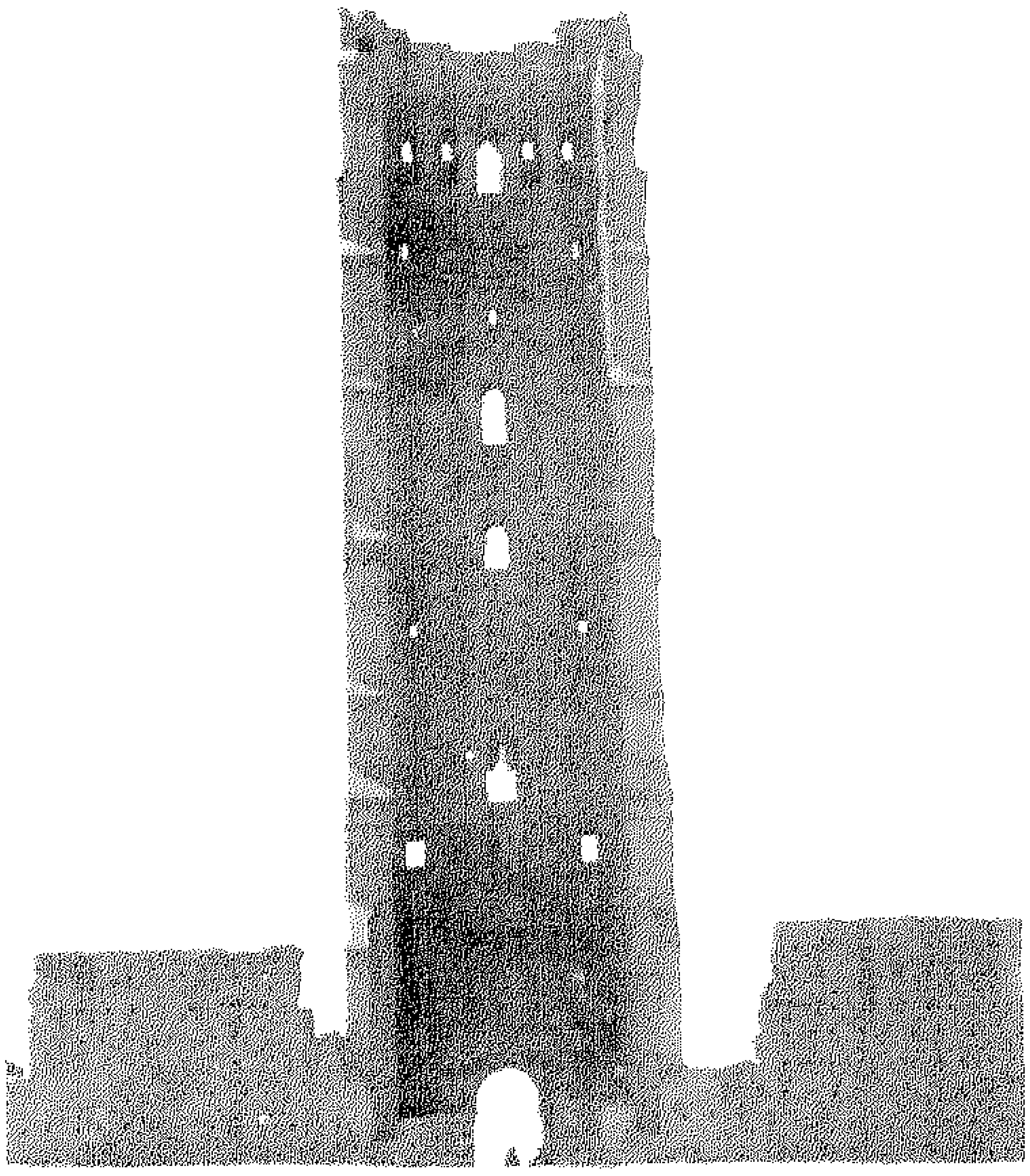

لوحة (٢٣) : منظر يبين تفاصيل المئذنة من الداخل (المنصورة) .

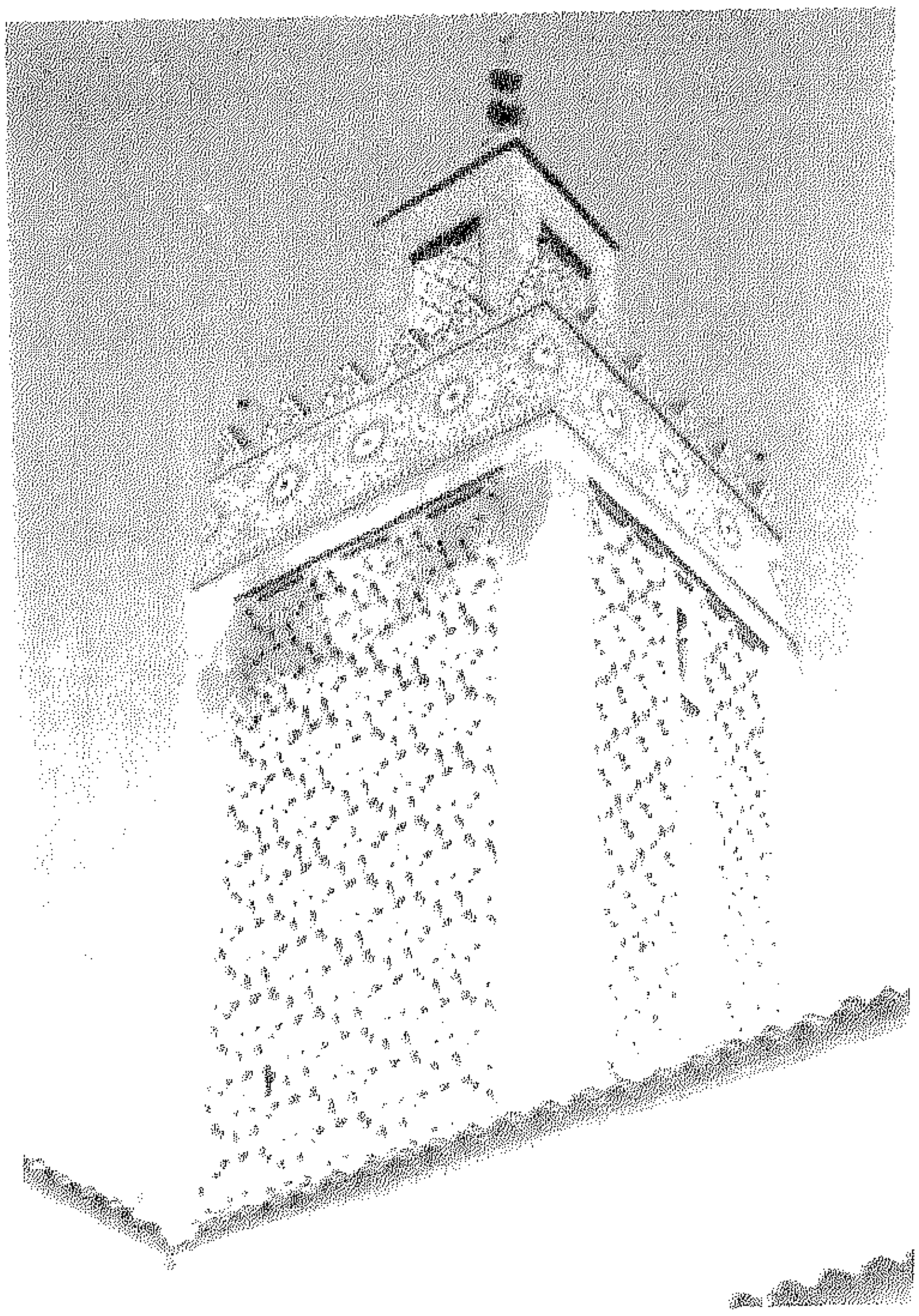

لوحة (٢٤) : مئذنة جامع سيدي ابى مديـــن (تلمسان) .

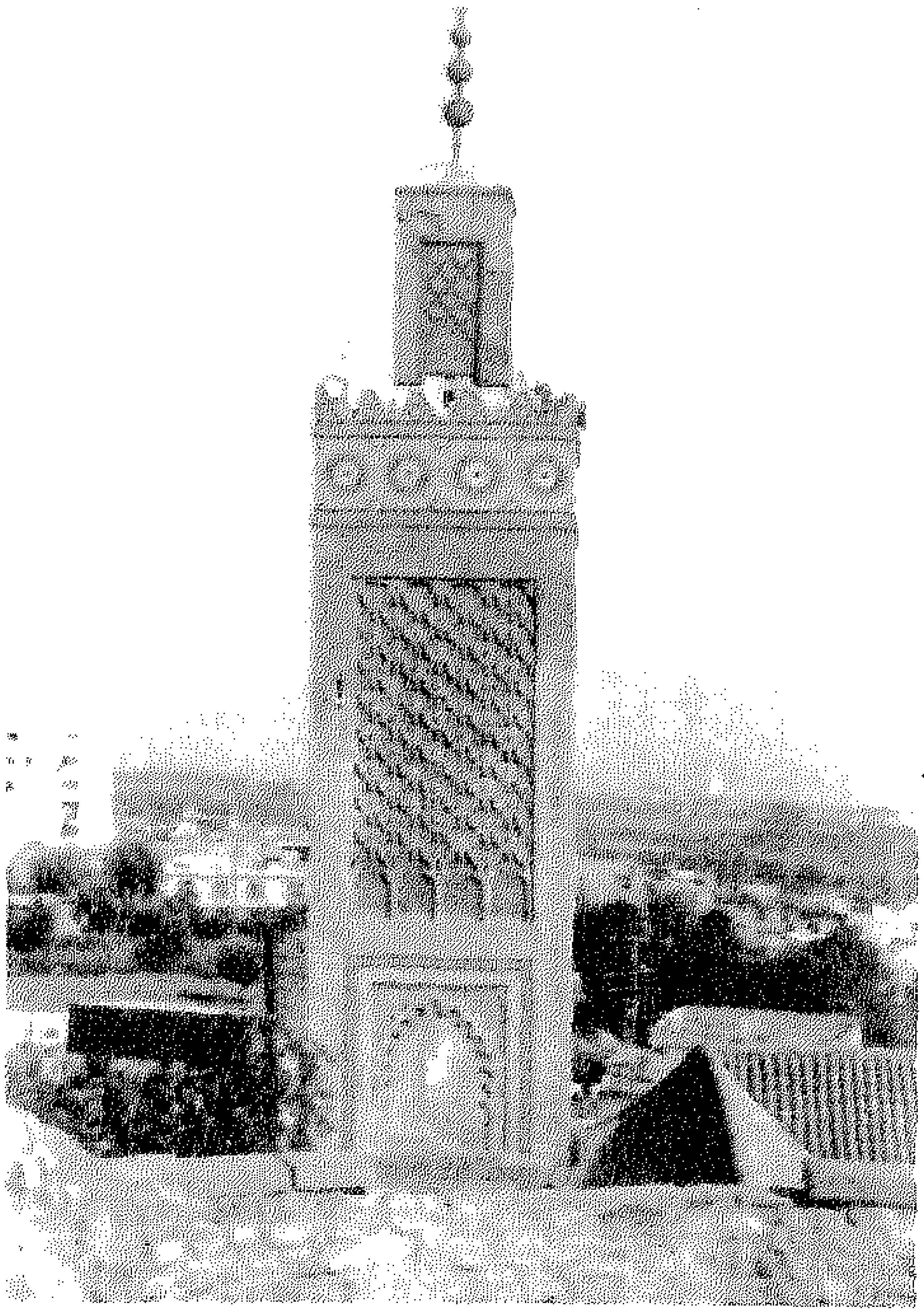

لوحة (٢٥) : مئذنة جامع سيدي الحلوي (تلمسان) .

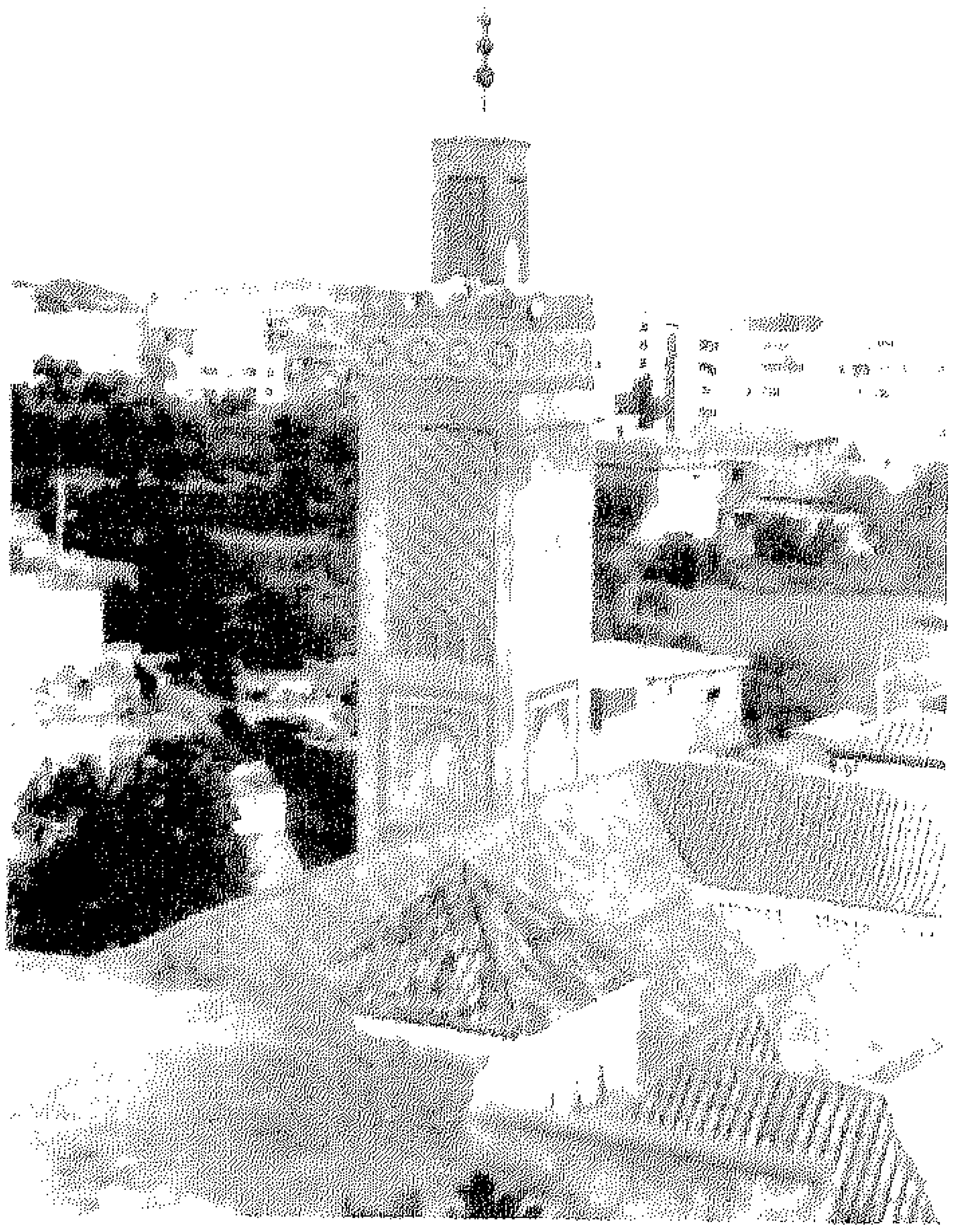

لوحة (٢٦) : منظر جانبى لمئذنة جامع سيدي الحلــوي .

لوحة (٢٧) : مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينــــة

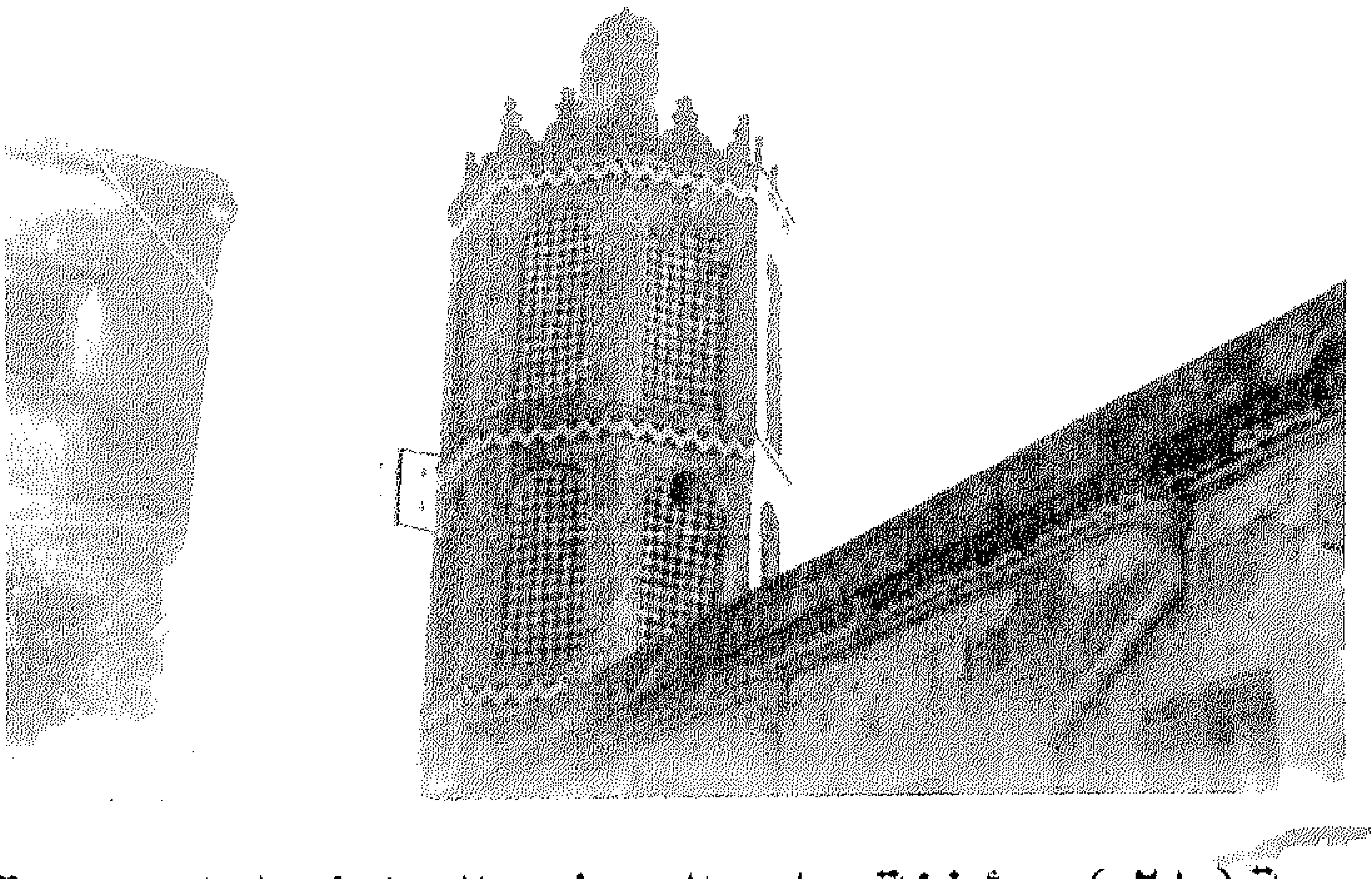

لوحة (٢٨) : مئذنة جامع الجيش بالجزائر العاصمــــة .

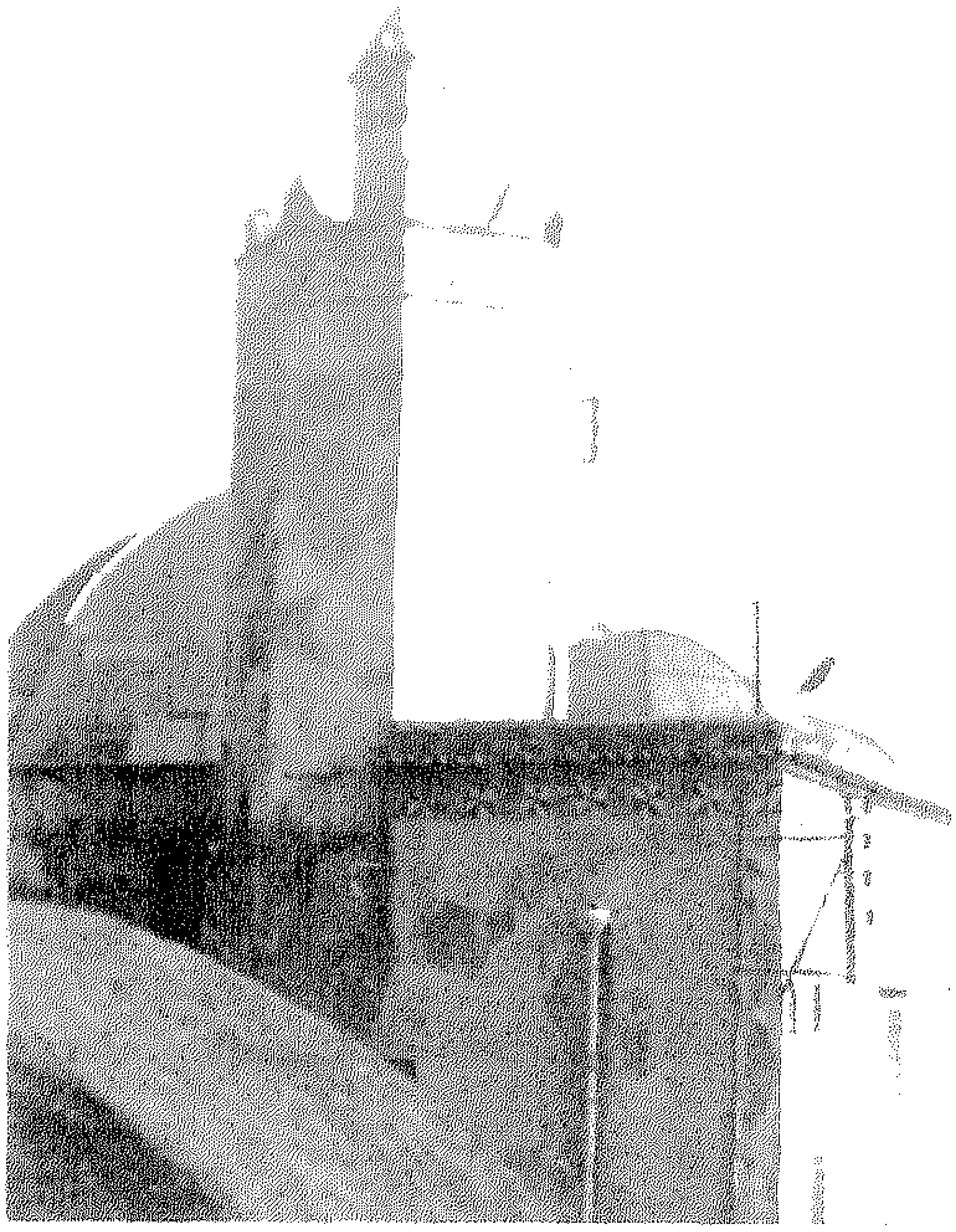

لوحة (٢٩) : مئذنة جامع الداي بالجزائر العاصمـــة .

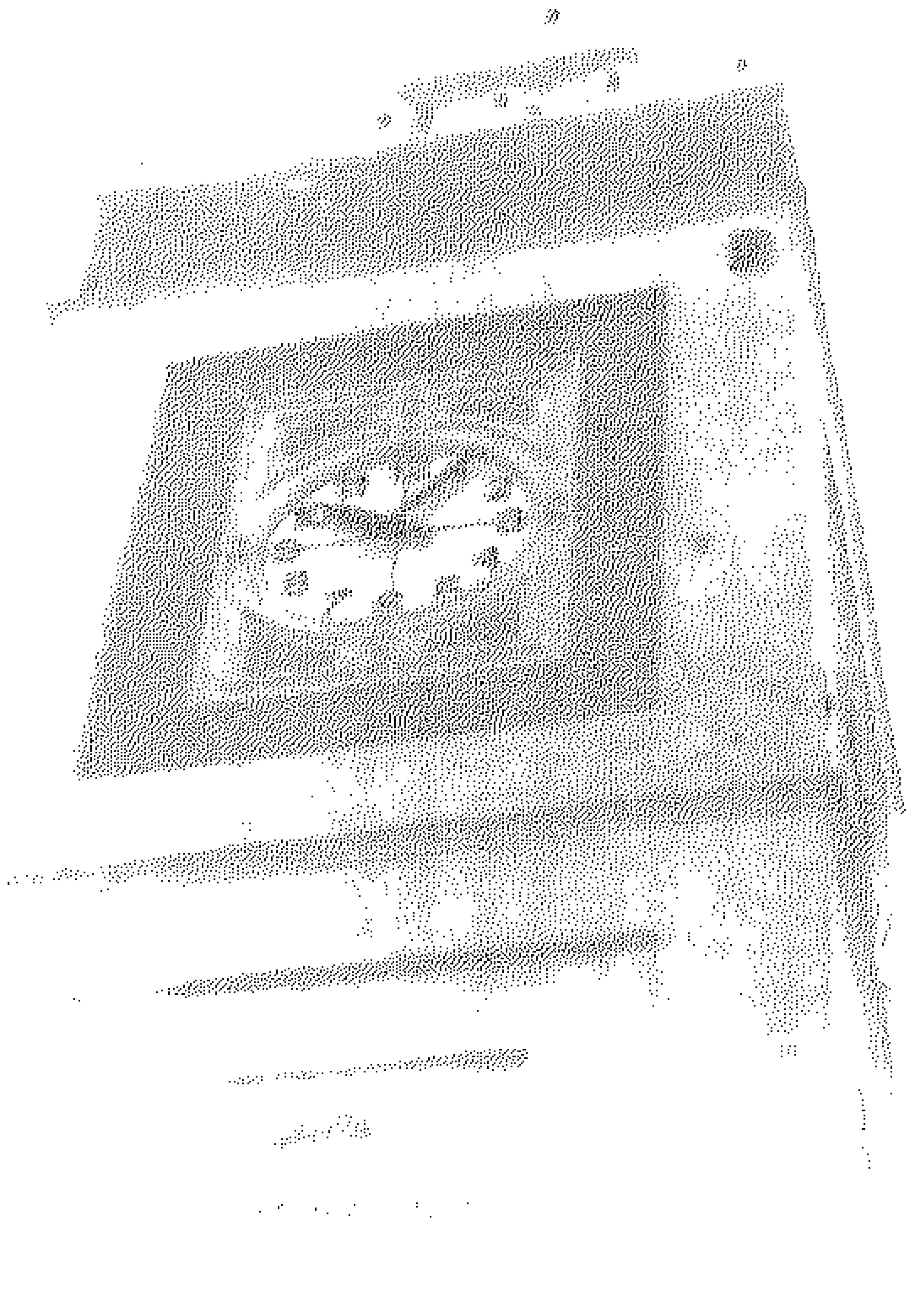

لوحة (٣٠) : الجزء العلوي لمئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمـــة .

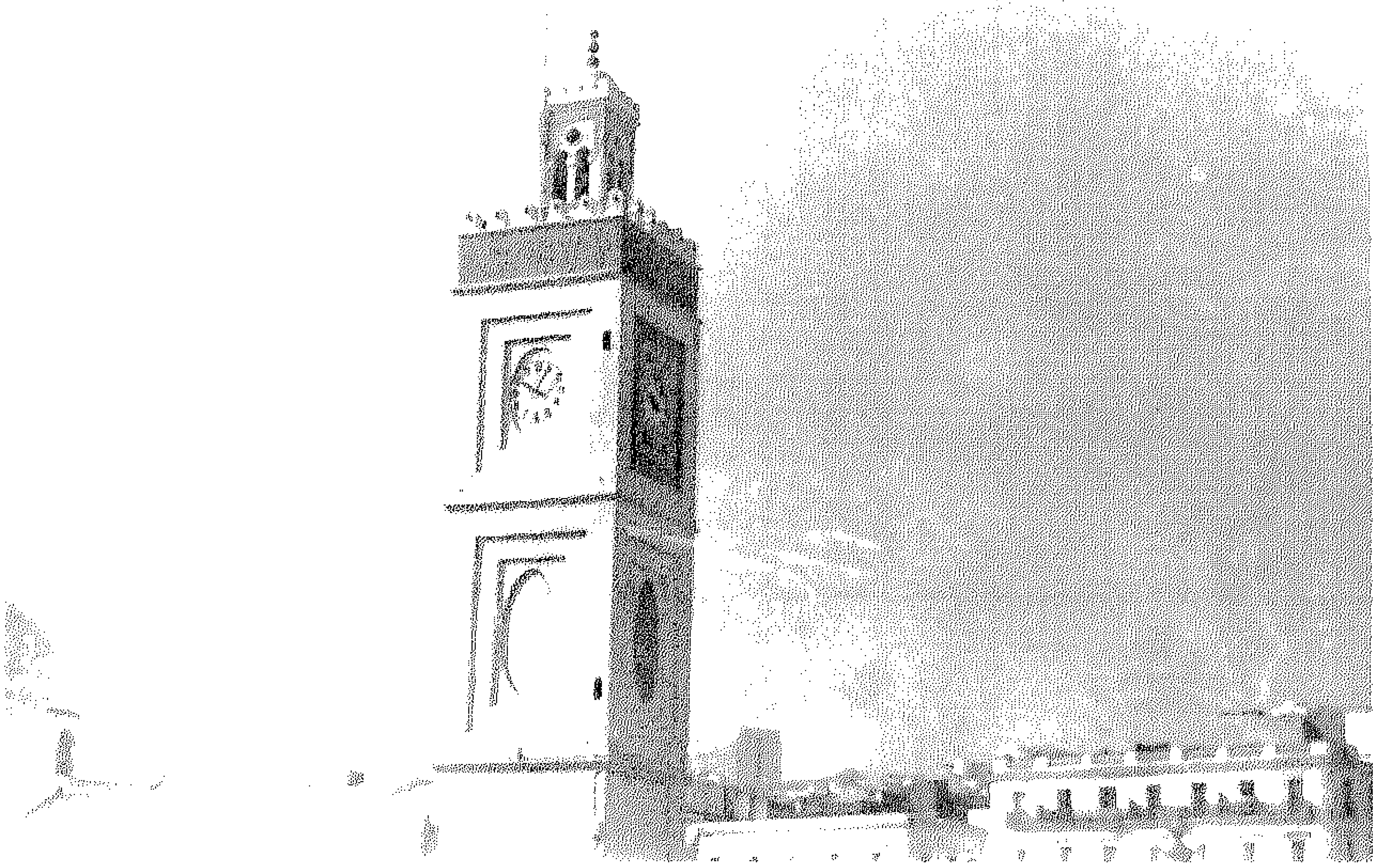

لوحة (٣١) : منظر جانبى لمئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمـــة .

لوحة (٣٢) : الجزء العلوى المزخرف بعقود فى مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبى (الجزائر العاصمـــة) .

لوحة (٣٣) : منظر عام لمئذنة
جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبى.

لوحة (٣٤) : منظر عام لمئذنة
جامع الباشا بوهران .

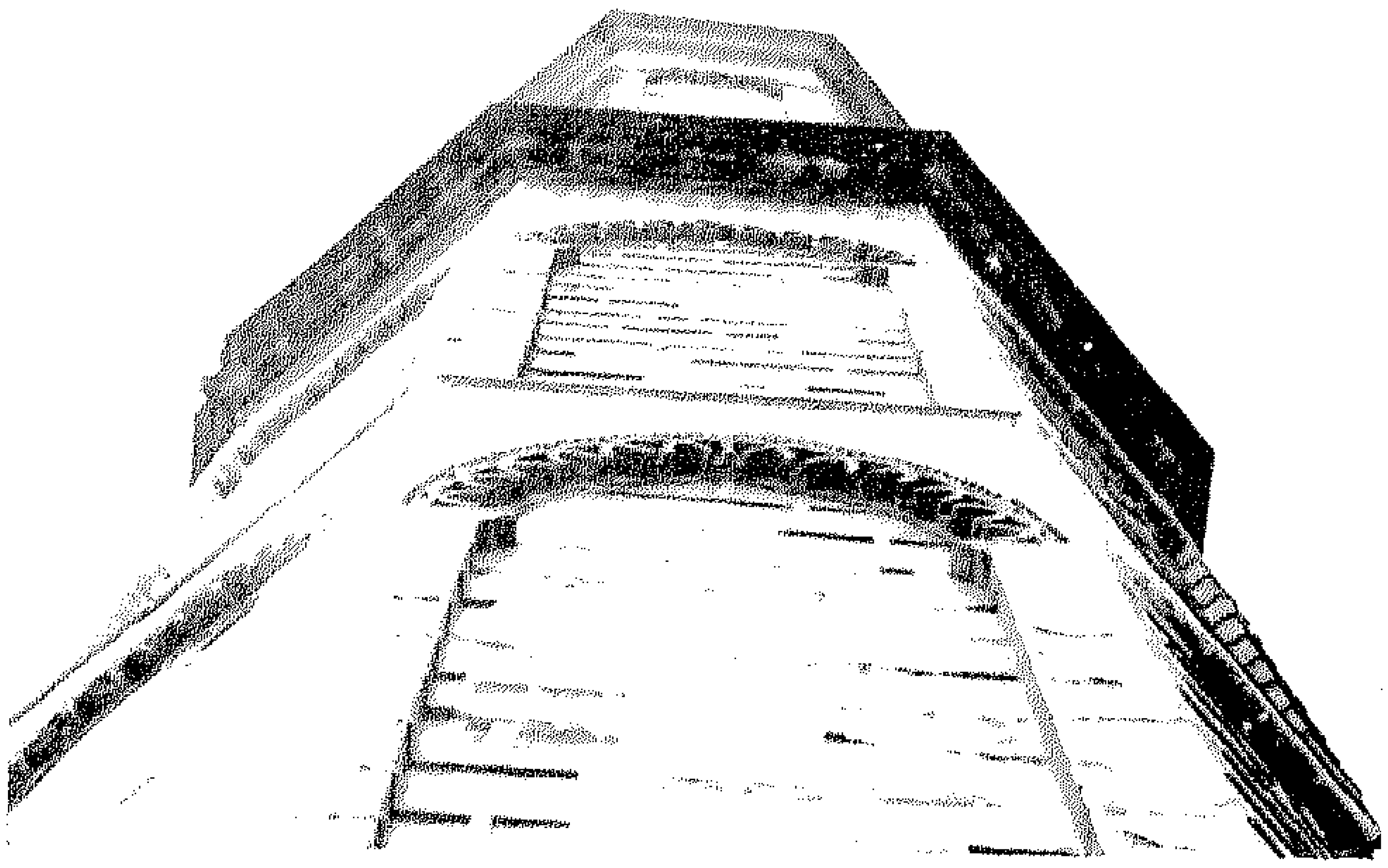

لوحة (٣٥) : الجزء العلوي لزخارف مئذنة جامع الباشا بوهران .

لوحة (٣٦) : بدن مئذنة جامع الباشا بوهران .

لوحة (٣٧) : مئذنة جامع صالح بـــاى بعنابـــة .

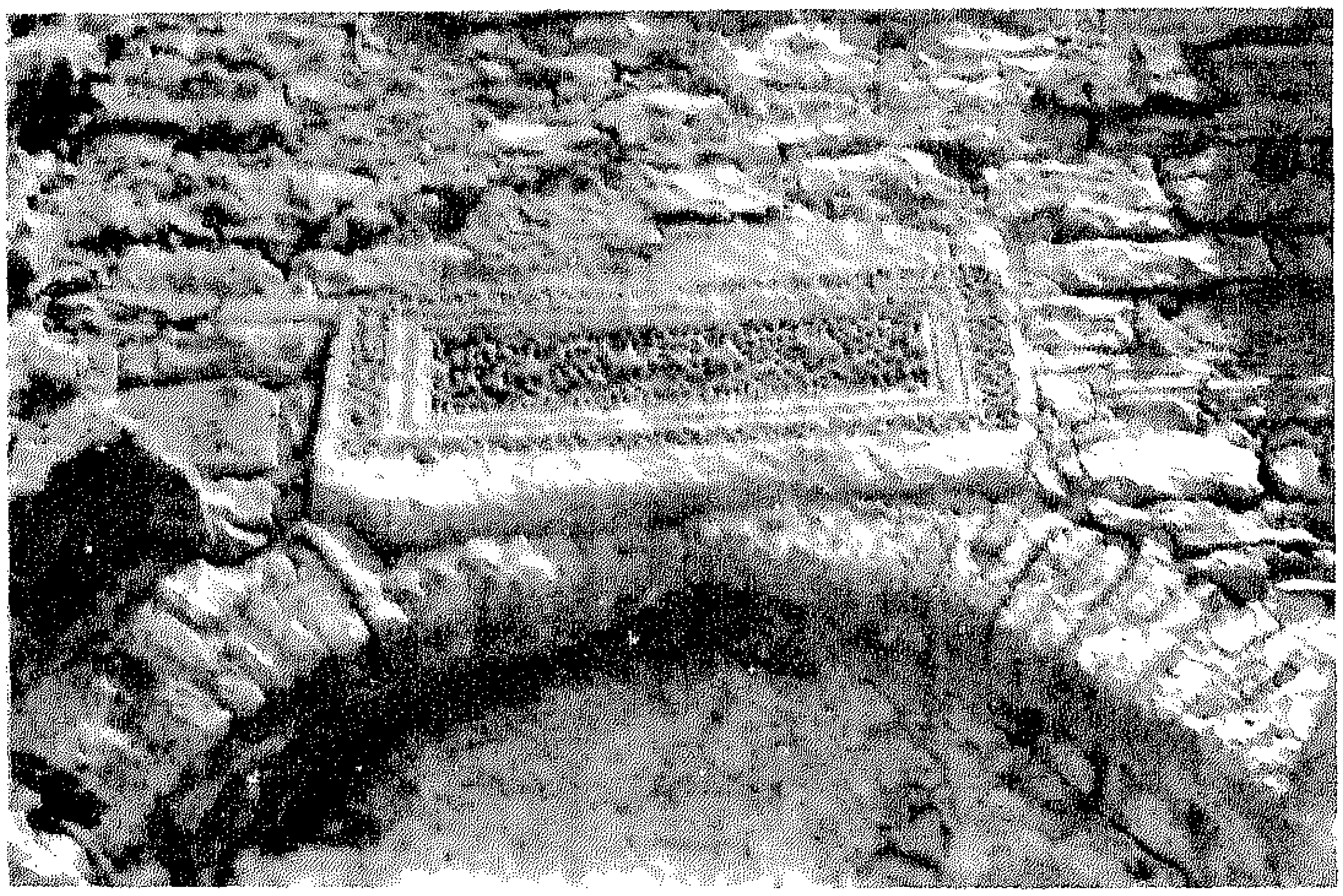

لوحة (٣٨) :
اللوحة الحجرية المزخرفة التى تعلو مدخل مئذنة جامع قلعة بنى حماد.

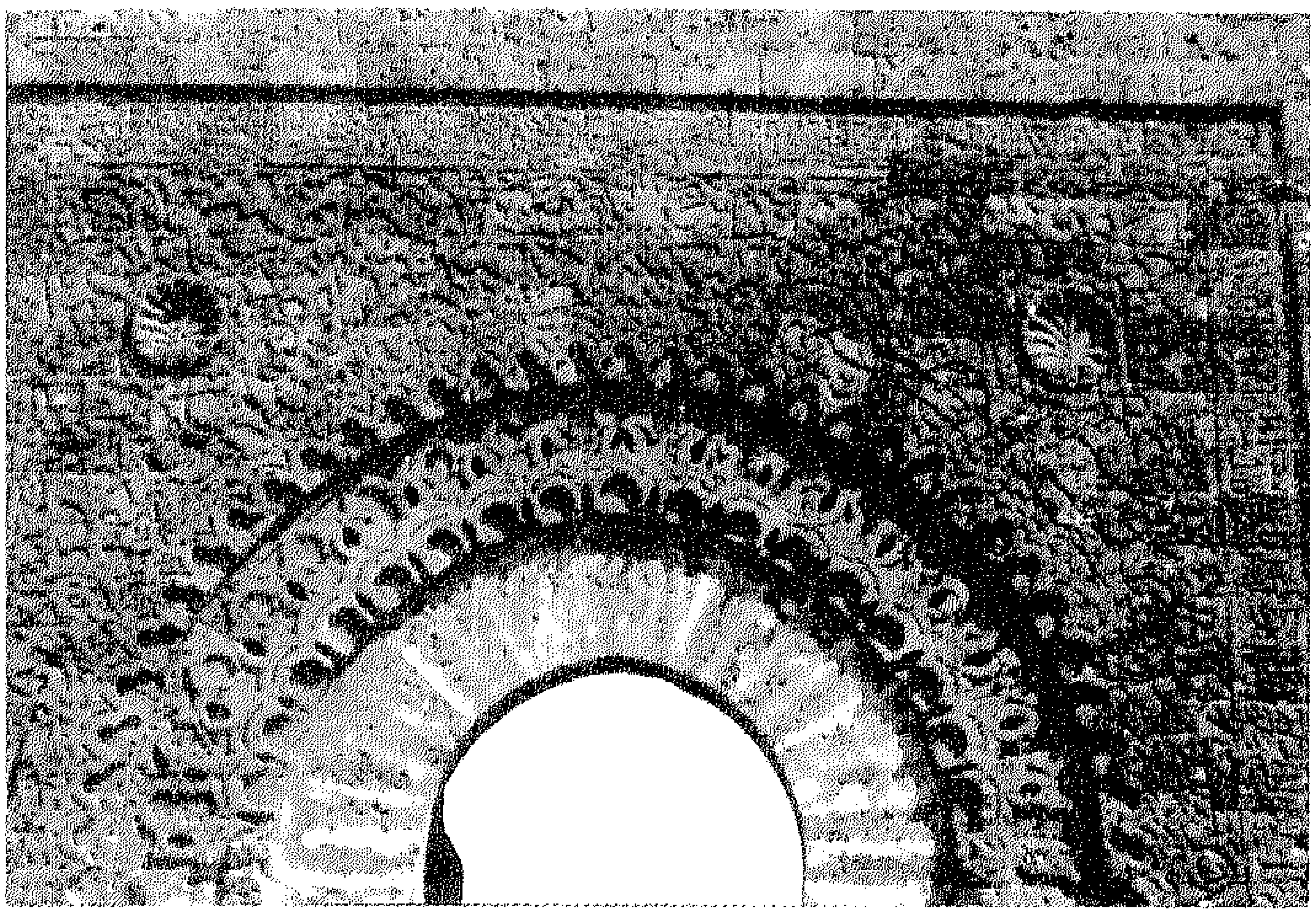

لوحة (٣٩) : زخارف نباتية متداخلة من الحجر تزين مدخل مئذنة جامع المنصورة .

لوحة (٤٠) : الزخارف النباتية باحدى الواجهات فى جوسق مئذنة سيدى ابى مديـــن .

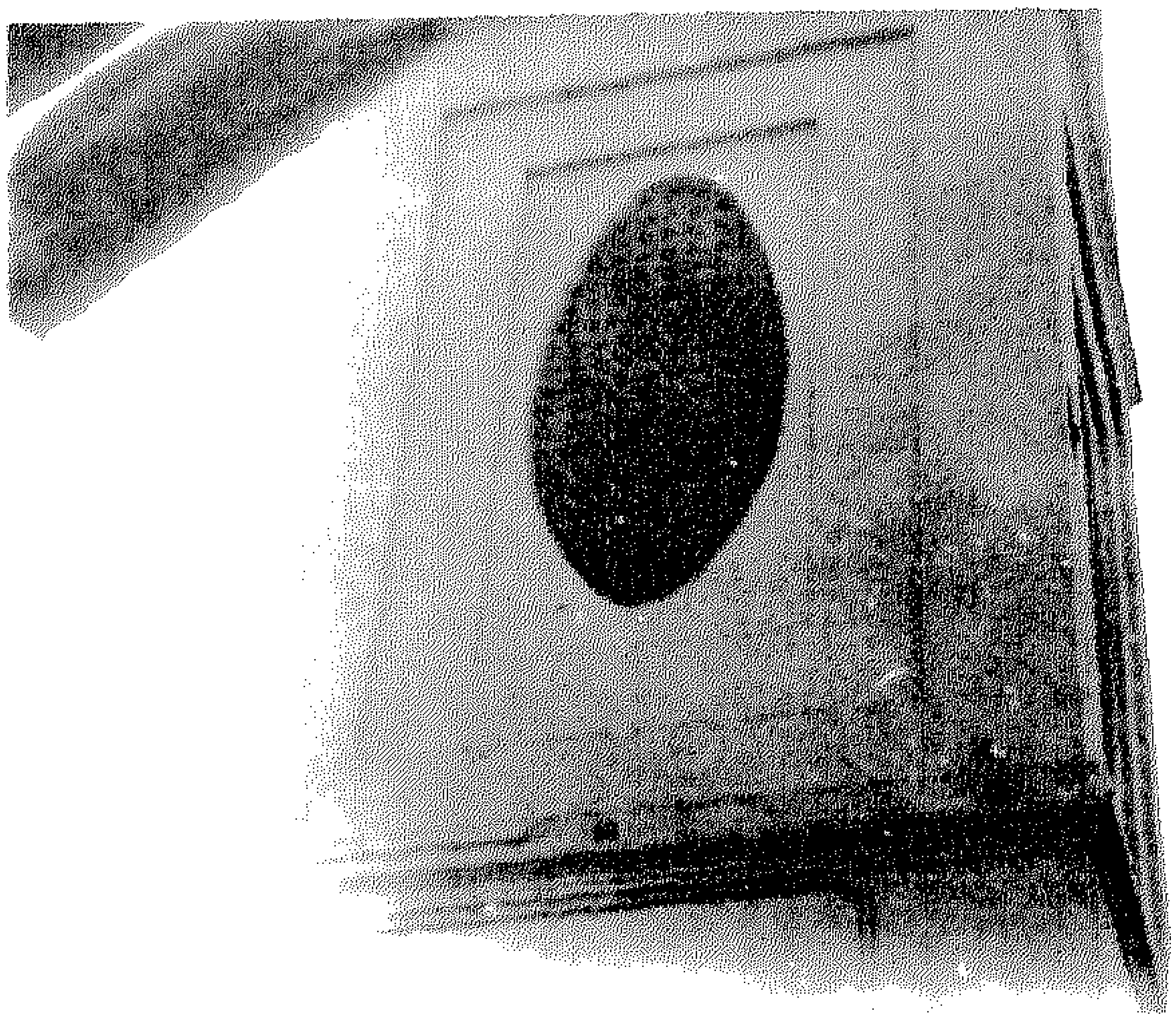

لوحة (٤١) : زخرفة بيضية من الزليج العثمانى على واجهة الجامع الجديد بالعاصمة .

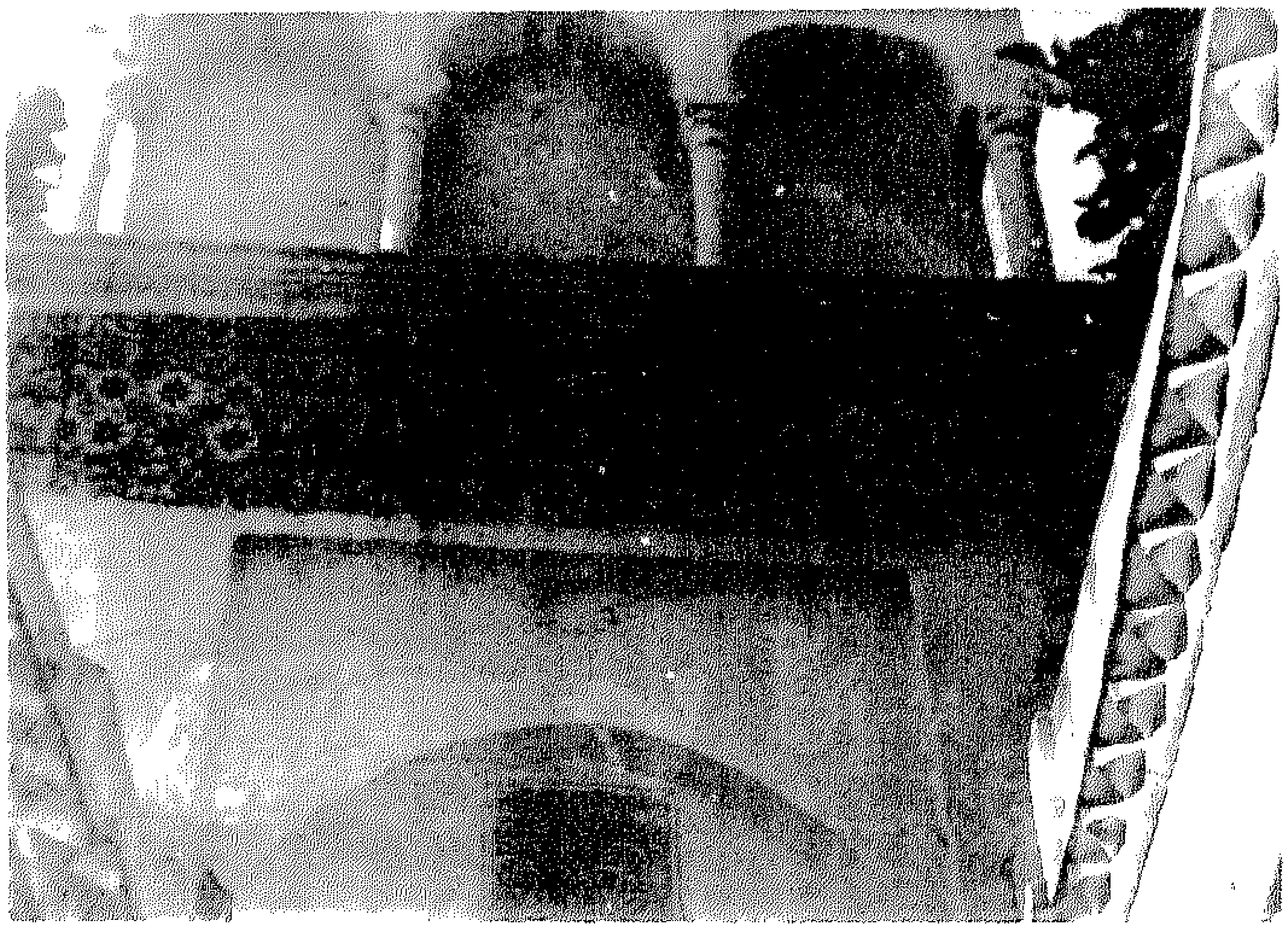

لوحة (٤٢) :
شريط عريض من الفسيفساء الخزفية باشكال نباتية وهندسية فى مئذنة جامع سيدى عبد الرحمن الثعالبـــى .

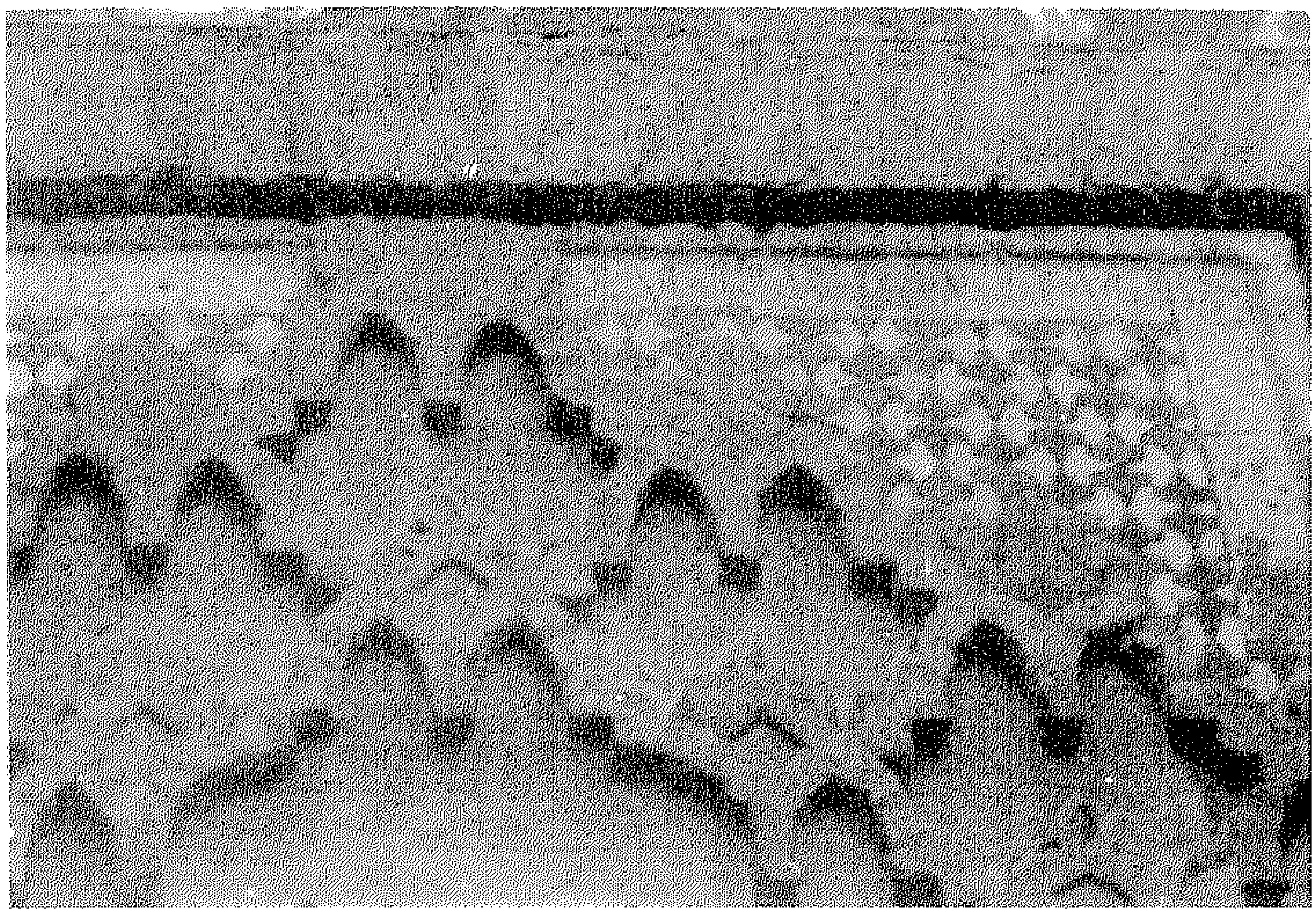

لوحة (٤٣) :شبكة من المعينات المتشابكة يزين ارضيتها قطع من الزليج ويحيط بها شريط من الكتابــة مئذنة جامع المشور (تلمسان) .

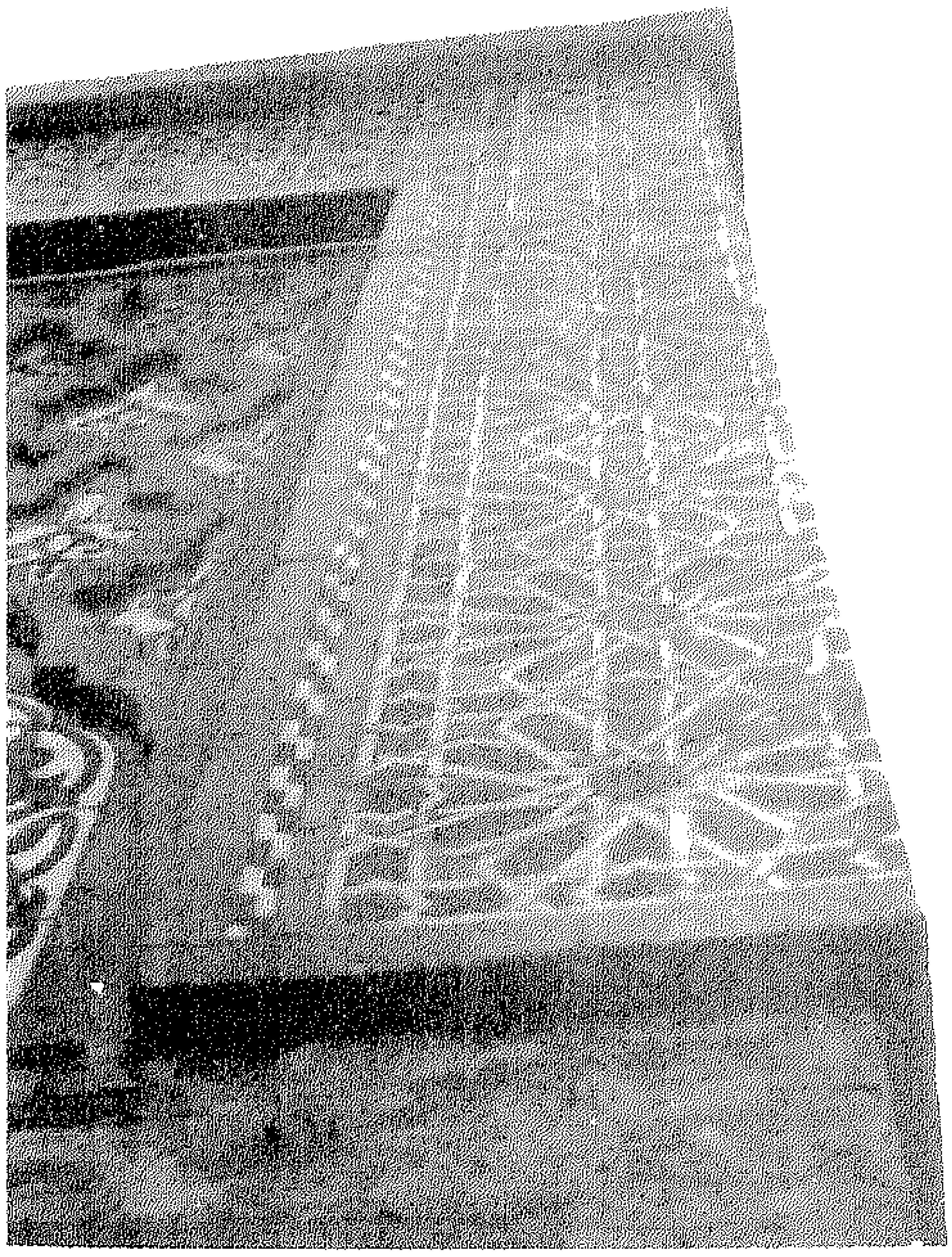

لوحة (٤٤) : شبكة من الزخارف الهندسية التى تزين واجهة جوسق مئذنة جامع سيدى ابى مدين .

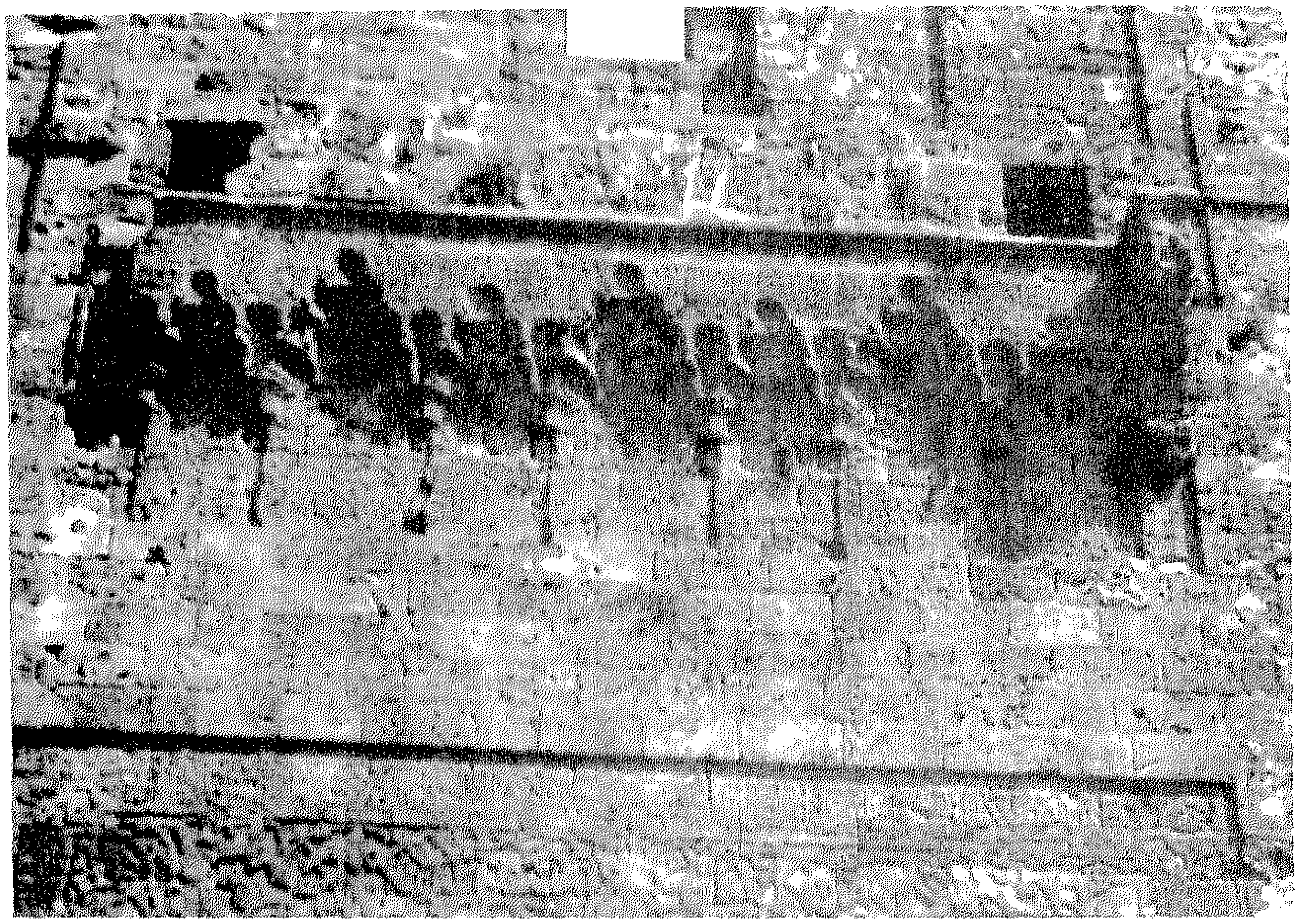

لوحة (٤٥) : صف من المقرنصات التى تظهر لاول مرة فى زخرفة المآذن بالجزائر (مئذنة جامع المنصورة) .

تطور المآذن في الجزائر

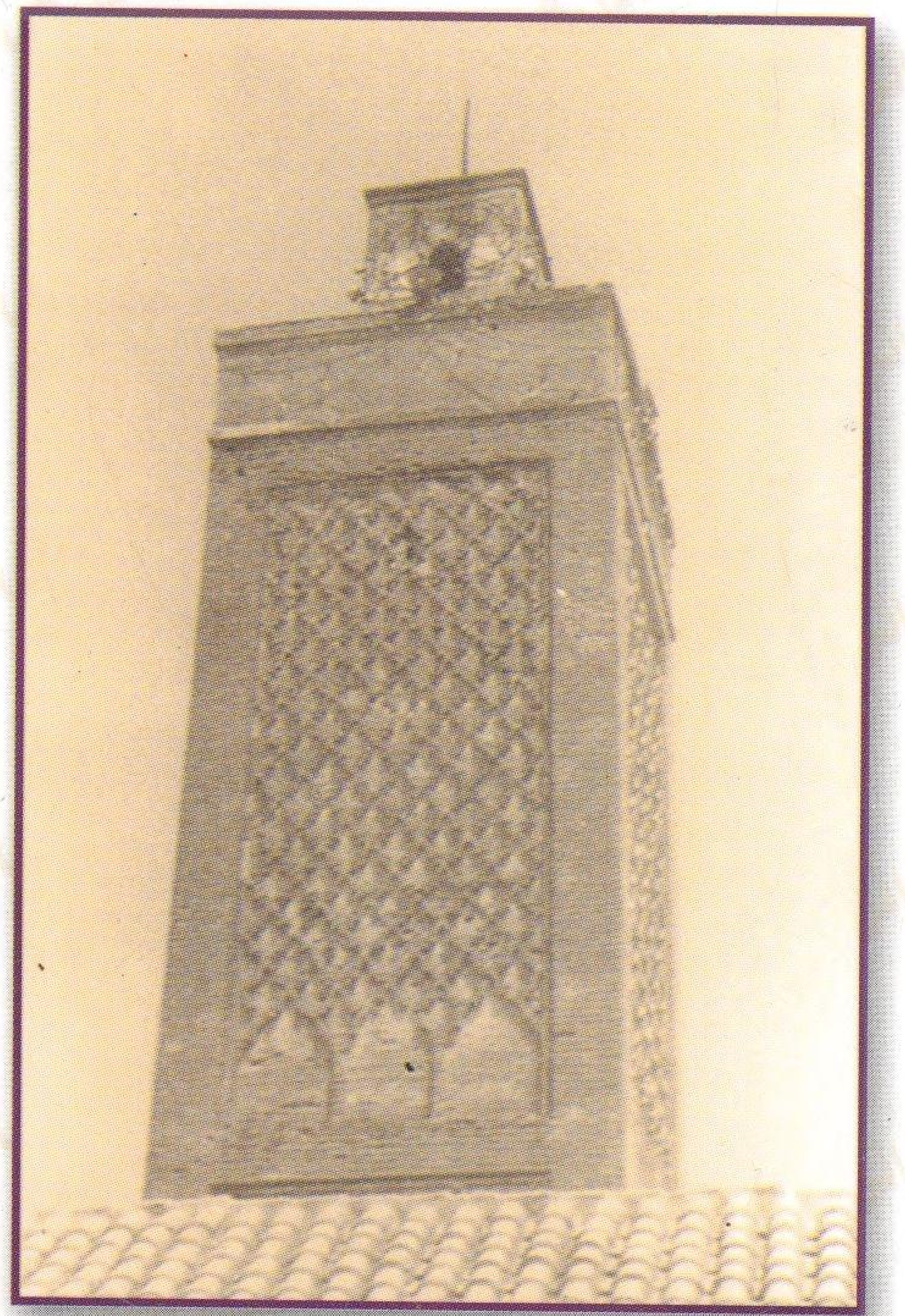

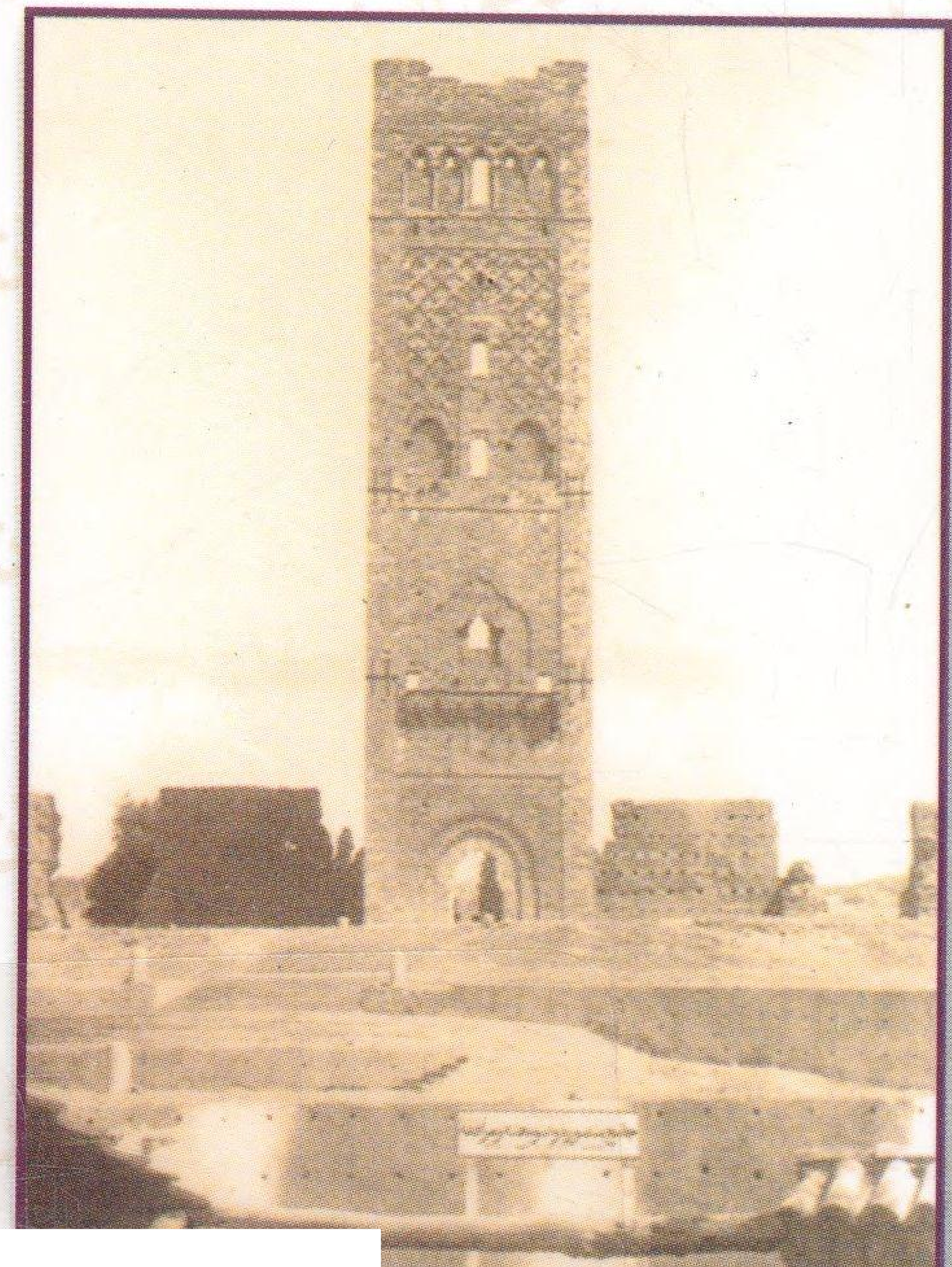

الناشر
مكتبة زهراء الشرق
١١٦ شارع محمد فريد
ت: ٣٩٢٩١٩٢ موبايل: ٠١٢٣١٧٧٥١٠